

TIGHT BINDING BOOK

UNIVERSAL
LIBRARY

OU_190426

UNIVERSAL
LIBRARY

OSMANIA UNIVERSITY LIBRARY

Call No. ف-20/842523 Accession No. 14928

Author

جرجي زيدان

Title

1932

فتاة القرون

This book should be returned on or before the date last marked below.

فتاها القيرفان

رواية تاريخية غرامية

هي الحلقة الخامسة عشرة من سلسلة روايات تاريخ الاسلام

تتضمن ظهور دولة العبيدين أو الفاطميين في افريقية ومناقب
المعز لدين الله وقائده جوهر الى فتح مصر واستخراجها من
الدولة الاخشيدية سنة ٣٥٨هـ ويتخلل ذلك وصف برايرة افريقية
وعاداتهم واخلاقهم . وبيان الاسباب الاجتماعية التي ساعدت على
ذلك الفتح ولا سيما انهماك الاخشيديين بالترف واستبدادهم وانقسام
جندهم . واتحاد جند الفاطميين ومحافظةهم على مناقب البادية

تأليف

عزجي زيدان

منشء الهلال

مطبعة النهضة

سنة ١٩٣٢

قُتَالُ الْقَيْرَوَانِ

رواية تاريخية غرامية

هي الحلقة الخامسة عشرة من سلسلة روايات تاريخ الاسلام

تتضمن ظهور دولة العبيدين أو الفاطميين في افريقية ومناقب المعز لدين الله وقائده جوهر الى فتح مصر واستخراجها من الدولة الاخشيدية سنة ٣٥٨هـ ويتخلل ذلك وصف برايرة افريقية وعاداتهم واخلاقهم . وبيان الاسباب الاجتماعية التي ساعدت على ذلك الفتح ولا سيما انهمالك الاخشيديين بالترف واستبدادهم وانقسام جندهم . واتحاد جند الفاطميين ومحافظةهم على مناقب البادية

تأليف

عزجي زيدان

منشئ الهلال

مطبعة النهضة

سنة ١٩٣٢

مقدمة الطبعة الاولى

سنة ١٩١٢

هذه الحلقة الخامسة عشرة من سلسلة روايات تاريخ الاسلام - غير رواية الانقلاب العثماني الحلقة الاخيرة من هذه السلسلة التي قدمنا صدورها لغرض ذكرناه في مقدمتها . ونحن نزداد تحقّقاً كل يوم اننا احسننا في اصدار هذه الروايات لما فيها من اللذة والفائدة فانها تشوق الى مطالعة تاريخ الاسلام وتشرح احوال العصر والامم الاجتماعية والادبية والسياسية وتمثلها تمثيلاً لا تتسع له كتب التاريخ . ولذلك كان وضع الروايات التاريخية أكثر وعورة من تأليف التاريخ ولا سيما لمن يتوخى التحقيق وضبط الوقائع والمحافظة على الاصل التاريخي مع تطبيقه على حديث الغرام كما نفعل نحن ويؤيد موافقة هذا الاسلوب لحاجة القراء ما نراه من اقبال قراء العربية على مطالعة هذه الروايات واقدام أدباء الامم الاخرى على نقلها الى السنتهم . فانها قد نقلت حتى الآن الى ثماني لغات وهي :

١ اللغة الفارسية : نشر فيها الى الآن روايات فتاة غسان وارمانوسة المصرية و١٧ رمضان وغادة كربلاء والحجاج بن يوسف وفتح الاندلس وأبو مسلم الخراساني

٢ اللغة الهندية (الاوردية أو الهندستانية) ظهر فيها حتى الآن فتاة غسان وارمانوسة المصرية وفتح الاندلس

٣ لغة التاميل من اللغات الهندية الدورية في سنقابور وغيرها : نقلت اليها فتاة غسان والمملوك الشارد

٤ اللغة التركية العثمانية : نقلت اليها رواية أبي مسلم الخراساني . وهي تنشر تباعاً في جريدة اقدام

٥ اللغة التركية الاذريجانية في باكو واذريجان : نقلت اليها

عذراء قریش

- ٦ اللغة الروسية : نقلت اليها رواية المملوك الشارد (لم تطبع بعد)
 ٧ اللغة الفرنسية : نقلت اليها رواية العباسة أخت الرشيد وهي
 تنشر في الفيغارو تباعاً . وأسير المتمهدي لم تنشر بعد
 ٨ اللغة الانكليزية : نقلت اليها فتاة غسان وعذراء قریش
 وستنشران قريباً

هذه هي اللغات التي عرفنا نقل بعض هذه الروايات اليها وقد يوجد
 غيرها مما لم نطلع عليه

ونحن باذلون الجهد في اتمام هذه السلسلة مع تحري الحقيقة والمحافظة
 على الوقائع التاريخية من حيث زمانها ومكانها ودمجها في القصة الغرامية على
 اسلوب يشوق للمطالعة . والغرض من هذه الروايات ليس تقرير الحقائق
 التاريخية ليرجع اليها في التحقيق وانما المراد بها التشويق لمطالعة التاريخ
 وبسط الاحوال الاجتماعية والسياسية المحدقة بالوقائع مع تمثيل عادات
 الامم واخلاقهم وآدابهم وبالله التوفيق

الفصل الاول

الشيعة العلوية في المغرب والدولة الفاطمية

قاسى الشيعة في زمن بني أمية في الشام عذاباً شديداً من القتل والصلب . وكذلك في الدولة العباسية ولا سيما في أيام المنصور والرشيد والمتوكل فحملهم ذلك على الفرار الى اطراف المملكة الاسلامية فهاموا على وجوههم شرقاً وغرباً وكان في من نجا منهم نحو المغرب ادريس بن عبد الله بن الحسن المثنى اخو محمد بن عبد الله الذي بايعه المنصور ثم نكث بيعته . فأتى ادريس مصر وهي يومئذ في حوزة العباسيين فاستخفى في مكان أتاه اليه بعض الشيعة سرّاً ومنهم صاحب البريد فحمّله الى المغرب في أيام الرشيد فلتقاه الشيعة هناك وبايعوه فأنشأ دولة في مراکش عرفت بالدولة الادريسية من سنة ١٧٢ — ٣٧٥ هـ على ان هؤلاء لم يسموا أنفسهم خلفاء

أما ظهور الشيعة وتغلّبهم وارتفاع شأنهم حقيقة فالفضل فيه للدولة الفاطمية نسبة الى بنت النبي لان أصحابها ينتسبون اليها وتسمى ايضاً الدولة العبّيدية نسبة الى مؤسسها عبيد الله المهدي . وكان شأن الشيعة قد بدأ بالظهور في المشرق على يد بني بويه في اواسط القرن الرابع للهجرة ولما تغلب البويهيون على بغداد كانت الدولة الفاطمية قد اشتد ساعدها المغرب وهمت بفتح مصر . وكان آل بويه يغالون في التشيع ويعتقدون ان العباسيين قد غصبوا الخلافة من مستحقّيها فاشار بعضهم على معز الدولة البويهي ان ينقل الخلافة الى العبّيديين أو الى غيرهم من العلويين فاعترض عليه بعض خاصته قائلاً « ليس هذا برأي فانك اليوم مع خليفة تعتقد انت وأصحابك انه ليس من اهل الخلافة لو أمرتهم بقتله لقتلوه مستحلين دمه ومتى اجلست بعض العلويين خليفة كان معك من تعتقد أنت وأصحابك صحة خلافته فلو أمرهم بقتلك لقتلوك » فرجع معز الدولة عن عزمه على ان ظهور الشيعة في المشرق هون على الدولة العبّيدية فتح مصر

والانتقال اليها وكانت قصبتها اولا المهديّة بافريقية وخلفاؤها ينتسبون الى الحسين بن علي وللمؤرخين في انتسابهم اليه اقوال متناقضة فالذين يتعصبون للعباسيين ينكرون ذلك عليهم . ويغلب في اعتقادنا صحة انتسابهم اليه وان السبب في وقوع الشبهة طعن العباسيين فيه تصغيراً لشأنهم

والمصريون كانوا يحبون علياً من صدر الاسلام وكانوا من حزبه يوم مقتل عثمان ولكن قلما كان لهم شأن في الشيعة العلوية لان العلويين استنصروا اولا أهل العراق وفارس . فلما قامت الدولة العباسية وتأثرهم المنصور بالقتل والحبس وقتل محمد ابن عبد الله الحسيني وبعض اهله من بني حسن وفر سائر العلويين من وجه الدولة العباسية كان في جملتهم علي بن محمد بن عبد الله فجاء مصر بأمر دعوته بعض رجال الشيعة لكنه ما لبث ان حمل الى المنصور واختفى

وكان حال الشيعة العلوية بمصر يتقلب بين الشدة والرخاء بتقلب احوال الخلفاء في بغداد فان تولى خليفة يكره العلويين ضيق على الشيعة واضطهدهم والعكس بالعكس . فلما تولى المتوكل واضطهد الشيعة العلوية كتب الى عامله بمصر باخراج آل أبي طالب الى العراق فاخرجهم سنة ٢٣٦ هـ ولما قدموا العراق أرسلوهم الى المدينة واستتر من بقي في مصر على رأي العلوية . لان عمال المتوكل كانوا يبالغون في اظهار الكره للشيعة ترفاً من الخليفة - يحكى ان رجلاً من الجند اقترف ذنباً أوجب جلدّه فأمر يزيد بن عبد الله عامل مصر يومئذ بجلدّه فأقسم عليه بحق الحسن والحسين الا عفا عنه فزاده ثلاثين ضربة ورفع صاحب البريد الى المتوكل ذلك الخبر فورد كتابه الى العامل ان يضرب الجندي المذكور مئة سوط فضربه . وتتبع يزيد المشار اليه آثار العلويين فعلم برجل منهم له دعاة وانصار فقبض عليه وأرسله الى العراق مع اهله وضرب الدين بايعوه

ولما تولى المنتصر بن المتوكل سنة ٢٤٧ هـ كتب الى عامله بمصر ان لا يضمن علوي ضيعة ولا يركب فرساً ولا يسافر من الفسطاط الى طرف

من اطراف مصر وان يمنعوهم من اتخاذ العبيد الا العبد الواحد . واذا كان بينهم وبين أحد الناس خصومة قبل قول خصمهم فيهم بغير ان يطالب بينة . فقاسى العلويون عذاباً شديداً بسبب ذلك

ولما استقل احمد بن طولون بامارة مصر سنة ٢٥٤ هـ اضطهد الشيعة لانه تركي ولانه على رأي الخليفة العباسي فاقتص آثار العلويين وحاربهم مراراً . حتى اذا ضعف امر بني طولون بمصر واختلت احوال الدولة العباسية في بغداد وتغلب آل بويه عليها في القرن الرابع للهجرة أخذ حزب الشيعة ينتعش ويتقوى فلما جاءهم جند المعز لدين الله الفاطمي سنة ٣٥٨ هـ بقيادة جوهر الصقلي كانت الاذهان متأهبة لقبول تلك الدعوة ففتح جوهر مصر على أهون سبيل

الفصل الثاني

القيروان والمنصورية

القيروان من المدن الاسلامية التي اختطتها العرب بعد الفتح كالبصرة والكوفة والفسطاط . اختطها عقبة بن نافع الفهري سنة ٦٠ للهجرة بما يقرب من تونس وهو الذي افتتح أكثر المغرب . وكانت القيروان في زمن روايتنا هذه (في اواسط القرن الرابع للهجرة) قصبة بلاد المغرب وقد تقاطر الناس من انحاء العالم لتعميرها فقطنها العرب من قریش وسائر البطون من مصر وريبعة وقحطان واصناف من العجم من اهل خراسان واصناف من البربر والروم واشباه ذلك . وكان شربهم من ماء المطر ينصب من الاودية الى برك عظام يقال لها المؤاجل فمنها شرب السقاة ولهم واد يسمى وادي السراويل في قبلة المدينة

وكان بنو الاغلب لما نزلوها في القرن الثالث قد ابتنوا على ميلين منها قصوراً لانفسهم ثم ابتنوا محلة على ثمانية اميال منها سموها رقادة . حتى اذا نزلها الفاطميون في اول القرن الرابع للهجرة ابتنوا لانفسهم حصناً مستديراً

بالقرب منها سموه صبرة ويسمى أيضاً المنصورية جعلوه مستقر لهم ولاهلم .
 كما فعل المنصور ببناء بغداد قبل ذلك بقرنين فالمنصورية بلدة مستديرة الشكل
 قرب القيروان بناها اسماعيل بن القاسم بن عبد الله المهدي سنة ٣٣٧ هـ
 واستوطنها وجعل قصره في وسطها والماء يجري فيها وانشأ بها اسواقاً
 جميلة وجامعاً وعرض سورها ١٢ ذراعاً وهي منفصلة عن القيروان بعرض
 الطريق . ومن أبوابها باب الفتوح وباب زويلة وباب وادي القصارين وكلها
 مصفحة بالحديد ^(١)

وأول الخلفاء الفاطميين عبيد الله المهدي بن محمد الحبيب بن جعفر
 الصادق من نسل الحسين بن فاطمة الزهراء . قام له بالدعوة رجل شيعي
 اسمه أبو عبد الله الشيعي بمساعدة قبائل البربر وخصوصاً كتامة وضمهاجة كما
 قام أبو مسلم الخراساني في المشرق بدعوة العباسيين بمساعدة الخراسانيين . ولما
 استقر لعبيد الله المهدي الملك قتل أبا عبد الله الشيعي كما قتل المنصور أبا مسلم ^(٢)
 وكان عبيد الله في أول الدعوة يقيم في المهديّة على ساحل تونس ثم
 نقل الى القيروان وتوفي سنة ٣٢٢ هـ خلفه ابنه القاسم ولقب القائم بأمر الله
 وتوفي سنة ٣٣٤ هـ خلفه ابنه المنصور أبو طاهر وتوفي ٣٤١ هـ خلفه المعز
 لدين الله وعلى عهده فتحت مصر على يد قائده جوهر الصقلي . وفي أيامها
 جرت حوادث هذه الرواية

الفصل الثالث

المعز لدين الله وقائده جوهر

خرج المعز في ليلة مقمرة من ليالي سنة ٣٥٧ هـ الى حديقة قصره في
 المنصورية قرب القيروان وفي الحديقة بركة واسعة يصب فيها الماء من نبع جر
 ماء المعز اليها من جبل بقرب المنصورية وفرقه بانابيب الرصاص الى قصور
 المدينة ومسجدها واسواقها . وينصرف ما بقي من ذلك الماء الى القيروان .

(١) ياقوت ج ٣ والمقدسي واليعقوبي (٢) ابن خلدون ج ٤

وقد علمت ان المنصورية خاصة بالخليفة وأهله وحاشيته واعوانه لا يشاركون فيها أحد . وقد احاطوها بسور ضخمة عال فهي اشبه بالحصون منها بالمدن . وهو هناك في مأمن من غدر الغادرين لانها محاطة بسور منيع أبوابه مصفحة بالحديد ثقيل وتفتح عند الحاجة

خرج المعز في تلك الليلة وهو مطمئن الخاطر لا يخاف غدرأ . حتى اذا توغل في الحديقة ولا شيء فيها من زخارف المدينة اشرف على تلك البركة وليست هي مما يستجلب النظر أو يستلفت الانتباه لكن لها حديثاً يطرب له المعز ولا يطرب له سواه الا قائده جوهر البطل الصقلي . وكان قد اسكنه في مدينته واختصه بقصر من قصورها وبالع في اكرامه ورفع منزلته وصل البركة والقمر قد تكبد السماء فاسرع البستاني الى مقعد معد لجلوس الخليفة اذا نزل في تلك الساعة واهل القصر نيام حتى الخدم . وانما أرقه امر شغل خاطره وأخذ بمجامع قلبه لم يكشف به أحداً من اعوانه لانه كان حريصاً على سره لا يطلع عليه أحداً الا اذا نضج وآن اخراجه الى حين الفعل - شأن رجال العمل وأهل الحزم . على انه ضاق ذرعاً في تلك الليلة عن الاحتفاظ بذلك السر فخطر له ان يكشف به قائده جوهر وكان المعز عالي الهمة عظيم الهية واسع المطامع ادرك الاربعين من عمره وقد لبس في تلك الليلة رداء أبيض بسيطاً والتف بالعبادة وجعل على رأسه عمامة صغيرة . فلما استقر به الجلوس صفق ونادى « خفيف » وهو غلام صقلي كان قد اختصه بخدمته فحضر فقال « ادع قائدنا جوهر » فمضى خفيف وما عثم ان عادومعه جوهر . وهو كهل في السادسة والخمسين من عمره وقد وخطه الشيب وكان طويل القامة ثابت الجأش عظيم الهية . وكان لما جاءه رسول المعز قد ذهب الى فراشه فنهض وارتدى ثيابه وبادر الى ملاقة مولاه . فلما شعر المعز بقدومه تحفز للنهوض ورحب به وبشله فحجل جوهر من ذلك الاكرام فاكب على يدي الخليفة فقبلها وقبل ركبتيه وأوشك ان يقبل قدميه فانفضه المعز ودعاه للجلوس بجانبه فجلس متأدباً فبادره المعز قائلاً « مرحباً بقائدنا الحازم وحييننا الباسل »

فتأدب جوهر وقال « اني عبد مولانا امير المؤمنين ضارب بسيفه وافديه بروحي »

قال « بل انت سيفنا المسلول وحامي دولتنا واني لا أجلس الى هذه البركة وأرى السمك يسبح فيها الا ذكرت بلاءك في سبيل الحق . ان هذا السمك يشهد بما لك من الافضال على هذه الدولة . أليست هذه الاسماك من نسل ما حملته الينا من سمك البحر المحيط في القلل يوم جردت وفتحت افريقيا واخضعت قبائلها . لا أنسى يوم جئتنا بتلك القلل وفيها السمك من ذلك البحر العظيم اشارة الى ما أدركته من تلك الفتوح العظيمة التي لم يسبق اليها سواك فلا غرو اذا اختصصتك بصداقتي وفضلتك على سائر بطانتي واهلي . . »

فحجل جوهر من هذا الاطراء وقال « العفو يا مولاي اني لم افعل شيئاً الا باسمك . والله انما نصرني بك لانك سلالة احق الناس بالخلافة ابن عم الرسول (صلعم) وصهره — انت ابن فاطمة الزهراء فكيف لا ينصرك الله ولو قام بهذه الدعوة غلام لافاح لان الحق يعلو ولا يعلى عليه »

فاسكته المعز قائلاً « ان الحق لا يعلو دائماً وكم ظل اجدادي العلويون يجاهدون وقد ذاقوا أنواع العذاب ممن استأثر بالسيادة دونهم . ولو انيحه لهم سيف مثل سيفك لغلبوا — ألم تفتح هذه البلاد من هنا الى البحر المحيط واخضعت اهلها بارك الله فيك . وهذا ما لا ريب فيه فاذا رفعنا منزلتك فقد أعطيناك حقك .. » وسكت وقد بدا الاهتمام في وجهه وجوهر ينتظر ما يبدو منه لاعتقاده انه لم يدعه في تلك الساعة الا لامر هام . فاعتدل في مجلسه وتوجه بكليته نحوه كأنه يستفهم عما يريد.

أما المعز فقد يده واستخرج من تحت العباءة قضيباً من عود طوله شبر ونصف مكسو بالذهب . فلما رآه جوهر علم انه قضيب الملك فتأدب احتراماً له فابتدره المعز قائلاً « أليس هذا قضيب الملك يا جوهر ؟ »

قال « نعم يا مولاي انه قضيب الحق وصاحبه صاحب الخلافة الحقة »

قال هـا . كمن في الدنيا خلفتنا . علم . حة ؟ »

فادرك جوهر أنه يشير الى خلافة العباسيين في بغداد انها على غير الحق ولحظ ما وراء ذلك من الامور فقال « كلا يا سيدي ان النبي واحد وخليفته واحد »

قال « الى متى نترك اولئك القوم في ظلماتهم ؟ »
فأجاب جوهر على الفور « نتركهم حتى يأمر مولانا أمير المؤمنين »
فاكبر المعز هذا الجواب الدال على حزم جوهر واستهلاكه في سبيل نصرته العلويين فابتسم وقد اشرق وجهه وكان القمر مواجهاً له بحيث يظهر ذلك لجوهر وقال « بارك الله فيك هذا ما كنت ارجوه منك وقد جال هذا الفكر في خاطري منذ اعوام وأنا أنردد فيه استطلاع المنجمين ولا أبوح به لاحد حتى اذا كانت الليلة رأيت ان اسره اليك وكنت احسبه جديداً عليك فاذا أنت أكثر تفكيراً به مني . أما وقد اطلعت على سري وأنت الوحيد الذي اطلع عليه مني فارجو ان تشير علي »

قال ليس لهذا العبد ان يشير وانما عليه ان يطيع .. فوالله لو أمرتني أن أركب الاسنة واذهب في الارض فاتحا لفعلت لعلمي اني ذاهب في نصرته الحق »

قال « لله درك من قائد باسل وصديق حميم . ولكن الامور مرهونة باوقاتها . فالآن اكنم ما دار بيننا واخبرني عن رأيك في قوادنا »
قال « انهم نعم الرجال يستهلكون في نصرته مولانا ولا سيما شيوخ كتامة فانهم قاموا بنصرة أمير المؤمنين خير قيام وعليهم المعول في أمرنا .. »

الفصل الرابع

ابو عبد الله الشيعي

فسكت المعز برهة وعاد الى الاهتمام وأخذ يلعب قضيب الملك بين أصابعه وهو يتأمله ثم قال « ولكنني أخاف عليهم الجنوح الى الترف فيأخذهم

ما أخذ أعداءنا في بغداد من أسباب المدينة حتى صاروا الى ماصاروا اليه من الذل فغلبهم مواليهم الاتراك والديلم ولم يتركوا لهم من الخلافة إلا اسمها - ولا أخفي عنك اني لم أطمع بهم إلا لما بلغني من ترفهم وانهما كهم واسترسالهم في الملذات فاذا أصاب رجالنا ما أصابهم صرنا الى مصيرهم »

قال « ليس هذا ما أخافه يا سيدي فان قومنا بعيدون عن الترف . وكيف نخاف عليهم ذلك وهم يرون امير المؤمنين ابن بنت الرسول يتولى الدولة بنفسه . يجلس في برد الشتاء على اللبود وعليه جبة وحوله ابواب مفتحة تفضي الى خزائن كتب ويين يديه دواة وكتب لا يأكل ولا يشرب ولا يتقلب في الديباج والحرير والفنك والسمور والمسك والحرير كما يفعل ارباب الدنيا ^(١) - كيف يرونه في مثل ذلك لا يفضل احداً منهم في احوالهم بل هو مشغول بكتب ترد عليه من المشرق والمغرب يحجب عنها بخططه لا يشتغل بشيء من ملاذ الدنيا إلا بما يصون ارواحهم ويعمر بلادهم ويذل اعداءهم هل يجسرون على شيء غير ذلك ؟ »

فاعجب المعز بما سمعه منه فقال « ان هذا لا يكفي يا أبا الحسين اني أخاف على رجالي الاستكثار من النساء . اني لا أرى للواحد منهم ان يفتني غير المرأة الواحدة لئلا يتنقص عيشتهم وتعود المضرة عليهم وتنهك ابدانهم وتذهب قوتهم . وكثيراً ما أوصيتهم بذلك ليقرب الله منا أمر المشرق كما قرب أمر المغرب »

قال « ان سهر مولاي على دولته بمثل ما تقدم كفيل بالنجاة من الوقوع في ما نخوفه ولكنني أخاف . . » وسكت وهو يتشاغل باصلاح عمامته وخماره

فلحظ المعز في وجهه شيئاً يكتمه فقال « وما الذي تخافه يا جوهر ؟

قل »

قال « أخاف الدسائس السرية »

قال « وما تعني ؟ أي الدسائس ؟ »

قال « أخاف قوماً لا نعرفهم ولا نعرف نياتهم »

قال « من تعني . . كيف نخافهم ونحن لا نعرفهم ؟ »

قال « لو عرفتهم لبددت شملهم ولكنني أتوسم خطراً من جماعة يزعمون أنهم موتورون . . لا أعرف من هم ولكنني أتسم رائحة ذلك من بعض الاحاديث . . »

قال « صرح يا جوهر . . أنك في مأمن »

قال « ألا تعلم يا سيدي ما أصاب أبا عبد الله الشيعي الذي قام بالدعوة في أول أمرها ومهد الدولة لجذك المهدي رحمه الله ؟ »

فلما سمع اسم أبي عبد الله تغير لونه ولكنه أظهر الاستخفاف وقال « أظنك تعني ان ذلك الرجل قتل مظلوماً »

قال « لا أعني ذلك ولكن بين اصحابه الذين أعانوه في نصرة دعوة مولانا الملك من يتوهم انه ظلم لانه جمع القبائل لنصرة مولانا ولما استتب له الامر قتله وقتل اخاه أبا العباس . أما أنا فأعتقد أنه قتل حقاً بعد ان غير نيته وطمع بالامر لنفسه فلا بد ان يكون لاصحابه مطمع في افساد أمرنا وان كنت لا أخاف فوزهم . ولو سألتني عن واحد منهم لاعترفت اني لا أعرف أحداً وإنما هو سوء الظن لا بد منه في مثل هذه الحال »

فاعتدل المعز في مجلسه وقال « صدقت ولكن لا خوف من ذلك غير اني أسمع ان ذلك المقتول كان عنده مال خبأ في مكان لا أعرفه وقد تعجل جدي في قتله قبل معرفة مستودع المال . سمعت انه مال كثير — ولا يخفى عليك شدة الحاجة إلى المال في هذه الاحوال . »

قال « نعم يا سيدي سمعت بنحبر المال الخبأ لكنني لا أعرف مكانه ولو عرفته لاستخرجته ولا يبعد انه قد تبعثر وسأوالي البحث عنه »

قال « ومع ذلك لا يهمننا المال وعندنا صناديق منه قد شذ عني ترتيبها لكثرتها قد ادخرتها للقيام بذلك العمل لعلمي ان اعداءنا قد أصابهم الفقر حتى تغيرت قلوب الناس عليهم . . »

قال جوهر « صدق مولاي ولكني أرى مع ذلك ان نحتاط ونسيء الظن حتي برجالنا وأمرء القبائل البربرية ولا سيما الذين كانوا حكماً وعرفوا الدسائس . أخض منهم حمدون صاحب سجاماسة فان هذا الرجل حاربناه وهو صاحب دولة فاخضعناه وسلم لكني أحسبه مكرهاً فاذا رأى مولاي أن نقيده برهن كان ذلك اقرب الى الصواب »

قال « وما هو الرهن ؟ »

قال « لهذا الامير ابنة اسمها لمياء هو عالق بها وشاهدت منها في اثناء حربنا معه بسالة وانفة لم أعهد لها بفتاة قبائرها فقد كانت تحارب كأكبر القواد على جواد من خير الجياد . ولم نستطع القبض عليها إلا بعد الجهد الكثير وقد أراد الفارس الذي قبض عليها ان يتخذها سبية فمنعته وانقذتها من السبي وأكرمها . ولا ريب ان والدها يحبها ويضن بها فاذا اتخذناها رهناً على تصرفه في طاعتنا لا يقدم على الخيانة »

قال « قد رأيت حسناً وابن هي الآن ؟ »

قال « هي في فسطاط أبيها المضروب في هذا السهل خارج القيروان »

قال « ولكني أخاف ان ننبهه الى الحقد اذا طلبناها منه الآن »

قال « لاخوف من ذلك فاني أطلبها منه لتكون مكرمة معززة في قصر أمير المؤمنين في خدمة أم الامراء (زوجة المعز) وهذا الشرف لا يتأتى لاحد سواه وأنا على يقين ان مولاتنا أم الامراء سترتاح الى رؤيتها . فان في وجهها مهابة وجمالا مع تعقل وبسالة وقد تحققت مع ذلك أنها من أشد الناس غيرة على دعوة الحق فانها تجل مقام الامام علي وتنصر شيعته مما لم أره في سواها من جماعة البربر كافة ومن الجهة الاخرى أرى ان نساهاه فنكتسب حربه »

قال « وكيف ذلك ؟ »

قال سأجعل القصد من نقل ابنته الى قصر أم الامراء اني اريد ان أتخذها زوجة لابني الحسين . وهو بلا شك سيكون سعيداً بهذا الاقتران فنكسب الفتاة ونكسب قلب أبيها »

قال «حسناً . افعل بارك الله فيك ولا حرمننا سعيك الحميد» وترشح الخليفة فنهض جوهر واستأذن في الانصراف

الفصل الخامس

حمدون

خرج جوهر من حضرة المعز وقضى بقية ليلته مفكراً بما سمعه وكان شديد الاهتمام بامور الدولة كثير الغيرة على الدعوة العبيدية. وان لمح به للمعز عن الدسائس شيعه أبي عبد الله لم يكن وهماً بل هو حقيقة . ولكن تلك الاحزاب لم تكن تستطيع الظهور لتغلب القوة فهي تترصد فرصة للوثوب بالدولة — وكان يخاف صاحب سجناسه على الخصوص لانه صاحب سطوة وله حزب كبير وهو مجازف لا يقدر العواقب . فرأى من حسن السياسة ان يقيده بالرهن على تلك الصورة ثم يقربه بالزواج فيخطب ابنته لابنه فيكتسب ثقته ومساعدته أو يتخلص من شره على الاقل

ولم يكن صاحب سجناسه يشعر بشيء مما في خاطر جوهر عليه بل كان يحسبه في غفلة عن حركاته وخطواته ففي صباح ذلك اليوم جاءه غلام جوهر يدعو اليه في قصره بالمنصورية فبادر الى ذلك . وكان حمدون هذا كهلاً طويل القامة دقيقة اسود العينين غائرها لا تستقر حدقتها على حال . ولم يكن عنده من الولد غير لمياء . وماتت والدتها فتزوج غيرها وترك تربية الابنة الى رجل من خاصته كان شديد التشيع لاهل البيت . فشبت على ذلك . وأما حمدون فلم يكن تشيعه الا ظاهرياً جرياً مع تيار القوة . ولو ترك لنفسه لاختار ان يكون مهدياً يدعو الناس الى نفسه فكانت مطامعه أعلى ما يخطر للبشر . وكان قد هم ان يدعى المهدوية وهو في سجناسه ولكنه غاب على امره وقيد أسيراً الى القيروان فظهر الطاعة على غل وشعر جوهر بشيء من ذلك كما رأيت

وكان حمدون مع سعة مطامعه ليس من أهل الدهاء لكنه كان اذا

خطر له أمر بادر الى تنفيذه لا يبالي بما قد يكون في سبيله من الخطر .
 وكان عرش سجلماسة قد اتصل اليه بالارث من اجداده واتصل بخدمته
 شيخ اسمه ابو حامد زعم انه من أهل السكرامة نزل عليه منذ اعوام ومعه
 شاب جميل الصورة اسمه سالم قال انه ابن اخيه وهو فارس شجاع . نزل
 كلاهما في دار صاحب سجلماسة وهو في ابان امارته . وكان سالم يرى لمياء
 وهي تذهب وتجيء او تركب الجواد والبربر أقل حجباً لنسائهم من سائر
 المسلمين ف وقعت من خاطره موقعاً جميلاً وتعارفاً وتحاباً فتقدم أبو حامد الى
 حمدون في خطبة لمياء الى ابن اخيه سالم فاجابه . وقبل أن يحين الاقتراح
 اتى جوهر القائد بجيشه وفتح سجلماسة وأسر اميرها وأهله وفي جملتهم
 لمياء وابو حامد ولم يقفوا لسالم على خبر فظنوه قتل في المعركة فبكته لمياء .
 وهي في ريب من امره

اما حمدون فكان يعتقد أن سالماً قتل لا محالة وكانه شاهد شبحاً مثله
 ملقى على الصعيد في اثناء القتال . ولم يمض على قيامهم من القيروان أيام قليلة
 حتى خطر لجوهر ما خطر له فبعث اليه في ذلك الصباح . فأثناء في قصره
 وحده فبالغ في اكرامه وتقديره وهو لا يعلم سبب هذا الاكرام . ثم قال
 جوهر « أتعلم لماذا دعوتك ايها الامير »

قال « كلا يا سيدي ؟ »

قال « أنت تعلم اننا كنا بالامس اعداء يستحل أحدنا دم الآخر
 فصرنا الآن اخواناً نتعاون في نصرة الحق وخدمة امير المؤمنين واحببت
 ان تزيد تلك الروابط متانة فارجو ان توافقني على ذلك »

فلم يفهم حمدون قصده لكنه بادر الى الشاء على هذه الرغبة فقال

« ان ذلك غاية مناي وفيه شرف لي »

قال « لا شرف ولا تشريف ... أتعرف ولدنا الحسين ؟ »

قال « نعم اعرفه حفظه الله . . »

قال « وانا اعرف ابنتك لمياء - وقد شهدت منها في اثناء حربنا

ما حبيب الي ان تكون زوجة لابني الحسين وانت تعلم مقدار حيي له فهذا المقدار سيكون حيي لها »

فلما « سمع حمدون ذلك الطلب اطرق هنيهة يفكر ثم ابرقت اسرته ليس رغبة في الشرف الذي سيناله من مصاهرة اكبر قواد المعز الفاطمي ولكنه توسم من ذلك عوناً على امر قام في نفسه فقال « ان مثلي يا مولاي لا يطمع بمثل ذلك فكيف باكثر منه »

فأثنى جوهر على قبوله وقال له « لكنني زيادة في رفعة قدرها احب ان يكون العقد عليها في منزل أم الامراء زوج امير المؤمنين وخصوصاً لان لمياء يتيمة الام هل ترى بأساً من ذلك ؟ »

فنهض وهو يظهر الامتنان وقال « أي بأس ارى فيه ؟ انه شرف عظيم » قال « اني مرسل الساعة غلامي اليك في الفسطاط فترسل معه لمياء الى دار امير المؤمنين »

قال « سمعاً وطاعة » وخرج وقد ادهشه توفيقه الى فرصة طالما تمنها وسار توأ الى صديقه ابي حامد فقص عليه ما دار بينه وبين جوهر وأظهر أنه يستشير فصاح فيه « يعرض عليك ان تكون لك يد وعينان في قصر المعز وقائده وتستشيرني ؟ اقبل . . » قال ذلك وهو يحك ذقه ليخفي ما خامره من الفرح بتلك البشارة وله في ذلك غرض يشبه غرض حمدون فقال حمدون « لم أتردد في قبول ذلك الطلب لحظة . ولكنني توقفت اولاً لان ولدنا سالماً اولى بها و . . »

فقطع ابو حامد كلامه قائلاً « دع سالماً الآن انه بعيد ولا ندري متى يعود »

فاطمأن حمدون إذ ظهر له من ذلك القول ان سالماً لا يزال حياً وكان يحسبه قتل فقال « وأين هو سالم الآن ؟ »

قال « ليس هو قريباً . . وسأخبرك بمكانه . اما الآن فلا ترفض ما عرضه عليك القائد الفاح . . » وتنحنح

فذهب حمدون للحال وقص الخبر على ابنته وحسن لها الذهاب فامتنعت في بادئ الرأي لأنها عالقة القلب بسالم فأكد لها ان سالماً قتل أو هرب ولا أمل برجوعه . ونظراً لما يعلمه من تعلقها بأهل البيت ضرب لها على وتر الدين فقال انك « تكونين هناك قرب امير المؤمنين ابن بنت الرسول » فرضيت وذهبت مع الرسول الى المنصورية حتى اتت قصر المعز

الفصل السادس

لمياء فتاة القيروان

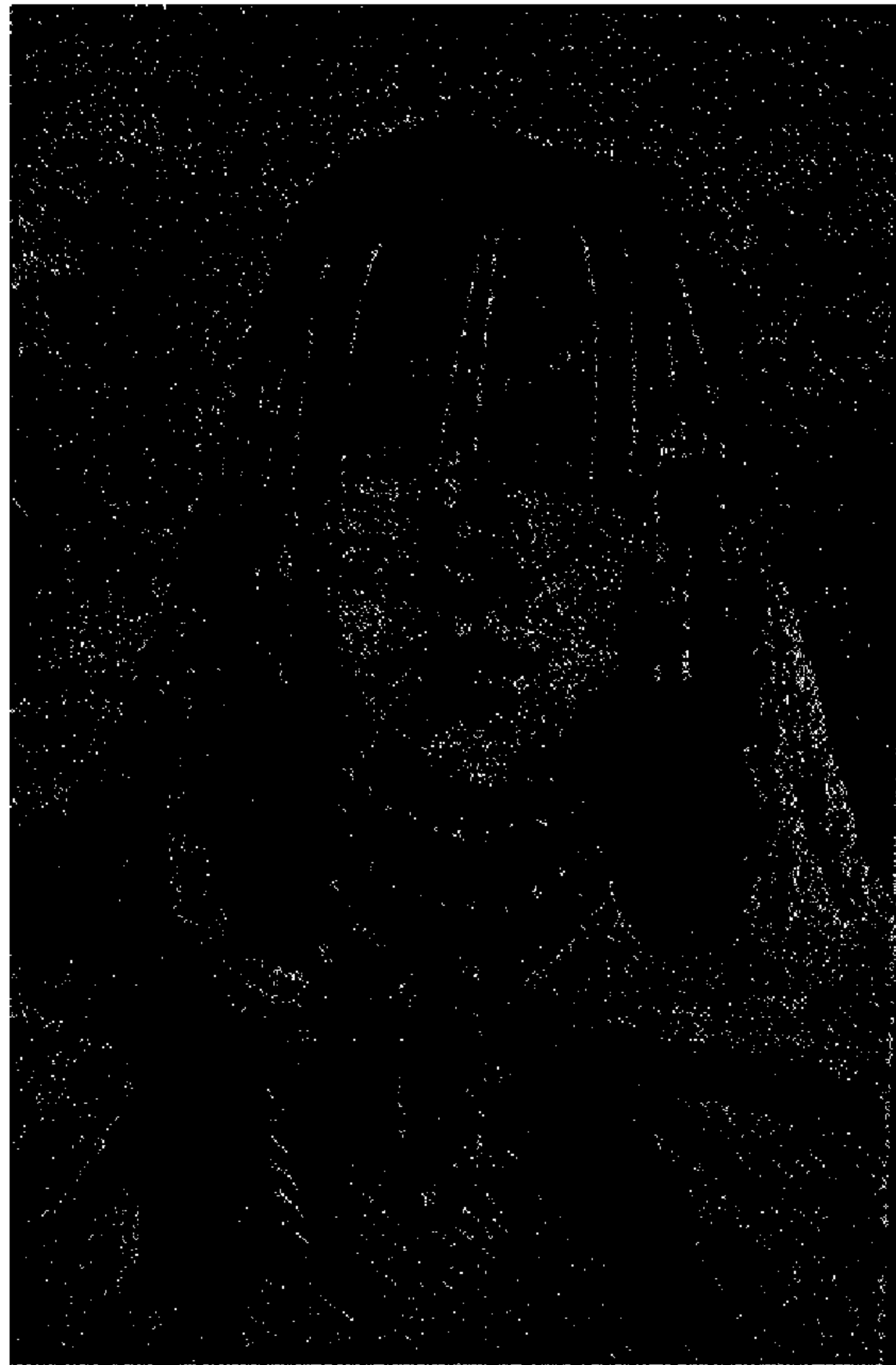
وكان المعز قد بات تلك الليلة وخف بلباله بعد ما دار بينه وبين قائده من الحديث . وفي صباح اليوم التالي قام بفروض الصلاة ثم ذهب الى العمل وبينما هو جالس في ديوانه ينظر في اعماله ويقرأ كتب العمال ويحيب عليها بنفسه جاء غلامه خفيف الصقلي واستأذنه في كلمة فقال « ما وراؤك ؟ » قال « ان مولاي القائد بعث فتاة قال انها لقصر مولانا » فقال المعز « ادخلها ... أين هي ؟ »

فدخلت الفتاة وهي تنظر الى ما في تلك القاعة من صناديق الكتب وليس فيها غير الخليفة وكاتب . وكانت لمياء طويلة القامة اشبه في مشيتها بالرجال منها بالنساء مع جمال وهية . سمراء اللون كبيرة العينين اذا نظرت فيهما توهمت انهما تخاطبانك بصيغة الامر . مقوسة الحاجبين متناسبة الملامح غليظة الشفتين قليلاً عريضة الوجنتين مما يدل على القوة . حول رأسها عصاة تدلت منها خيوط في اطرافها كرات من الذهب أو قطع أخرى من المصوغات . وقد أرسل شعرها على كتفها متجعداً واحاط به رداء كالثمار عقد في أعلى الصدر بعروة من الذهب . وحول عنقها عقود من الجزع ونحوه كما ترى في الشكل

فلما وقع نظر المعز عليها لم يتالك عن الاعجاب بها وخصوصاً بعد

ما سمعه عنها من قائده فاستدناها وهش لها تلعطفاً وقال « تقدمي يا فتاة . .
ما هو اسمك ؟ »

قالت « لمياء يا أمير المؤمنين »
قال « أملك ابنة نصيرنا صاحب سجلماسة ؟ »
قالت « نعم يا مولاي »
قال « وهل سرك ان تكوني في قصرنا ؟ »



لمياء فتاة القيروان

قالت « هذا شرف لا استحققه » وابتسمت بامتنان
قال « بل انت اهل لاكثر من ذلك . أملك متزوجة ؟ »
فلما سمعت سؤاله أطرقت وبان الخجل في محياها من الدم الذي تصاعد
الى وجنتيها ولم تحجب
فعلم انها عذراء فاكتفى بذلك الجواب وقال « لها اذهبي مع غلامنا

هذا الى أم الامراء فاني أوصيتها بك خيراً وستحسن وفادتك . لكني ارجو أن تكوني حسنة الاعتقاد بنا »

فرفعت بصرها نحوه وقالت « إذا كنت تعنى غير الاعتقاد بصحة خلافة آل البيت فلا ... »

فاعجب بصراحة جوابها وقال « انك لنعم الفتاة العلوية لولا ما أراه من كثرة الحلي على رأسك وصدرك فأتنا لا نرى الجنوح الى شيء من أسباب الترف »

ولم يتم كلامه حتى أسرع يدها الى رأسها وصدرها واستخرجت ما كان عليهما من الحلي والعقود ورمتهما الى الارض وقالت « لم أكن أعلم ذلك يا سيدي .. وقد كان لي بما شاهدته من بساطة ردائك عبرة وعظة هذه جواهري أرميها تحت قدميك . . »

فازداد المعز فرحاً بها وابتسم لها ابتسام الرضا والاعجاب وقال « بورك فيك أنك ستناين اضعاف ما نزعته من الجواهر . فضلاً عن سرور أم الامراء بك » وأشار الى الصقلي فمشی بها وعاد المعز الى عمله

الفصل السابع

أم الامراء

وكانت أم الامراء امرأة عاقلة حكيمة ذات مبرات وحسنات ولها رأي وحزم . وكثيراً ما كان المعز يباحثها ويستشيرها وكان قد أخبرها في ذلك الصباح عن لمياء وأوصاها بها

دخلت لمياء قصر أم الامراء ولو كانت ممن دخل قصور الامراء في مصر أو بغداد في ذلك العهد لحسبته منزل بعض الخدم . لانه كان من البساطة بحيث يقرب من حال البداوة - تلك كانت سياسة المعز خوفاً من عواقب الترف لعلمه ان الترف والرخاء من أكبر العوامل في سقوط الدولة كما علمت من كلامه لقائده

وكانت أم الامراء جالسة في غرفتها على بساط من السجاد بلا وشي ولا تطريز وعليه مساند من الديباج البسيط وقد لبست لباساً بسيطاً واتشحت بمطرف وارسلت شعرها مضافاً بالبسط ما يكون . فسرت لمياء لتسرعها في نزع حليها قبل الدخول على تلك الاميرة . فتقدم خفيف الصقاي أولاً فأنبأ أم الامراء بمجيء لمياء . فأمرتها ان تتقدم فتقدمت ولم يقع نظر لمياء على أم الامراء حتى استأنست بها كأنها ريت في منزلها وأشارت اليها أم الامراء ان تقعد فقعدت متأدبة وانصرف خفيف . فقالت أم الامراء « أهلاً بالضييفة الجديدة »

فقالت « أشكرك يا سيدتي على هذا اللطف . انما أنا جارية في قصرك » قالت « بل انت ضيفة مكرمة فان قائدنا جوهر أثني كثيراً على أدبك وتعقلك وقال انه لم يرض لك العبودية فاطلق سراحك »

قالت وهي تنظر في البساط مبالغة في التأدب « ان ذلك فضل كبير له لا أنساء في عمري . أما فضل مولاتي زوج امير المؤمنين فلا أقدر على القيام بشكره »

فتجاهلت أم الامراء عند سماع ذلك الاطراء وغيرت الحديث فقالت « لم أفعل شيئاً بعد ولعلي استطيع أن أفعله في المستقبل إذ يكون لك قصر مثل هذا القصر تعيشين فيه آمنة ناهية . لأن مثلك ينبغي أن يكون لها أحسن نصيب من كبار الرجال »

ففهمت لمياء أنها تشير الى رغبتها في تزويجها من أحد الامراء فلم يعجبها ذلك لأنها عالقة القلب بسواه فبدأ ذلك في وجهها وتساقطت من عينيها دمعتان تدحرجتا على خديها فمسحتهما بكمها وهي تبسم اخفاء لما ظهر من عواطفها فادركت أم الامراء ذلك فبادرتها قائلة « يظهر أنك مشغولة القلب بسوانا »

فلم تمالك لمياء عن البكاء وهي تحجل من بكائها فغطت وجهها بيديها وكأنها استضعفت نفسها وأنفت من ظهور ضعفها فتجلدت وتشاغلت بالا بتسام وهي تنظر الى أم الامراء والدمع يتلألأ في عينيها . فأحست أم الامراء

معها فارادت استطلاع حقيقة حالها لعلها تنفعها في شيء . فدنت منها وهي تظهر الاهتمام بها وقالت « لا يشق عليك تعرضي لك في أمر تريدن كتبانه وإنما أردت أن أبسطك . ونظراً لما توسمت فيك من اللطف أردت أن أكرمك بأحسن رجالنا والظاهر أنك مشغولة الخاطر بسواه . ألا تجدين في الثقة لتطلعيني على شرك وان كانت هذه أول مرة رأيتني فيها »

فغلب الخجل على لمياء بعد هذا التنازل وقالت العفو يا سيدتي إنك تتنازلين كثيراً في مخاطبتي وما أنا أهل لشيء من ذلك . . . »

فأحست أم الامراء أنها ضايقها في الحديث لأول مقابلة فرأت أن تتركها على أن تعود الى هذا البحث في فرصة أخرى فقالت « بل أنت خير لأحسن منه . . . والآن قد آن لك أن تستريحى » و صفقت فأتتها قيمة الدار فأمرتها ان تعد غرفة خصوصية للضييفة وان تساعدوها في تبديل ثيابها وتؤانسها . فهضت لمياء ومشيت مع القيمة وقد تنهت عواظها وهاجت أشجانها

فأخذتها القيمة الى غرفة من القصر تطل على الحديقة التي فيها البركة من ناحية وعلى المسجد الجامع من جهة أخرى فساعدتها في تبديل ثيابها فالبستها ثوباً من أثواب الاميرات وهو مع غلاء قيمته بسيط في زيه بلا زركشة ولا تأنق . وقد اعجبت لمياء بكل ما شاهدته هناك من أدلة البساطة والجنوح الى العمل . وقلم وجدت شيئاً يراد به الزخرفة فقط . مع ان قصر أبيها في سجلماسة لم يكن يخلو من الترف والرخاء يقلد بهما حضارة بغداد أو مصر أو الاندلس فيأتي من كل بافخر مصنوعاتهما - وأما المعز فكان يخاف ذلك الرخاء فيميل الى التمسك بالبساطة والبعد عن الترف

الفصل الثامن

المناجاة

ولما خلت لمياء في تلك الغرفة تصورت ما أصابها من الانتقال في ذلك

اليوم . باتت أمس في فسطاط أبيها خارج القيروان وهي الآن في قصر الخليفة المعز لدين الله معرزة مكرمة . وتذكرت أن المعز من نسل الامام علي وفاطمة الزهراء فاختلج قلبها من الفرح لحصولها على الحظ بالتقرب من ذلك الدم الطاهر والشرف العظيم - ومشت الى شرفة مطلة على الحديقة ولم تكذب تجلس حتى تقاذقها الهواجس وتذكرت خطيبها سالماً وكانت قد أحبتة ووطنت النفس على الاقتران به . فلما آن وقت العقد أخذت أسيرة مع أبيها ولم تعد ترى سالماً ولا علمت أين هو . وكانت تعلم من اسراره ما لا يعرفه عمه وكان في ما اطلعها عليه من أغراضه أمور تنكرها عليه ولا يعلم عمه أبو حامد باطلاعها على تلك الاسرار ولعله لو علم لم يسمح بتقربها من المعز

فأطرقت حيناً وهي غارقة في التفكير وجعلت تناجي نفسها قائلة « أين أنت يا سالم لا . لا أصدق أنك قتلت . . لا . لم تقتل بل أنت مختبيء أو متسكر . . أو لعلك تفكر في ذلك الامر . . ليتني أستطيع أن أراك لا طلعك على امور تهون عليك العدول عن عزمك . . وأخلص مما يعرضونه علي . . اني لا أحب الزواج إلا بك لاني لم أحب سواك ولكنني مع ذلك لا أوافقك على عزمك لأن فيه خطراً . آه أين أنت ؟ »

وهي في ذلك سمعت حركة وحديثاً في الحديقة فتحولت مجاري أفكارها نحو ما سمعته وجلست تتوقع أن ترى أحداً وكانت قد ضفرت شعرها ضفيرتين جانبيتين ولفت رأسها بنجار كبير كالحبرة يغطي كتفها وجنبها . وما لبثت ان سمعت خفق نعال على مقربة من النافذة فتراجعت وهي لا تزال تنظر نحو الحديقة . واذا هي برجلين عرفت منهما القائد جواهر وبجانبه شاب في مقتبل العمر يظهر من ملامحه أنه ابنه الحسين وتذكرت ما قيل لها عن رغبته فيها فأحست بنفور وازوت مخافة أن يقع نظره عليها أما جواهر فكان ماشياً وعليه الحية والقفطان وفوق رأسه العمامة الصغيرة وحوها الحمار وقد تقلد السيف . وفي مشيته وثبات قدميه ما يدل على أنه قائد عظيم وأما ابنه فكان في مثل لباسه لكنه لا يزال يانعاً وفي

محياء نضارة الشباب مع هبة القواد والبسالة بادية في عينيه وجبينه
ولحظت لمياء وهي منزوية أن الحسين بن جوهر لما وصل الى جانب
غرفتها التفت كأنه يلتمس أن يرى أحداً وسمعت أباه يقول له بصوت منخفض
« لا شك انك لو رأيتها ما تمالككت عن الاعجاب بها لانها جمعت بين مهابة
الرجال ولطف النساء . »

فقال الحسين « اني لا أراجعك في شيء تراه .. وأنت أعلم مني وأوسع
اختباراً لكنني لا اثق بأبيها ولا اظنك تجهل ما في خاطره و ... »
وكانا يتكلمان وهما ماشيان فلم تسمع لمياء من حديثهما الا تنفأ فهمت
منها انهما يتحدان بشأن خطبتها له فوقعت في حيرة وخافت ان يطلب
منها الزواج به وهي عالقة القلب بسالم وان كانت لا تعرف مقره
وكانت لمياء مع بسالتها وقوة بدنها قوية العواطف إذا احبت تمكن
الحب من قلبها حتى يشغلها عن كل شاغل لا سيما وان سالماً اول شاب
عرفته واحبته

ثم عادت فسمعت جوهر يخاطب ابنه وقد عادا من حيث أتيا وإتما
الحديث فاصغت لعلها تسمع تنمة الكلام فسمعت جوهر يقول « ان معاملة
هؤلاء بالحسنى اولى بنا وايقرب الى جمع القلوب . وصاحب سجالمة من
أولى الامراء بذلك .. » ثم انقطع الحديث من البعد فاصبحت لمياء اشد
رغبة في الاطلاع عليه فاصغت لسماعه عبتاً . فقعدت وهي تصالح خمارها
وتعمل فكرتها وإذا هي تسمع لغطاً فيه صوت أبيها فاجفات ثم رأت أباه
وجوهر ماشيين وجوهر يحتفي بحمدون ويلطفه . ومن قوله له « لا ريب ان
مولانا المعز يقدر صاحب سجالمة حق قدره وطالما ذكرك في غيابك
وإثني على علو همتك »

فقال حمدون « نحن نفتخر ان نقوم بنصرة ابن فاطمة الزهراء »
ثم بعد الصوت وعلمت لمياء من هذا الحديث أن أباه وجوهر ذاهبان
الى المعز بزيارة وربما كان ذلك بشأنها . فاشتغل خاطرهما لئلا يعدم أبوها
بها أو يخطبها للحسين وهي لا تريد . فمشت من غرفتها وهي تود أن تحضر

تلك الجلسة لتعلم ما يدور بين أبيها والمعز بشأنها . ولكنها لم تجد وسيلة الى ذلك إلا على يد أم الامراء وكانت تسمع بمشاركتها زوجها بالآراء أحياناً حتى كثيراً ما كانت تحضر مجالس المداولة من وراء ستار^(١)

الفصل التاسع

لمياء وأم الامراء

وكانت أم الامراء قد اعجبت بلمياء كل الاعجاب وأحببتها من كل قلبها . وكذلك لمياء فإنها أحبت أم الامراء واستأنست بها كأنها تعرفها من اعوام وقد هان عليها أن تكشفها بما يكنه قلبها وتستشيرها في امرها وتستعينها في حاجتها . فذهبت تطلبها في غرفتها فلم تجدها فلبقت حاضنتها - وهي امرأة رومية الاصل استجلبها المعز من صقلية لما دخلت في حوزته في جملة نساء حملهن للخدمة وتدير المنزل . وقد استلطفتها لمياء ورأت منها انعطافاً نحوها فسألتها عن أم الامراء فقالت « قد ذهبت في شغل وستعود قريباً » ودعتها للقعود

فقعدت وخاطرها مشغول بمسير والدها الى المعز مع جوهر فأحبت ان تشغل نفسها ريثما تأتي أم الامراء فقالت للحاضنة « يا خالة يظهر لي من ملاحك أنك لست من أهل هذه البلاد .. »

قالت « صدقت اني من صقلية يا سيدتي »

قالت « فأنت إذن رومية الاصل .. »

قالت « نعم وافتخر بأني من نفس البلد الذي منه أكبر قواد

أمير المؤمنين »

فعلمت انها تعني جوهر القائد فقالت « وهل القائد جوهر من صقلية أيضاً ؟ »

قالت نعم ياسيدي أنه من نفس ذلك البلد . ألا يحق لي أن أفتخر به ؟ »
قالت « كيف لا ؟ وهو موضع فخر أهل هذه الدولة . نصره الله على اعدائه »

وهي في ذلك جاءت أم الامراء وهي تمشي مشية النشاط لا تتأقل تتأقل أهل الترف فتراجعت الحاضنة وخرجت . ووقفت لمياء وهي تبسم وتنظر الى أم الامراء نظر شاكر بهج فأجابها تلك بمثل ذلك وتناولتها بيدها على غير كلفة ودخلت بها الى مخدعها الخصوصي وهي تقول « احب أن أراك تستأنسين بي وأن تعدي نفسك ابنة لي »

فأكبّت لمياء على يدها فقبلتها ودموع الفرح تتساقط من عينيها وقالت « لقد غمرتني بفضلك ياسيدي بما لم يعد في امكاني القيام بشكره .. كفى .. ان ذلك فوق ما استحقه أو يخطر ببالى »

قالت وهي تقربها من وسادة في صدر الحجرة وتقعدها بجانبها « إنك أهل لاكثر من ذلك يا لمياء ولا فضل لى إذا أحبيتك فاني لم أسمع أحداً ذكرك إلا أعجب بك وبكمالك وهيتك . . . هذا قائدنا جوهر شديد الاعجاب بك وقد رغب في تقرب والدك من امير المؤمنين اكراماً لحاظرك . وقد جاء به الآن وسيدخلان اليه ولا شك ان المعز سيحل اباك محلاً رفيعاً اكراماً لقائده .. » وسكتت وبلعت ريقها وهي تنظر الى لمياء وتتأمل ملامحها وما يبدو منها فرأتها مصغية لا يبدو على وجهها شيء من الاضطراب . فعادت الى إتمام حديثها فقالت « وبلغ من افتتان قائدنا بك انه أحب ان يأخذك اليه ويجعلك ابنة له . . »

فظهرت البغته على لمياء واطرقت حياء فابتدرتها ام الامراء قائلة « لا اعني ان تصيري ابنة له دون ابيك بل هو ينوي ان يخطبك . . . الى ابنه الحسين . . هل رأيت هذا الشاب ؟ . . لا ينبغي ان نخجلني مني . . اتخذيني أمأ لك »

فتصاعد الدم الى وجنتي لمياء وابرقت عيناها من التفكير وقالت « اشكر لك هذا الاحسان يا سيدتي . نعم اني يتيمة الام ولكنني في حضن أم تمنى كل فتاة ان تكون امها - نعم ينبغي لي ان اخاطبك بحرية اما من جهة رؤية الحسين بن جوه فاني لم اره الا في هذا النهار عرضاً وهو مار في الحديقة مع ابيه .. »

فقطعت ام الامراء كلامها قائلة « لم يكن مجيئه عرضاً ولكنه جاء عمداً ليرى الفتاة التي حدثه ابوه عنها .. طيب وماذا تضررين بعد ذلك ؟ فتنهدت لمياء وهمت بالكلام واسكتها الحياء فأدركت ام الامراء انها تخفي شيئاً من قبيل الحب - والنساء يتفاهمن بلغات القلوب اسرع من تفاهم الرجال . فقدمت لها مذبة كانت في يدها تروح بها على سبيل المؤانسة وقالت لها « لا ينبغي لك تستحي مني يا لمياء بعد ما لقيته من حيي لك . ويكفي دليلاً على هذا الحب ان اسمى في ترويضك باحسن شاب في القيروان بعد ابناء الخليفة .. وهؤلاء يا لمياء لم يبلغوا سن الزواج بعد . » وضحكت

فازدادت لمياء خجلاً من هذا التاميح الممزوج بالتقريع على الكبرياء ولم تعد ترى باعثاً على الحياء فتناولت المذبة من يدها ثم اعادتها اليها بلطف وشكر وقالت « لا تظني يا سيدتي اني جاهلة حقيقة قدرتي او اني لم ادرك مقدار فضلك في ما تعرضينه علي فاسمحي لي ان اصرح بحقيقة حالي . اني يا سيدتي مخطوبة .. » وصبغ الحياء وجهها

لم تستغرب أم الامراء قولها لانها لحظت ذلك فيها من قبل لكنها تجاهلت لتسمع منها هذا التصريح فأجابتها وهي تبتمس « من هو ذلك الخطيب السعيد الذي حظي بك وما اسمه ؟ »

فخجلت من هذا الاطراء وقالت « انه يا سيدتي شاب من اصدقاء والدي عرفته في سجناسه وله عم كثير التودد لاسرتنا فخطبني اليه واسمه سالم ... »

فقلت « أين هو ؟ »

فأجابت لمياء وهي تهز كتفها الى الاعلى اشارة الانكار « لا أدري

أين هو ولكنني أعلم أنه كان في جملة من شهد المعركة الأخيرة التي قضى بها لامير المؤمنين فقادوني ووالدي أسيرين . ولم أعلم أين ذهب سالم
فضحكت أم الامراء وقالت « يظهر انك تحببته كثيراً حتى أنك مع شكك بوجوده لا تزالين ثابتة في وده »

فتهدت تنهداً عميقاً وأطرقت وقد صبغ الحياء وجهها ولم تجب
فتشاغلت أم الامراء باصلاح ضفائر الشعر المرسلة على صدرها من
الخمار وقالت « قد يصح ذلك ولكن هل تحسببته ثابتاً في حبك لا يلتفت
الى سواك ؟ . . ان هؤلاء الرجال لا يركن اليهم . ولا تظني الحسين بن
قائدنا جوهر يتأتى العثور على مثله في جيل من الناس .. ومع ذلك فالخاطر
لك . وأنا إنما أردت خبرك لا نني أحببتك و ... » قالت ذلك وبان العتب
في عينيها

الفصل العاشر

التصريح

فأثر ذلك التوبيخ في نفس لمياء تأثيراً شديداً ورأت قولها معقولا
ولكن قلبها لم يطاوعها على العمل به ولا طاوعها عقلها على الرفض . وهي
مع ذلك لا تعلم أين هو سالم . ميت أو حي ولم تفرحاً من تلك الحيرة
الا بالبكاء فجاشت خواطرها وهمت بالبكاء ثم امسكت عواطفها تجلداً
وسكنت وهي تبلع ريقها وتغالب نفسها وقد اطرقت لا تبدي حراكا .
وأظهرت أنها تتفرس في جلد اسد مفروش هناك

فلم تبال أم الامراء بسكوته فامت كلامها قائلة « ومع ذلك فقد سمعت
قائدنا جوهر يطري شجاعته وثباتك في حومة الوغي .. فإلى أرى فيك
هذا الضعف الآن ؟ »

فلم تعد لمياء تستطيع التمالك فتهدت تنهداً شديداً ورفعت عينيها الى أم
الامراء والدمع يتلألأ فيهما وجاست جثواً على سبيل التأدب وقالت وهي

تفص بالكلام « لقد غمرتني بلطفك يا سيدي .. اني لا استحق هذا الالتفات ... نعم لا استحق النعمة التي تعرضنيها علي ولكنني ... آه ... لا املك قياد قلبي ... ساحيني على التصريح لك . لقد رأيت من عطفك ولطفك ما يخولني الدالة عليك وان خالفت العادة والطبع اني يا مولائي لا املك من قياد نفسي شيئاً . نعم اني شجاعة في الحرب لا اهاب لقاء الابطال ولكنني مع سالم ضعيفة ... لا اذكره الا واشعر بالخلال عزائي وخفقان قلبي ... ألعن ذلك ما يعبرون عنه بالحلب ؟ .. وقد سألتني اذا كان يحبني فكيف يمكن أن لا يكون كذلك وانا لا اري للحياة قيمة بدونه .. » ولما وصلت الى هنا انتهت لنفسها واحست انها تورطت في التصريح بما لا يجوز لمثلها وانما غلبت على عواطفها فلم تملك امساك هواها . وخجلت من ام الامراء فحولت وجهها نحو الحائط واخذت في البكاء وقد بكت هذه المرة أسفاً على ضعفها وتطلعاً الى رؤية حبيبها سالم وهي لا تعلم أين هو أما أم الامراء فاستغربت تعلق لمياء بخطيبها ولم تكن تتوقع ان ترى منها ثباتاً وشغفاً الى هذا الحد . فلما آنست منها ذلك قالت « يسرني يا بنية انك تحبين خطيبك الى هذا الحد فان المحبة من أكبر النعم . واطلب الى الله ان يجمعك به واذا رأيت اني قادرة على مساعدتك في ذلك قولي ... أما الحسين فاني استمهله لئلا يرى ما يكون - إذ لا يعلم ما في الغيب الا الله ... »

فهمت لمياء بتقيل يدها شكراً على صنيعها فأبت عليها ذلك وقبلتها برأسها ونهضت وهي تقول « قد تعودت ان اذهب في مثل هذه الساعة الى مقعد لي يشرف على قاعة امير المؤمنين التي يقابل الناس فيها اطل عليها من وراء حجاب فاشاهد مجلس الامراء واسمع ما يدور بينهم اني كثيرة الاهتمام بشؤون الدولة .. »

فاعجبت لمياء بعلومها وقالت « سمعت بذلك عنك » وقد سرها أن تبدأ هي بالعزم على ذلك ومالت الى مرافقتها فقالت « وهل ترين بأساً من ان اكون معك ؟ »

قالت « كلا .. وبالعكس فاني استأنس بك »

ومشتا في دهليز الى غرفة في احد جدرانها مقعد على دكة يصعد اليه يبضع درجات وراءه ستر يحجبه . وفي الستر ثقب اذا شاء الجالس ان يشرف على من في القاعة الكبراء رآهم وسمع اقوالهم . فتناولتها أم الامراء بيدها حتى اجلستها بجانبها على المقعد وقالت لها « انظري من هذا الثقب » فنظرت فاذا هي تشرف على مجلس الخليفة من اعلى الحائط بحيث ترى الجلوس هناك ولا يرونها

رأت قاعة واسعة قد فرشت ارضها باللبود البسيط وقد جلس المعز لدين الله في صدرها على منصة كالوسادة الصغيرة وهو في لباس بسيط بالنسبة الى سواه من الملوك والخلفاء . على رأسه العمامة وعلى كتفيه برنس كالعباءة يغطي اثوابه . وقد التف به واقعد الاربعاء قعود من اتعبه العمل فتربع وألقى كوعيه على فخذه . والى جانبه حسام مغمد وفي يمينه قلم . وفي يساره ورقة من الكاغد ينظر اليها وكاتبه واقف امامه ينتظر امره فبعد ان تأمل الورقة وضع القلم بجانب دواة بين يديه ودفع الورقة الى الكاتب وأشار اليه أن يذهب . ثم تنفس الصعداء وقال « اذا شاء الامراء والمشايخ الدخول فليتفضلوا »

فلما سمعت أم الامراء قوله قالت للمياء « أنه يدعو مشايخ كتامه وصنهاجة وهوارة وهم رجال دولته من امراء البربر لعله يريد النظر في أمر هام »

فسرت لمياء لهذه الفرصة لترى كيف يعقد مجلس الملوك . على أنها ما لبثت أن رأت جماعة من المشايخ والامراء دخلوا وألقوا التحية بصوت عال كالعادة . وأشار اليهم المعز فقعدوا على وسادات مثل وسادته محيطة بالقاعة . وجعلت لمياء تتفرس فيهم فرأت بينهم وجوهاً تعرفها من قبل ولما استقر بهم الجلوس جعل المعز يرحب بهم وهم يدعون له ثم قال « قد تكبدتم المشقة في الحجى الينا وانما دعوتكم لاريكم حالى من العمل . إذ قد يتصور بعض الذين لا يعلمون ان الامامة من اسباب الراحة والتعم والانعطاع عن

العمل . نعم هي كذلك لمن شغلوا بالتزلف عن مصالح الدولة كما يفعل صاحب بغداد وصاحب قرطبة وامراؤهم في الاطراف . لأن الدنيا شغلتهم عن الامامة الحققة فانغمسوا بالملذات وتقلبوا في المثلث والدياج والحرير والسمور والمسك والخمر مثل سائر ارباب الدنيا

وأما أنا فقد أحبيت استقدامكم لاريكم كيف ينبغي أن يكون الامام : انظروا الى هذا الكساء والحجبة وها أنا جالس على اللبود وهذه الابواب مفتحة تفضي الى خزائن الكتب وأنا اشتغل بمكاتبة الاطراف بيدي لا التفت الى امور الدنيا الا بما يصون ارواحكم ويقمع اضدادكم فافعلوا يا شيوخ في خلواتكم مثل ما أفعله ولا تظهروا التكبر والتعجب فيزع الله النعمة عنكم وينقلها الى غيركم »

فتصدى شيخ منهم أكبرهم سناً وقال « ان امير المؤمنين قدوتنا ونعم المثال هو »

فقال « اذا فعلتم ذلك يقرب الله منا أمر المشرق كما قرب أمر المغرب .. انهضوا رحمكم الله ونصركم »

فوقفوا وحيوه وخرجوا وقد امتلأت قلوبهم هية ولما تعجب لسرعة صرفهم وادركت أم الامراء فيها ذلك فقالت « لا بد لسرعة صرفهم من سبب فقد تعودت ان اجلس هنا ساعات اسمع مباحثاتهم في أهم الامور » ولم تتم كلامها حتى سمعت المعز يصفق وهو يقول « خفيف ! » فحضر غلامه فقال « ذكرت لي منذ هنية ان قائدنا يحب ان يرانا على حدة فاسرعنا في صرف شيوخ كتامة لتفرغ له . ادعه »

فخرج الغلام وهمست أم الامراء قائلة « هذا هو السبب في سرعة صرفهم .. ان جوهر قادم اليه . . لله دره من رجل باسل »

فلما سمعت لمياء اسمه تذكرت انها رآته ذلك اليوم في الحديقة مع ابها وخطر لها انها رآته ايضاً مع ابنه الحسين فحقق قلبها لانها اصبحت تخاف أن تراه بعد ان دار مدار بينها وبين أم الامراء بشأنه وتخاف إذا تكرر

الترغيب فيه أن يخونها قلبها فتميل اليه وهي لا تريد أن يكون لاحد نصيب
من فؤادها غير سالم

الفصل الحادى عشر

الخطبة

وما كادت تفكر في ذلك حتى رأت جوهر في وسط القاعة وقد أمسك
أباها حمدون بيده كأنه يقدمه الى المعز وهو يقول « اقدم لمولانا امير
المؤمنين الامير حمدون صاحب سجلماسة صديقنا الجديد »
فنظر المعز اليه وابتسم ابتسام الملوك وقال « اهلا بصديقنا .. ارجو ان
لا يكون في خاطره شيء من نخونا »

فاسرع حمدون وتراعى بين يدي المعز كالمستغيث - وقد فعل ذلك
مبالغة بالزلحف وقال « لقد اسعدنا الحظ بهذه الصداقة وهي شرف لنا ولو
عرفنا مناقب الامام من قبل لجئنا بغير حرب »
فانهض المعز بيده وأشار اليه ان يجلس بجانبه على وسادة وهو يرحب
به ويبتسم . وأشار الى جوهر ان يقعد فقعد وهو مسرور من نجاح مهمته
في مصلحة الدولة بتقريب هذا الامير للطاعة لانه صاحب جاء واسع
وحزب كبير

جلس حمدون وهو يظهر التأدب بحضرة المعز لكن عينيه كانتا تجولان
خلسة في اطراف القاعة لا تستقران على حال كأنهما عينان لص . على انه
كان في وجهه هيبة الامراء

أما لمياء فلما رأت والدها هناك سرت لتقريبه من المعز لانها كانت تعلم
ما في خاطره عليه وانه لم يكن أثقل على قلبه من ذلك الاسر . فسر لها أولا
انه رضي بارسالها الى بيت الخليفة وزاد سرورها انه تقرب منه . وهي
تود ذلك من جملة وجوه أهمها اعتقادها الكرامة بالمعز لانه من نسل
فاطمة الزهراء وهي حسنة الاعتقاد بالشيعة . وإنما كان همها بعد ذلك ان

يأتي سالم ويتقرب الى المعز فيتم لها السرور . وان كانت من فطرتها عزيزة الجانب ميالة الى الاستقلال وقد حاربت في سبيله ولم تسلم إلا قهراً . لكنها لم تكن راضية عن اعمال والدها فان بين أخلاقها وأخلاقه بونا عظيماً . وقد لقيت من المعز وامراته كل رعاية واكرام فوطنت النفس على التفاني في مصالحتهما وإنما ينقصها العثور على سالم واقناعه بالتسليم معها . ومع علمها بصعوبة تسليمه كانت تعتقد أنها تقدر ان تتغلب عليه بالدالة والبرهان

أما المعز فالتفت الى جوهر لفته صديق معجب بصديقه وقال « يسرني كثيراً ان تجتمع كلمة شيعتنا على المطالبة بحقوقنا »

فقال جوهر « ان ذلك هين بتوفيق مولانا أعزه الله . وأنا أعسد تقريب امير سجلماسة الباسل فألاً مباركاً . لانه رجل حرب وله اعوان يتفانون في نصرته فيمثله يعز الملك »

فقال حمدون « اني أفاخر سائر الامراء بهذه الحظوى بين يدي امير المؤمنين وقد أصبحت الآن سيفاً من سيوفه أناضل عنه الى آخر نسمة من حياتي - أقول ذلك عني وعن رجال قبيلتي . . »

فابتسم المعز وقال « انك اذا فعلت ذلك إنما تنصر الحق كما انصره أنا . وان امامتي على رجالي لا تميزني عنهم بشيء من مرافق الحياة . بل أنا أكثرهم تعباً وسهرأ كما ترى مما بين يدي من الاعمال - اني اعمل بيدي ما لا يعملها صاحب بغداد ولا صاحب قرطبة . انظر في كل شيء بنفسي - لا أقول ذلك افتخاراً ولكنني أقول الحق فما أنا إمامكم إلا بما خصني به الله من النسب الطاهر وأما في ما خلا ذلك فأنا واحد منكم »

فقال حمدون وهو يظهر الاخلاص « اني أحمد الله بما من علي به من نعم أمير المؤمنين وسيرى مني ما تقر به عينه وتبسط نفسه »

فأبرقت أسرة جوهر فرحاً بنجاح مسعاه ونظر الى المعز نظرة فهم المعز مراده منها فالتفت الى حمدون لفته تودد وقال « وما أنا راض لامير سجلماسة بما أردته لغيره من الامراء المقربين . بل أنا أحب اختصه باكرام

لم يذله سواء . . أنت تعلم منزلة قائدنا جوهر حامي حمى هذه الدولة . انه صاحب المنزلة الاولى عندنا فنحجب ان نزيد أسباب القربى بينك وبينه . وهي قربي لنا أيضاً »

فأدرك حمدون غرضه ولكنه تجاهل وقال « ان أمر مولانا مقبول على الرأس والعين . . فليأمر بما يراه »

قال « نحب ان نخطب ابنتك لمياء الى الحسين بن قائدنا جوهر وهو من خيرة الشبان - فهل توافقي على ذلك ؟ »

فبادر حمدون الى الجواب بلهفة وقال « ان هذا شرف عظيم لنا يا سيدي .. ان لمياء لا تستحق هذه النعمة لان جوهر حفظه الله قدوة القواد . وان لمياء جارية أمير المؤمنين يضعها حيثما شاء . . لا مير المؤمنين الامر ولنا الطاعة »

وكانت لمياء وهي تسمع كلامهم من وراء الستر تخاف ان يفضي الحديث الى هذه الغاية فلما سمعت اتفاقهما على الخطبة اجفلت وارتبكت والتفتت الى أم الامراء لفظة مستغيث . فضمتها الى صدرها ولم زد . فرفعت لمياء رأسها لتنظر في عيني أم الامراء لعلها تفهم مرادها من ذلك التحجب فرأتها تضحك ضحك من ظفر بغيمة . فاشتبه عليها أمرها وهي لا تدري ماذا تعمل وأخذتها الرعدة وترقرق الدمع في عينيها

فهمست أم الامراء في أذنها قائلة « لم تقبلي ذلك الطلب مني فها قد اتفق عليه والدك و أمير المؤمنين فهل من سبيل الى الرفض ؟ »

فأجابتها لمياء بهز رأسها هز الانكار ولسان جالها يقول « اني لا ازال على عزمي . »

فاشارت أم الامراء بسبابتها على فمها « ان اصبري الآن وسنرى » فسكتت واذا هي تسمع المعز يقول « بارك الله فيك اني أهنيء ابن قائدنا بهذه الفتاة كما اهنتها به لانه من خيرة الشبان فعسى ان تكون راضية بذلك »

فقال حمدون « أنها لا شك راضية .. كيف لا ترضى بما رضى به لها
امير المؤمنين ووافق عليه والدها ؟ »

فلم تعد لمياء تصبر على سماع ذلك فنهضت تريد الانزواء نفوراً من ذلك
الحديث فأمسكتها أم الامراء وأجلستها . فأطاعت وسكتت وهي تكاد
تتميز غيظاً ولا تعلم ماذا تعمل

اما المعز فزحزح من مجلسه اشارة للصرف . فوقف جوهر وحمدون
واستأذنا بالانصراف فأذن لها وهو يقول « نترك تعيين وقت العقد لقائداً
ونحب ان يكون ذلك في حضرتنا اكراماً للعروسين »

انصرفا وتركا لمياء على مثل الجمر وقد جمد الدم في عروقها وتولتها
الدهشة وحق لها ذلك فانها مع شدة تعلقها بسالم لا ترى مندوحة عن طاعة
والدها وامير المؤمنين

الفصل الثانى عشر

الحيرة

نهضت أم الامراء وأخذت لمياء بيدها تخفيفاً عنها . وقد شعرت بما هي
فيه من الارتباك فمشت لمياء معها وهي مستغرقة في الهواجس لا تنبس
بنت شفة

حتى اذا وصلتا الى حجرة أم الامراء استأذنت لمياء بالانصراف الى
الغرفة التي أعدت لنامها . وكانت الشمس قد مالت الى المغيب فدعتها أم
الامراء الى البقاء عندها فاعتذرت أنها تشعر بصداع شديد لا ترى وسيلة
للتخلص منه بغير النوم . فأذنت لها حباً باطلاق الحرية لها لئلا يؤثر الضغط
على نفسها واضمرت ان تتفقدتها بعد هنية

سارت لمياء وهي تتعثر بأذيالها ولم تصل غرفتها حتى أحست بنحوار قواها
فاستلقت على فراشها وقد انقبضت نفسها وزادها غروب الشمس انقباضاً .
وأخذت تفكر في ما هي فيه من الضيق فرأت أنها لولا حبها سالماً لكانت

في سعادة لا مثيل لانيها ستخطب لابن أكبر القواد على يد أحسن الخلفاء في دار الملك . وقد تقربت من أم الامراء وتصادقتا . وهي تشعر ان هذه الملكة تحبها حقيقة . فلم يكن اسعد حالا منها لولا تعلقها بسالم وأرادت ان تقنع نفسها بتركه والرضى بتلك النعم فلم تستطع . وحالما خطر لها ذلك الخطر أحست بشيء كالملقط قبض على قلبها

وأخذت تغالب عواطفها وتخطب نفسها وهي جالسة على الفراش قائلة « لعل أم الامراء مصيبة في قولها عن الرجال أنهم لا يحفظون ذماماً كالنساء . . ولكن سالماً ليس مثله سواء . كيف افكر في غيره وقد تعاقدنا .. لله ما هذه الافكار الشيطانية ليس في الدنيا اكبر نفساً واجمل خلقاً من سالم - ليست السعادة بالمال ولا في الجاه .. ان السعادة في الحب .. مهما عارضتني صروف الدهر وعاندتني وتراكت علي فاذا تذكرت سالماً وانه يحبني شعرت بلذة وراحة لا مثيل لها - ما أجمل الحب وأحلاه ... ولكن هل سالم يحبني كما احبه ؟ . »

وهي في ذلك طرق الباب فاجفت فرأت صقلياً يحمل مصباحاً وقف بالباب وهو يقول « ان مولاتي أم الامراء أمرتني أن أنير لك هذا المصباح » ووضعه على رف في الحائط مصنوع لهذه الغاية وقال « ألا تريد مولاتي ان آتيها بالطعام للعشاء »

قالت « كلا . اني لا اشعر بالجوع وارجو ان تبلغ مولاتنا أم الامراء شكري الجزيل على افضالها »

فأنحى وهم بالخروج . فاستوقفته وقد خطر لها خاطر جديد فقالت « هل انت من خدم هذا القصر ؟ »

قال « نعم يا سيدتي هل تحتاجين الى شيء ؟ »

قالت « احب ان ارى مولاتنا أين هي ؟ »

فقال « هي هنا يا سيدتي » وتنحي

فاستغربت قوله . واذا بأم الامراء بالباب فبغت لمياء لوجودها هناك

وقالت « كيف حضرت يا سيدتي .. وأين كنت »

فضحكت وأشارت الى الخصى فانصرف وضمت لمياء الى صدرها وقبلتها وقالت « أتظنين اني غافلة عما أنت فيه ؟ اذنت لك بالانصراف الى مخدعك وقلبي يراعيك ولم أملك عن أن أجيء بنفسىء لاراقب حركاتك . وإنما ارسلت الصقلي قبلي ليرى هل أنت نائمة »

فلما سمعت كلامها اكبت على يديها وجعلت تقبلهما قائلة « بالله ياسيدي ما هذه النفس الكريمة ما هذه الاخلاق العالية ما هذا الحنو الوالدي .. هل استحق منك هذه العناية ؟ ان شعورك معي في هذه المشا كل خففها » وسكتت وهي تدعو أم الامراء للجلوس على فراشها فأجابها « قلت لك اني احببتك وأنا لا أقول جزافاً . ثم اني اعلم الناس بما يكنه قلبك فقلت في نفسي لعلني اذا جئتها وكانت مضطربة ان اخفف عنها شيئاً »

فتهدت لمياء وسبقتهما العبرات وقالت « لقد خففت عني كثيراً ولكن ... »

فمسحت أم الامراء دموع لمياء بمنديلها وقالت « انك يا بنية حماة نفسك التعب باختيارك .. ان النصيب الذي عرض عليك لو عرض على احسن نساء العالمين لفرحت به وأنت لا ... » وبلعت ريقها واستغنت عن التصريح بالاشارة

فقال لمياء « هذا كله اعلمه وقد حاولت ان اقنع نفسي فاذا أنا عاجزة عن ذلك .. اني ضعيفة مسكينة .. آه من الحب .. ساحيني يا سيدي على هذه الحرية في خطابي ... اردت ان اقنع نفسي ان ماسيدعوني اليه والذي سعادة لا ترد فشعرت بقشعريرة ارتعدت لها فرائصي .. لا أقدر .. لا اقدر ان اتسلط على نفسي .. اني لا املك رشدي يظهر اني مجنونة .. »

فضحكت أم الامراء على سبيل المداعبة وقالت « هل تشكين في ذلك ؟ الا تعلمين ان العلماء يسمون الحب الشديد جنوناً .. »

قالت « مهما يكن فاني غير قادرة على التخلص من هذه الهواجس .. بالله اشفقي علي وارقتي بي .. »

قالت « أني مستعدة لما تريدينه . نعم احب ان تكوني من نصيب الحسين بن جوهر ولكنني افضل راحتك . فاذا كنت تظنين اني في قدرة على مساعدتك في شيء قولي »

فأطرقت وسبابتها على شفها السفلى وهي تفكر وأم الامراء تنظر اليها وتنتظر ما تقوله فاذا هي رفعت بصرها اليها وقالت « اني اطلب منك أمراً لا يصعب عليك . اني أحب الذهاب الى والدي لاراه وأباحته في الامر الذي عرض عليه اليوم . لعله اذا علم بما في خاطري يعفني منه . وانت تكملين فضلك في ارجاع امير المؤمنين عن عزمه »

ففكرت أم الامراء لحظة وهي تعلم ان زيجة لمياء للحسين يراد بها غرض سياسي لا كتساب قلب حمدون فضلاً عن ملائمة العروسين فلم تشأ أن تعدها باقناع زوجها لكنها طابت خاطرها وقالت « لك علي ذلك .. متى تذهبين الى والدك ؟ »

قالت « الآن ياسيدي . . اني لا استطيع رقاداً ان لم أره واباحته » قالت « كيف تذهبين الآن وقد داهمنا الظلام ووالدك في معسكره خارج المنصورية وقد أقفلت الابواب . ومثلك لا يؤذن بخروجها من هذا القصر »

قالت « أخرج متكرة وأنا لا أبالي بالظلام إنما اطلب اليك ان تأمرني بثوب احد الصقالبة خـدم القصر البسه وأخرج بحجة رسالة احملها من امير المؤمنين الى صاحب سجلماسة »

ففكرت أم الامراء لحظة ثم قالت « ذلك هين علي ولكنني اخاف ان يستغشك الخفر على الابواب »

قالت « لا تخافي »

فقالت « ها أنا ذاهبة الى حجرتي وبعد قليل تعالى الى تجدي الثوب حاضراً »

فأكبت على يدها لتقبلها شكراً على هذا الصنيع . فتمعتها أم الامراء من ذلك وتركتها وخرجت

الفصل الثالث عشر

المعارضة

فكشت لمياء برهة ثم مشت الى أم الامراء فرأتها قد أعدت الثوب فلبسته وأصلحت من شأنها حتى لا يشك من يراها أنها غلام صقلي وودعتها . فارشدتها الى الطريق الاقرب المؤدي الى باب البلد فمشت وهي ثابتة القدم لا يعثرها خوف . فمرت في الحديقة لا يستغشها احد واهل القصر مشغولون في مهامهم حتى وصلت باب البلد فاذا هو موحد والخفر وقوف عنده باسلحتهم . فطلبت اليهم ان يفتحوا لها الباب لانها ذاهبة في مهمة مستعجلة الى معسكر صاحب سجالماسة . ففتحوه ولا يشك أحد منهم انها رسول صقلي

ففرحت بانطلاء حيلتها وخرجت فاذا هي في الخلاء . ونظرت نحو معسكر والدها فعرفت مكانه من النار الموقدة عنده فمشت بسرعة والظلام حالك والمكان خال وكل شيء هادىء . فلم تمش يسيراً حتى رأت شبحاً طويلاً يدنو منها وعليه عباءة سوداء قد التف بها ومشى نحوها بهدوء فتحولت عن جهته لئلا يعترضها . فاذا هو قد وقف لها ونادى « من الرجل »

فقالت « رسول من امير المؤمنين الى هذا المعسكر »

فقال « قف عندك »

ولما سمعت الصوت اقشعر بدنّها لانّها تذكرت صوتاً تعرفه لكنها تجلّدت وتجاهلت وقالت « دعني . . . اني سائر لامر مستعجل »

فناداها قائلاً « لا يخرج الرسل من هذا القصر ليلاً »

قالت « أنها رسالة هامة مستعجلة وقد رأيت الخفر بالباب ولم يعترضوني »

قال « أنا اعترضك . . قف عندك أو تعال معي الى النور لارى وجهك . .

اني أعرف غلمان القصر جميعاً »

فتحيرت في أمرها وتفرست بمخاطبتها وأخذت تفكر في من عساه ان يكون وصوته يشبه صوت الحسين بن جوهر واستبعدت ان يكون هو هناك وليست الحفارة من شأنه . فتجاهلت وظلت ماشية وهي تقول « اني ذاهب في مهمة سرية لا يجوز للخفر ان يطلع عليها ولا أن يعرف من أنا »

« قال اذا كان ذلك لا يجوز لسواي فهو جائز لي » قال ذلك ومد يده يريد ان يمسكها من يدها فتفرت منه وخبأت يدها وراء ظهرها وقالت « قل لي من أنت قبلا »

قال « أنا الحسين بن القائد جوهر »

فلما تأكدت انه هو بعينه ارجع عليها ولم تخف على نفسها منه لكنها خافت كشف سرها . فحولت وجهها عنه ومشت وهي تقول « لا نعهد الحسين بن اكبر القواد ينتحل مهنة الخفر ليتعرض لرسول امير المؤمنين . . دعي وشأني والا فان تأخري تعود عاقبته عليك »

فاعترضها وهم ان يمسك يدها فافلتت يدها منه بجسارة فقال لها ليس من شأنك ان تعين لكل انسان مهمته . نحن جميعاً نخدم مصلحة امير المؤمنين نضرب بسيفه ونخفر قصره . دع عنك ذلك واتبعني واذا كنت رسولا كما تزعم فلا خوف عليك . بل أكون لك عوناً في ابلاغ الرسالة « فلم تجدلها بدأ من الطاعة فقالت « ها أني واقف ما الذي تريده مني . . اكشف اللثام عن وجهك أولاً ثم خاطبني »

فازاح اللثام فاذا هو الحسين بعينه نحفق قلبها واستغربت تلك المصادفة وقالت « نعم أنت مولانا الحسين بن القائد جوهر فما الذي يريد مني » قال « اني لا ارى وجه صقلي ولا أسمع صوت صقلي اني اسمع صوت امرأة »

فضحكت استخفافاً وقالت « أرايت كيف أنك مخدوع ؟ فحسبني امرأة وأنا غلام »

قال « اذا كنت غلاماً صقلياً فاصدقني ولا تخف »

فتماسكت لمياء ولم تجد بداً من التصريح فقالت « تأمل في وجهي جيداً »
فتفرس فيها على شعاع النور وقال « أنت فتاة . . وكأني رأيت هذا
الوجه في صباح هذا اليوم . . أأنت لمياء بفت صاحب سجدماسة ؟ »
فلم تطاوعها نفسها على الانكار فقالت « نعم أنا هي وما الذي تريده
مني ؟ »

فتنهدها وابتسم ثم قال « ان ما أريده منك ليس هنا محل الكلام فيه
يا لمياء . ولكنني اطمئنك ان لا خوف عليك مني لسبب سوف تعلمينه
والكنني اعجب لخروجك في هذا الليل متسكرة ومثلك لا يؤذن لها في
الخروج من قصر أمير المؤمنين . كيف خرجت ؟ »
قالت « ألم أقل لك اني خارجة في مهمة لصاحب سجدماسة »
قال « انت ذاهبة الى أبيك »

قالت « نعم . . هاقد قات لك . . فأنت وشأنك »
قال بلحن التودد « ان شأني شأن المأمور المطيع يا لمياء - ولو كان
الخارج في هذا الليل سواك لكانت حياته في خطر . وأما أنت فاني في
خدمتك حتى ترجعي الى مأمك - إنما ارجو ان تذكرني هذا لي اذا
ذكرت به »

فشعرت انه يحماها فضلاً سيطالها به يوماً ما فقالت « لم أخرج من
هذا القصر في هذا الليل وحدي وأنا خائفة من أحد . فاذا شئت ان تبقي
على اعتراضك فاني لا ابالي »

وكان الحسين قد علم في ذلك النهار ان اباه وأباها زارا المعز وانه خطبها
له من أبيها ورضي أبوها . ولكنه كان على يقين أنها لم تطلع على شيء من
ذلك بعد . وتوسم في اجتماعها بوالدها في تلك الساعة خيراً لنفسه إذ يبلغها
أبوها ما كان من طلب أمير المؤمنين لها باسم الحسين - فقال « قلت لك ان
شأني معك ان اكون في خدمتك حتى تبلغني مأمك وتشاهدي والدك .
ولعلك وانت راجعة يتغير لحن خطابك معي »

فادركت كل ما جال في خاطره وفهمت ما يشير اليه لكنها تجاهلت

وقالت « اني لا أقدر ان اذكر ابن القائد جوهر بعد هذه المكارم الا بالشكر والثناء في كل حال . فهل تأذن بانصرافي الآن »
 قال « نعم . ولكنني اكون في خدمتك لثلا يعترضك سواي فان في هذه الطرق خفراء آخرين اقامهم والذي سرّاً لزيادة الحرص على سلامة امير المؤمنين . ولا أحب ان يعرف احد منهم ولا سواهم بخروجك ولا أريد ان يخاطبك أحد ولا ان يقول لك كلمة ولو كانت سلاماً واحتراماً .. اني اكثر حرصاً عليك منك .. » قال ذلك بلحن الحب
 فظلت على تجاهلها وقالت « بارك الله فيك فانا واثقة بمرؤتك واحب ان تكتم ما رأيت عن كل احد كأنك لم تشاهد احداً »
 فاستأنس بهذه الوصية واستدل بها على ميل نحوه وقال « قلت لك اني احرص منك عليك .. وهذا يكفي »
 فلم تحببه ولكنها مشيت ومشى هو في أثرها عن بعد حتى دنت من معسكر أبيها

الفصل الرابع عشر

ابو حامد

وكان ذلك المعسكر خياماً مضروبة اكبرها فسطاط الامير فلما دنت من الفسطاط صاح بها رجل من الواقفين للحراسة « من القادم ؟ »
 فظلت على تنكرها وقالت « رسول من امير المؤمنين الى الامير حمدون »
 فنظر في اثوابها فحسبها غلاماً صقلياً فدخل ليستأذن لها بالدخول
 وكان حمدون قد عاد في ذلك بعد مثوله بين يدي الخليفة وصدره مملوء بالاماني واختلى بصديقه ابي حامد مدة طويلة ودعاه للعشاء معاً فقضيا ساعات وهما يتساران لا يأذنان لاحد في الدخول عليهما . فلما دخل الحرسي يستأذن لرسول من عند امير المؤمنين قال حمدون « ماذا عسى ان يكون من أمر هذا الرسول ؟ فليدخل »

فدخلت لمياء ولم تقع عين أبيها عليها حتى عرفها فهم أن يناديها فأشارت إليه بالسبابة على فهمها أن يكتم أمرها . فأشار إلى الحجاب أن يخرج ويبعد سائر الحجاب عن الفسطاط

وكان فسطاط الأمير حمدون خيمة كبيرة من الادم المدبوغ بلون احمر وقد فرشت ببساط كبير حملة معه من سجالماسة وهو في الاصل مجلوب من اسبانيا مما كان امراء الاندلس يفرشونه في قصورهم . لانه كان وهو امير يقدّم بأسباب المدنية . والخيمة قائمة على ستة اعمدة علقوا عليها الاسلحة والدروع وافرقت اطراف الفسطاط بالمصاييح

فدعا لمياء للجلوس على وسادة بجانبه واخذ يرحب بها وابو حامد الى جانبه الآخر - وهو كهل قصير القامة دقيق العضل كبير الرأس بارز الجهة خفيف اللحية قد برز فكاه وتأت سناء المتوسطتان من فكه الاعلى تتوء كثيراً وافترقتا . وله عينان غائرتان متقاربتان تبرقان دهاء ومكراً كأنهما مصباحان متجاوران قد اختلط نورهما . وفي احداها انحراف نحو الاعلى وبينهما اقف كبير اعقف كثف النسر . وقد ارسل شاريه علي شفثيه ليخفي سنه البارزتين . وأهمل لحيته الخفيفة بلا تمشيط . وكان قد تخفف بلباس الليل وغطى رأسه بعرقية سوداء زادت تلك السحنة غرابة . اذا لقيه الرجل استخف به واحتقره فلا يلبث ان يخاطبه حتى يهابه لقوة عارضته وفصاحة لسانه

فلما رأى حمدون يرحب بلمياء شاركه في الترحاب وهش لها وسبق والدها الى مخاطبتها فقال « بارك الله فيك لقد جئت في ابان الحاجة اليك .. ولكن ما الذي جاء بك في هذا الليل ؟ »

فضحك أبوها وقال « يظهر ان روحنا خاطبت روحها عن بعد فلبت الطلب »

فقالت لمياء والاهتمام باد في عينيها البراقتين « جئت يا سيدي لامر همني كثيراً »

قال وهو يبتسم « ولعلمهم انباؤك بما دار بيننا وبين المعز في هذا الصباح »

قالت « لم ينبؤني ولكنني سمعت الحديث في اذني »
 فتصدى أبو حامد للكلام قائلاً « اهنتك يالمياء بهذا النصيب الحسن »
 فنظرت اليه نظرة عتاب وقالت « وانت تقول ذلك أيضاً ؟ »
 قال « كيف لا أقوله ؟ . » ونظر الى أبيها كأنه يستشير.
 فقال حمدون « نعم يحق لنا ان نهنتك يا بنية فان هذا النصيب لا يتأتى
 لاحد من اهل القيروان »
 فالتفت الى أبي حامد وقالت « وسالم ؟ » وهي تتوقع ان تفحمه بذلك
 الاعتراض

فقال « سالم ؟ . حتى سالم يفرح لك بهذا النصيب . . »
 فدهشت لهذا الجواب وقالت « سالم ؟ لا . لا . لا أظنه يفرح ولا أنا
 فرحت به »

فالتفت أبوها اليها لفظة استغراب وقال « وانت لم تفرحي به ؟ .. يا لله
 ما الذي تتوقعينه أحسن من هذا ؟ »

قالت « أتوقع أن ... » وغلب عليها الحياء فسكتت
 فقال أبو حامد « ان كنت ترفضين هذه النعمة مراعاة لخاطر سالم فأنا
 أضمن ارتياحه اليها »

قالت « سالم لا يرضى أن أكون لسواه ؟ كلا »
 فضحك أبو حامد ملء فيه وهز رأسه باستخفاف وقال « يظهر انك
 تنظرين الى هذا الزواج من وجه واحد فقط »
 فاستغربت هذا التعبير وقالت « وهل ينظر في هذا الامر من عدة
 وجوه ؟ »

فأخذ حمدون وأبو حامد ينظر كل منها الى صاحبه ويضحك . وأغرق
 أبو حامد في الضحك حتى كاد يستلقي على قفاه وقد برز سناه من بين شعر
 شاريه . فشق ذلك على لمياء فابتدرها أبوها قائلاً « ألا يكفي لقبولك بهذا
 النصيب ان يكون قد تم الاتفاق عليه بين أهلك وأمير المؤمنين ؟ واذا

كنت لا تبالين بخاطر والدك الا تهاين أمر الخليفة ؟ » قال ذلك بلحن العتاب والتوبيخ

فجملت من هذا التعريض لكنها لم تقتنع فسكتت وأطرقت وفي سكوتها انكار لما يطلبونه منها . فتصدى ابو حامد وهو يظهر التلطف والاهتمام ويتشاغل باصلاح طاقيته وقال لها « أنا لأشك في تعقلك وحكمتك ولذلك فانا أخطبك بصراحة .. أوكد لك لو كان سالم هنا الآن لامرك ان تطيعي والدك وتقبلي بما عرض عليك . ليس لانه لا يحبك ولكنه يرجو من ذلك خيراً لنا جميعاً »

فلما سمعت قوله استغربت ما فيه من التلميح ولم تفهم مراده وهي تعلم ان سالماً اذا كان يحبها كما تحبه لا يرضى ان تكون لسواه ولو اعطي مال العالم كله .. ولم تفهم ما هو النفع الذي يرجوه من قبولها . فوقعت في حيرة وظلت ساكتة وقد بان الارتباك في عينيها فتحنح أبو حامد فنفض والدها وخرج من الخيمة وهو يظهر أنه يريد حاجة عرضت له . فبقيت لمياء مع ابى حامد فتوجه نحوها باهتمام وقال ارجو ان تكونى قد فهمت مرادى « فرفعت بصرها اليه وقالت « كلا يا سيدي .. اعترف لك انى لم افهم مرادك . وأنا أعلم أن سالماً اذا كان يحبني كما تقولون لا يمكن ان يرضى بهذا الامر .. اقيس ذلك على نفسي » واطرقت وقد توردت وجنتاها من الخجل وأخذت باصلاح المنطقة حول خصرها كأن ثوب الصقالبة قد ضايقها لانها لم تعودده

فقال ابو حامد وهو يخفض صوته كأنه يسر اليها امراً هاماً « انى اجل ذكائك عن ان يخفى عليك مرادنا .. أم أنت الآن راضية بالقعود اسيرة كالجارية في بيت ذلك الامير المغرور »

قال ذلك وفي صوته لحن الاحتقار . فتذكرت لمياء ما كانت تعلمه من نغمته على المعز قبل أن تغلب عليه . ولكنها كانت تحسبه غير عزمه واقتنع بما صار لعجزه عن مناهضته . وأحست لما سمعت اسلوب تعبيره بغيرة هبت

في صدرها للدفاع عن نفسها وعن المعز فقالت « لم أكن أتوقع منك يا عماء ما سمعته فما أنا جارية ولا المعز مغرور »

فقال « لله أنت ما أطيب سريرك أنهم خدعوك حتى حولوا قلبك عن والدك واهلك وصرت تجدين الأسر عزاً والذل سعادة .. أين أنفة لمياء راعية الجواد الادهم سليلة آل مدرار اصحاب سجدماسة ؟ أم غرك ما ناله اولئك من الظفر صدفه ؟ أنهم غير اهل للملك والتحكم في الرقاب .. ألم تري منازلهم لا تتميز عن منازل العامة يجلس اميرهم على اللبود ويلبس كسائر الناس ؟. أين ابهة الدولة التي كانت لوالدك واجدادك ؟ .. ان آل مدرار وخدمهم اهل للسيادة وبهم وخدمهم يليق الملك .. أقول ذلك وما أنا لسوء حظي منهم ولكنني اعرف منزلتهم ولا غرض لي غير الانتصار للحق - ولو كان والدك .. تتخذ هذه الحرية بمخاطبتك »

الفصل الخامس عشر

التحميس

وكانت لمياء تسمع وتعجب ولم تستطع صبراً على السكوت فقالت « اراك يا عماء قد بالغت في التقريع ولا أرى حاجة الى ذلك .. ان المعز لدين الله لم يبلغ ما بلغ اليه من سعة الملك الا لانه احق بهذا الامر بما له من النسب الشريف انه من ابناء بنت الرسول وقد حاربنا وحاربناه ولو كان الحق في جانبنا لظفرنا به - كنت في مقدمة المحاربين المدافعين ولا ازال احب الاستقلال ولكنني لا اجد اليه سبيلا . وهذا امير المؤمنين قد أكرم وفادتنا واحسن الظن بنا واخلصنا النية له فلا ينبغي ان نخونه »

فضحك ثم قطع ضحكته فجأة وقال « لم استغرب من قولك الا اعتقادك صحة النسب الذي يدعيه هؤلاء لا أنفسهم .. أنا اعلم الناس بانسابهم ولكن الانسان اذا تغلب انتحل النسب الذي يريده . أما قولك أنهم تغلبوا وان

ذلك دليل على حقهم في الخلافة فهو منقوض لانهم لم ينالوا هذا الامر ببطشهم وانت تعلمين ان أبا عبد الله الشيعي هو الذي سلم اليهم هذا السلطان وانصاره هم أهل هذه البلاد . ثم كافأ هؤلاء الخلفاء بالقتل . . اليس كذلك ؟ وتقولين مع هذا أنهم اكرموا وفادتنا وأحسنوا الظن بنا ؟ ما الذي أكرموكم به وقد سلبوكم سلطانكم واغتموا اموالكم ونهبوا منازلكم يكفي ما اخذوه من قصر ك من التحف والاثاث والرياش أين جوادك بل أين مرآتك الذهبية التي كانت في غرفتك ؟ أين حاضنتك التي كانت تعني بلبسك وتدير شؤونك أين ماشطتك ومريدتك ألم يكن الخدم عشرات في منزلك واذا ركبت وقفوا واذا مشيت تطامنوا واذا أمرت اطاعوا . وكنت الملكة الآمرة الناهية لا يسمع في القصر غير امرك ونهيك - نسيت كل ذلك واعجبك ان تكوني رهناً عند هذا الرجل وتقولين انه اكرمك وأحسن وفادتك ؟ انهم لم يكرموا أحداً مثل اكرامهم أبا عبد الله المأسوف عليه ثم قتلوه غدرأ ... » قال ذلك وغص بريقه وكاد يشرق بدموعه

فتأثرت لمياء من خطابه وكانت تعلم غدر الفاطميين بأبي عبد الله لكن تعلقها بطهارة نسبهم كان يحببهم اليها مع اعتقادها عجز والدها عن التغلب وخصوصاً بعد ما شاهدته من لطف المعز وامراته وقائده وسائر أهل ذلك القصر . على انها لما سمعت تذكرا سابق عزها ومجدها وشرف اسرتها ونخامة ملكهم تنهت فيها شهوة الملك ونعرة السيادة فخفت لهجتها في المقاومة وأرادت أن تباحث أبا حامد في الامر وهي لا ترى بأساً من ذلك فقالت « ان ما قلته صحيح لا شك فيه لكن ما الفائدة منه ونحن لا حول لنا ولا طول و . »

فقطع كلامها قائلاً « هذا شيء آخر سنبحث فيه وقد سرني انك رجعت الى ما هو جدير بك من المحافظة على شرف ابيك وعز الملك . . أنتم آل مدرار توارثتم السيادة كابراً عن كابر . وأحرزتم الملك بمجد السيف لا بالحيلة وادعاء النسب الشريف . »

فتحيرت لمياء لما سمعته من التناقض فقالت « اذا كان الامر كذلك

فما بالك ترغبوني في ابن ذلك القائد وهو مولى بن مولى وعنفتموني على ترددي في امره »

فابتسم وقال « ان شعرة من رأسك تساوي ملك هذا الخليفة وكل قواده .. ان ذلك الطالب لا يساوي قلامة من ظفرك ... »

فاستغربت قوله وظننته يمزح فقالت « لم أفهم مرادك يا سيدي »
فقال « مرادي ؟. ألم تفهمي مرادي ؟ وعهدي بك الذكاء أو لعلك تتجاهلين .. أتظنين سالماً يرضى ان يحظى بك أحد من العالمين وهو حي ؟ »
فازدادت دهشها وقالت « قلت لكم ذلك فغضبتم علي . لكنني لا ازال جاهلة مرادك ... »

فضحك ونظر نحو باب الخيمة وهم كأنه يتحضر للنهوض . فالتفت ورأت أباه داخلًا ومعه رجل ملثم ملتف بعباءة لا يبدو منه الا عيناه . فلم تعرفه وابتدرها ابوها قائلاً وهو يهش لها « العلك لا تزالين على تمسكك بالرفض ومقاومة امر الخليفة وارادة والدك » قال ذلك وهو يتقدم حتى جلس في مكانه والرجل الملثم واقف بجانب احد أعمدة الخيمة كأنه متكئ عليه . فشغل خاطرها به وخافت ان يكون في الامر دسيسة لكنها لم تستغش والدها . ولما سمعته يطرح ذلك السؤال عليها قالت « ولكن العم أبا حامد يقول انكم تبخلون بي حتى على الخليفة ولا تعطون شعرة مني بكل ملكه »

فضحك ضحكة تهكم وقال « هل قال لك ذلك ؟ .. هل صدقته ؟ لا . لا . كيف نخرج من أسر أمير المؤمنين .. كيف شكر فضله علينا اتنا مدينون له بحياتنا .. » قال ذلك وتحنح ونظرت لمياء في وجهه فرأت في عينيه معنى غير الذي نطق به لسانه . والعين أصدق تعبيراً من اللسان . فعلمت انه يتهمك ولكنها تجاهلت وقالت « لقد حيرتموني في امري . فلا أدري من أصدق »

ونظرت الى والدها فرأت الغضب في عينيه وهما تكادان تقدحان شرراً وشارباه يرقصان في وجهه وقد تعودت ذلك فيه اذا اشتد غضبه فتهيبت

وأثر منظره فيها وتوقعت ان تسمع جوابه فرأته نهض مسرعاً وهو يتعثر بحمائل سيفه وأردان جيبته ومشى على البساط مشية ملك يتخطر تيهاً وعجباً وليس في قدميه نعال وكان قد نزعهما بباب الفسطاط كالعادة . فالتفت نحوه وهي تراعيه في تخطره وتتنظر خلسة الى الرجل المثلث وقد ازدادت دهشة ولبثت صامتة . ووقع نظرها على أبا حامد فرأته ينظر اليها ويشير بسبابته على شفته السفلى ان « اسكتي لنرى »

الفصل السادس عشر

عز الملك

أما حمدون فبعد ان خطر مرتين ذهاباً وإياباً وهو يلعب شاريه وسيفه يحجر على البساط وقد انحرفت عمامته من مكانها ولم ينتبه لها من الغضب وقف بين يدي لمياء وقال « لمياء يا لمياء ! الى متى تتجاهلين ومثلك لا يحتاج الى ايضاح هل تصدقين ان اباك امير سجالماسة سلالة آل مدرار السادة الفاتحين يرضى بمصاهرة عبد صقلي يباع امثاله في الاسواق بدنانير قليلة ؟ هل صدقت اتنا نغير طلب صاحب القبروان التفاتاً . وانما نحن وافقناه حتى يتيسر لنا ما نريده .. لا تكوني ساذجة وانت ابنة حمدون صاحب سجالماسة قائدة الجند في ساحة الحرب . ما اسرع ما نسيت مجدنا وملكنا نحن اصحاب سجالماسه ونصاهر العبيد ؟ . لا يغرنك ما اتيج لهم من النصر انها فلتة لا تستقر لهم طويلاً .. لا تستقر الا ريثا توافقينني على ما اطلبه منك فيذهب ملكهم ونسترجع ملكنا . ونخضعهم لاسياقنا » قال ذلك وهو يرتعش من الغضب

فتحمست لمياء وعادت اليها روح السيادة وحب الرئاسة وتأثرت مما ظهر من تحمس والدها لكنها اعملت فكرتها فلم تجد كلامه مبنياً على شيء

واضح ثابت . لعلمها انهم هناك كلاسرى عند المعز لدين الله وان جند والدها وان كثر لا يعد شيئاً في جانب جند المعز واتباعه . ولكنها انصاعت لقوله بنفوذ الوالدية فان الولد كثير التصديق لما يسمعه من والده ومعلمه ولو كان مستحيلاً . ومع ذلك فهي لم تفهم حقيقة ما يريدونه من ذلك التناقض فقالت « صدقت يا ابناؤى وهل ترى وسيلة لارجاع ما كان الى ما كان انى أبذل روى في هذا السبيل »

فلما سمع قولها اكب عليها وضمها الى صدره وقبل رأسها وابتمس ابتسام من فاز بضالة كان يبحث عنها وقال « بورك فيك من ابنة عاقلة . . انك جديرة ان تكونى ملكة سجلماسة والملك سيؤول طبعاً اليك إذ ليس لى ابناؤى سواك »

فاخذتها عزة الملك وشغلتها عن انعطافها الى المعز وأهله وتذكرت ما كانت فيه من الرفعة والكلمة النافذة وكيف كانت الرؤوس تطأطئ لها واللى ترثجف تهيباً منها . فنهضت عن خمس ووقفت بين يدي والدها قائلة « انكم تخاطبونى بالانغاز والاحاجى . ما معنى هذا التناقض قل يا ابناؤى ما الذى تريدونه منى . . وقبل كل شيء أحب ان احقق عدولك عن الرضا بطالب المعز لدين الله »

قال « اما هذا فلا . . لا اعدل عنه . . انها فرصة لا ينبغي ان نضيعها . . انها فرصة ثمينة لئيل مرادنا . . »

فلم تفهم قصده فقالت « كيف تريدون ان أكون ملكة فى سجلماسة وتطلبون الى ان اتزوج احد اتباع صاحب القيروان ؟ »

فقطع كلامها قائلاً « لا أعنى ان تزوجيه ان باعه اقصر من ذلك كثيراً . . كيف تزوجينه وسالم حى ؟ لو بلغ ذلك سالماً ماذا يقول عنا بل ما يقول عنك وانت راعية الجواد صاحبة السيف حامية حمى آل مدرار . أنا لا أعنى بقبولك أن تزوجى ذلك الرجل فعلاً . . ولستنا نريد ان يكون قبولك وسيلة لاسترجاع ملكتنا بكيفية ساشرحها لك وانما اريد ان اعلم قبل كل شيء هل فهمت مرادى »

قالت « لم أفهمه بعد »

قال « ان مرادي ان نتخلص من صاحب القبروان وقائده . . واذا تخلصنا منهما لا يبقى في افريقيا كلها من يقف في سبيلنا ولا ان يمنع سيادتنا . »

قالت « وكيف نتخلص منهما ؟ »

قال ويده على قبضة حسامه كأنه يستله « نقتلهما »

فاجفلت وتراجعت واستغربت هذا التصريح وهي تعرف تهور والدها واندفاعه ولم يكن يخطر لها انه يتصور قدرته على هذا العمل ولكنها اعتقدت انه لا يقول ذلك الا وهو على ثقة من قدرته عليه . فالتفت الى ابا حامد وكان لا يزال قاعداً الاربعاء ويداه متصلبتان وقد اطرق في الارض كأنه يفكر باهتمام . ثم حولت نظرها الى الرجل المثلث بجانب العمود وقالت في نفسها « من عساه ان يكون هذا المثلث الذي شهد هذا التصريح الخطر لا بد ان يكون من الاقرباء » وخطر لها ان يكون سالماً نفسه وحالما خطر ذلك خفق قلبها ولم تعد تستطيع صبراً عن استطلاع الحقيقة فنظرت الى والدها وكان قد عاد الى المشي . فمشت نحوه حتى قبضت على يده وقالت بصوت ضعيف « اراك تقول ما تقوله على مسمع من هذا المثلث فمن هو ؟ »

قال « ستعلمين حالا .. ولكن بعد ان توافقيني على ما قلته لك .. اني لم اعد استطيع صبراً على الذل .. يكلفوننا اذا دخلنا على صاحب القبروان ان نحياه تحية الامارة وان نؤمن على كل ما يقوله وان ندعوه بطول البقاء وان نقول له بأننا عبيده الطائعون . وانا لنضرب بسيفه ونجاهد في سبيله وانه صاحب الحق في الخلافة . وانه من نسل فاطمة الزهراء ان ذلك فوق طاقة البشر . نحن اصحاب سجالمة من اجيال متوالية وقد تأصلت السيادة في عروقنا فلا نستطيع احتمال هذا الذل فاما التغلب واما الموت »

فازدادت لمياء تحمساً بهذا القول وتناست كل شيء في سبيل العود الى

مجدها وعزها . وسرها فوق ذلك انهم لا ينوون اكرامها على القبول بان جوهر بدلا من سالم حبيبها . فاقشعت بهذه النتيجة وفرحت لكنها لم تفهم سر ذلك التضاد اذ يريدونها ان تقبل الزواج بالحسين وهم لا يسمحون بشعرة منها له .. كيف يتفق ذلك فقالت لوالدها « ان ما تطلبه يا سيدي هو غاية مرادي ولا بد من مراقبة الفرص للحصول عليه - أما الآن فارجو ان تطاوعني على التخلص من طالبة المعز ليطمئن بالي »

فقطع كلامها قائلا « ان تمنح لنا فرصة اوفق من هذه »
 قالت « وأي فرصة تعني ؟ »

قال « قبولك بما طلبه صاحب القيروان . . وقبل اتمام الزواج تذهب روحه وروح قائده وابن قائده والسلام .. » قال ذلك بعجلة ومشى مسرعاً الى مجلسه وقعد وهو يقتل شاريه وتركها واقفة متحيرة فادركت بعض مراده ولحظت انه يريد ان يتخذ العقد عليها ذريعة للفتك بالمعز وقائده وابن قائده ولا يكون ذلك الا غيلة . فاجفلت ولكنها تجاهلت ولم تشأ ان تباحثه في التفاصيل وانما اقتنعت انه وافقها على التخلص من الزواج بغير سالم - وعادت الى التفكير بذلك الملم وهو واقف كالصنم لا يتحرك فاقتربت منه وتفرست في عينيه ولم يكن ظاهراً من وجهه سواها وقد وقع نور المصباح عليهما فابرقتا . ولم تتفرس فيهما قليلا حتى اختلج قلبها في صدرها وصاحت « سالم ! »

فمد يده الى اللثام وازاحه فاذا هو سالم بعينه . فلما بان وجهه خجلت واطرقت وتسارعت دقات قلبها وخارت قواها على عاداتها معه وغلب الحياء عليها واخذتها البغمة لانها لم تكن تحسب سالماً في تلك الديار فتراجعت واطرقت

الفصل السابع عشر

التعريض

وكان سالم شاباً جميل الخلقة ممتلئ الجسم وكانت قد احبته كثيراً فهي

ترى فيه طبعاً كل الحسنات ولا ترى في الدنيا اجمل منه . وكانت قوية الارادة مع كل انسان الا معه فانها كانت اطوع له من بنانه . فلما كشف وجهه وأطرقت قال لها « بورك فيك يا لمياء .. كنت اعتقد انك تحبينني ولكن ليس الى هذا الحد . ولا فضل لك فاني احبك مثل هذا الحب وأكثر .. ولكن حبنا لا فائدة منه ان لم نسترجع مجدنا أو بالحري مجد والدك وسلطانة .. بعد المسير على الخطة التي يرسمها لك »

فلم تهالك ان صاحت فيه « وانت ايضاً تريد ان ارضى بما عرضوه علي .. عرضوا علي أن أكون لرجل سواك ! » قالت ذلك وهي تتوقع منه ان ينكره ويعترض عليه فاذا هو يقول « اريد ذلك وقتياً .. نعم اريد ان تظهرني قبورك به ونحن ندبر ما يلزم في حينه » ومشى حتى قعد بجانب عمه ابي حامد وأشار الى لمياء ان تقعد

أما هي فشغلها فرحها بتلك المقابلة عن كل خطر تتوقعه - ودهشة اللقاء تنسي المحبين كل شيء لاشتغال عواطفهم بالحاضر عن سواه ورأى ابو حامد ان الطبخة أوشكت ان تتضج فبادر الى اتمام معداتها فزحزح من مكانه كأنه يستعد لحديث طويل ونظر في اطراف الخيمة ولسان حاله يقول « هل يسمعنا أحد ؟ » فقال حمدون « انت في مأمن يا أبا حامد لاني امرت الحرس بالوقوف بعيداً وان يمنعوا أيأ كان من الوصول الينا »

فمسح شاربيه ولحيته بأنامله ونظر الى لمياء باهتمام وقال لها « قد وصلنا الآن الى الحد يا لمياء . هذا هو سالم صاحب الشأن وقد سمعت قوله - أنا غريب عن آل مدرار وان كنت صديقاً لهم - ولكنني مستعد ان ابذل حياتي في سبيل نصرة الحق ومقاومة أولئك الخونة الذين نالوا هذه السيادة بالغدر والنفاق كما تعلمين .. فلا يغرك ما يبدونه من التقشف باللباس والاثاث فان الذهب عندهم بالقناطير وإنما يموهون على الناس ليطيعوهم ثم يفتكوا بهم كما فتكوا بأبي عبد الله الشيعي .. » وتهد ثم عاد الى الكلام فقال « وهذا

والدك صديقي الامير حمدون أولى الناس بالامارة ولا حاجة الى دعوى كاذبة مثل دعواهم من الانتساب الى فاطمة الزهراء وإنما يكفيكم الانتساب الى آل مدرار وشرفهم معروف لا يختلف فيه اثنان . لا تظني هذا الفكر حديثاً عندنا - ولعل والدك لم يقله لك ولكننا بحثنا فيه ونحن في سجالمة ودبرنا المهمات اللازمة للتغلب على افريقية كلها ففسد تدبيرنا لاسباب قهرية وافلح ذلك الصقلي وتغلب علينا ولكن تغلبه لا ينبغي ان يضعف عزمنا عن طلب حقنا - وقد تتوهمين ان رجالنا اضعف من أن يستطيعوا محاربة جنود القيروان - ان ذلك صحيح بحسب الظاهر وقد ينخدع به غير العارف أما أنا فأؤكد لك ان هؤلاء الامراء والمشايخ من كتامة وصنهاجة الذين يظهرون الطاعة لهذا الرجل إنما يفعلون ذلك تملقاً له وهم يتوقعون فرصة للخروج عليه ولا بد من واحد يبدأ بهذا العمل فيتبعه سائر الامراء وتكون السيادة له فاحب ان يكون ذلك الشرف لوالدك فانه اعرقهم حسباً ونسباً فلا يكاد ينهض حتى ينهضوا معه - فكيف اذا دبرنا وسيلة لقتل المعز وقائده وهما روح تلك القوة الموهومة فان القوم كلهم يأتون معنا حتى أهل الخليفة أنفسهم لانهم ناقدون متحاسدون .. » وتنحج ومسح شاربيه بمنديله تشاغل بذلك لحظة وهو ينتظر ما يبدو من لمياء

أما هي فكانت قد غلبت عليها شهوة الشرف وحب الاستقلال وتذكرت ما كان لها من السيادة والابهة في زمن والدها - فغشى ذلك على احترامها للمعز وحبها لام الامراء . وكان ابا حامد صاحب نفوذ في حديثه وسلطان في برهانه فاقعها كلامه ورأت الحق في جانبه وتأثرت منه حتى شغلها عن وجود سالم هناك . لكنها ما زالت ترى صعوبة ذلك العمل فظلت ساكتة لتسمع تمام الحديث وترى ما يراه سالم . وأدرك ابا حامد ما في خاطرها فقال « اني اوجه الكلام لك يا لمياء لعلمي انك عاقلة وعليك الممول في هذا الامر - فلا تغرك كثرة جنود القيروان للاسباب التي قدمناها وعندنا مع ذلك جند يظهر عند الحاجة وعندنا اموال مدفونة لو اخرجناها

لدهش العالم من كثرتها وهي مهياة قبل ولادتك وولادة سالم لمقاومة هؤلاء الغادرين وارجاع الملك الى اصحابه . وليس في افريقية اولى به من والدك »

فظهر لها من كلامه امور كانت قد عرفت بعضها من احاديثها مع سالم قبل الاسر - والمحـب لا يؤتمن على سر لا يبوح الى حبيبه فاذا شئت ان يبقـى سرـك مكتوماً احذر أن تستودعه محباً - لكنها اظهرت انها لم تكن عالمة بشيء من هذا القبيل الا في تلك الساعة ونظرت الى والدها فرأته ساكتاً والتفتت الى سالم فاذا هو ينظر اليها كأنه يتوقع أن يسمع رأيها فقالت « انكم تسعون في أمر هام تقطع دونه الرقاب وترهق النفوس ولكن بذل الحياة في هذا السبيل لذيذ . اني يا عماء أبذل حياتي اذا كان في بذلها مصلحة لوالدي .. على اني استمبحكم عذراً في كلمة أقولها وان كنت فتاة ضعيفة العقل .. ان ما تهضون له من جمع كلمة القبائل تحت سلطان رجل واحد لم نسمع انه تم لغير الخلفاء اصحاب النسب في قريش . ان الناس لا يخضعون لسواهم حتى صاحب الفيروان لم يصل الى ماوصل اليه الا بهذا النسب سواء كان صحيحاً أو غير صحيح . وبغير ذلك لا يتم شيء .. » فقطع ابو حامد كلامها وهو يضحك ضحك الاعجاب بتعقلها وسداد رأيها وقال « بورك فيك من حكيمة عاقلة . قد استدركت علينا امراً لم يستدركه احد سواك ولا ينتبه له غير العقلاء الدهاة .. صدقت ان الامراء لا تجتمع كلمتهم الا باسم الدين وهذا امر قد دبرناه وخبرنا بشأنه خلافة أرسخ قدماً وأصدق نسباً من هذه . كوني مطمئنة .. لم يبق الآن الا خطوة واحدة وهي ان نتخلص من هذين الرجلين وثالثهما اذا أمكن وهذا لا يتم الا على يدك .. لا أطلب اليك ان تباشري ذلك بنفسك وإنما يطلب منك ان تظهري انك رضيت بابن جوهر ونحن ندبر ما بقي ونقول ما ينبغي » فاطرقت هنية تفكر في ما رأته من الغرائب في تلك الليلة وكيف أنت وصدرها مملوء من الاعجاب بالمعز والاخلاص له ولامرأته وما لاقاها به الحسين بن جوهر في الطريق من دلائل التعفف وصدق المودة وهي الآن

تكاد تؤامر على قتلهم . فاجفأت وظهر التردد في عينيها فتلقاها سالم بالحديث قائلاً « لم أكن أشك أنك لو طلب منك أن تقتلي ذلك الرجل يسدك في سبيل أرجاع سلطة والدك لفعلت فكيف وهم إنما يطلبون سكوتك ورضاك . اطيعي لئلا يقال أنك وقفت عثرة في طريقهم وأنا على يقين أنهم ظافرون . وسترين أن ما يبدو لك من مظاهر القوة في هؤلاء العبيدين إنما هو سحابة صيف »

وكان لكلام سالم وقع خاص على اذني لمياء ولو خاطبها في أن ترمى نفسها في النار لفعلت . فلم تجد بداً من اظهار الرضى واعتقدت أنهم على صواب . ومع ذلك تركت الامر للمستقبل فان الوقت يفعل ما تعجز عنه حيل الرجال . فقالت لسالم « إنما كنت أتمنع رغبة فيك عن سواك فاذا كنت تريد ذلك فانا فاعلة »

فقطع كلامها بلحن الحب وقال « لا أعني أن تقبلي الى الآخر . . . ولكن اقبلي فاذا لم استطع قطع الحبيل قبل أن يقبضوا عليه فما أنا أهل للحصول عليك . وتكونين قد حصلت على أعظم شاب عندهم » قال ذلك وتنحنح وابتسم يظهر المداعبة وهو بالحقيقة يعني ما يقول . وهو الواقع

الفصل الثامن عشر

الرجوع

فتصدى والدها عند ذلك وقد سره اقتناع ابنته فقال « بورك فيك يا ابنة صاحب سجدماسة - انهضي الآن وارجعي الى قصر المعز اذا شئت ومتى سئلت عن الرضى بالخطبة فاجعلي انت رضى لان أباك وأمير المؤمنين رضيا . . . فهمت ؟ . هل ارسل معك من يوصلك الى المنصورة (قصر المعز) ؟ »

فنهضت وهي تقول « . لا احتاج الى أحد »

فاعترض سالم على ذلك وقال « كيف تذهين وحدك في هذا الليل أ، أرافقك الى هناك . . »

فتذكرت أنها لا تلبث عند خروجها من معسكر أبيها ان تلتقي بالحسين بن جوهر فكيف تجمع بين المتناظرين ؟ فألحت على سالم ان لا يرافقها هو ولا سواء لأنها أنت وحدها وتعود وحدها وهي متسكرة بلباس خدم القصر ولا تخاف أحداً . فقال لها أبوها « ومع ذلك لا بأس من ارسال بعض الحرس في أثرك ولو عن بعد لانا لا نعلم ما يحدث . »

فاستحلفتها ان لا يفعل فسكت وقبلها وودعها وودعت سالماً والعم أبا حامد ولكل منهم وداع خاص على شكل خاص . واصابت هنداما وخرجت وقد اشتد الظلام والارض خالية بين المعسكرين لا انيس فيها . فمشت حتى خرجت من معسكر والدها فلما لبثت أن رأت شبحاً يقترب نحوها عرفت حالا انه الحسين كان في انتظارها وجاء لتشيعها الى المنصورة فأحست عند رؤيته بوخز في ضميرها واحتقرت نفسها لأنها كانت منذ ساعة صادقة اللهجة شريفة النفس لا يخامر ذهنها غش أو خداع وهي الآن خادعة غاشة . وهذا الشاب ينبغي ان تظهر له أنها تريد مكرأ وكذباً وأصبحت تعد نفسها كالمؤامرة على قتله وقتل والده والخليفة المعز الذي هو ساهر على سلامته يفديه بروحه - مرت هذه التصورات في ذهنها مرور البرق والحسين يمشي نحوها . فلما اقترب منها حياها باحترام ولم يزد على ان مشى بجانبها والامام كالخادم الموج بايصال مولاه الى مقصد . فأكبرت منه هذا التلطف ولم تتمالك عن ان قالت « لقد اتعبت نفسك يا سيدي في الانتظار طويلاً في هذا الليل . . »

قال وهو يمشيها على مهل « لم أتعب نفسي يا سيدي فان ذلك فرض علي بل هو من بواعث سروري - كيف وجدت والدك الامير عساه ان يكون في خير ؟ » قال ذلك وهو يشير الى ما كان يتوقعه من ان يطلعها على خبر خطبته اياها ولم يكن يشك في أنها ستفرح به وتحسب نفسها سعيدة وأدركت هي غرضه من ذلك السؤال وأثر فيها تلفظه كثيراً فقالت

« ان والدي في خير الحمد لله » وكانت تريد أن تزيد على ذلك انه شاكر راض وانه مشمول برضى أمير المؤمنين فلم تشأ ان تكذب فاقترعت على هذا الجواب المختصر . فحمل ذلك منها محمل الحياء فعمد الى مداعبتها فقال « يسرنى أن يكون والدك مسروراً ولكن يهمني أن تكوني أنت مسرورة أيضاً »

ففهمت مراده وشعرت بصدق طويته وخلوص نيته في حبها وكيف هي تضمير غير ما تقول فعظم ذلك عليها وشعرت بصغر نفسها وتلجلجت. لكنها تجلدت واجابت « وأنا أيضاً مسرورة لما رواء من التفات أمير المؤمنين وأم الامراء انها بالحقيقة قدوة الاميرات حفظها الله »

وأراد الحسين أن يغتنم تلك الفرصة لمخاطبتها صريحاً بأمر الخطبة وليس هناك من يسمع - ومهما يكن من تحجب الفتيات عن طلابهن امام الناس فاذا خلت احداهن بخطيبها يرتفع الحجاب ويتشاكيان . ولم يجد الحسين فرصة أئمن من هذه ولا اوفق منها وهما في غفلة عن الرقيباء . ولم يكن يشك ابداً ان أباهما فاتحها بشأن خطبته وانها رضيت ولكن الحياء يمنعها من التصريح فعمد الى تجريئها فقال « أتشعرين يالمياء بالسرور الذي أشعر به أنا »

فشق عليها أن يفاتحها بالمشاكة واحاديث الغرام وهي في ما علمت من التردد والارتباك فقالت « لا اعلم مقدار سرورك ولا نوعه ولكنني اعلم اني مسرورة من حسن وفادة أمير المؤمنين وام الامراء . . » وأظهرت البغته وهي تقول « أظننا صرنا على مقربة من المنصورة فاني أرى أنوارها . . . فاشكرك شكراً جزيلاً على تنازلك يا سيدي فقد اتعبتك . . » وهمت بفراقه فقال « لا تزال بعيدين عن تلك المدينة وان كنت ترين أنوارها فلا تتعجلي في الفراق - الا ان اكون قد ثقلت عليك بالحديث ولعلي تطوحت الى وراء ما يجوز لي . . ساحيني » قال ذلك بلحن العتاب

فخرجت لمياء وودت لو انها لم تقابل اباهما في تلك الليلة لانها كانت تعرف ما تجيب على هذه الاسئلة بصراحة . فربما أجابت انها تحبه وتحترمه

ولكنها مخطوبة لسواه. أما الآن فع اعتقادها انها كذلك فهم يطلبون منها اظهار رضاها به . وقد يهون عليها اذا سأها عن ذلك الخليفة أو أم الامراء وأما هو فيصعب عليها الكذب عليه وهي تشعر انه يحبها من كل قلبه فكيف تخادعه . ولما سمعت عتابه غلب عليها طيب عنصرها فقالت « العفو يا سيدي انك تبالغ في توبيخي فهل أسأت الادب في خطابك ؟ أو كان ينبغي لي أن اعرف حدي فاقف عنده »

فغلبته في العتاب وأحس انه أساء اليها وجرح احساسها بكلامه فقال « اني لا أستحق هذا التقريع يا لمياء . وانما أنا أحتال في سماع كلمة تدل على رضاك وكفى »

الفصل التاسع عشر

صدفة غريبة

فلم تجد لمياء خيراً من السكوت المطلق لان الكلام يجبر الكلام وهي لا تعرف ما تقول . وسكت هو تهيباً من سكوتها . وهما في تلك الحالة سمعا وقع حوافر فرس مسرع وراءهما فالتفتت فرأت فارساً قادماً من معسكر أبيها ولم يقترب منها حتى علمت انه سالم فاجفلت من ذلك الاتفاق الغريب وخافت على سالم أن ينكشف أمره لان أهل قصر المعز يعلمون انه غائب . والمعز يحب القبض عليه . وهو لم يلحق بها الا مبالغة في اكرامها لتثبت في وعددها وهم يبنون على ذلك الوعد العلامي والقصور ولكنه أظهر انه جاء ليخفرها . فلما رأى الحسين بلبس الخفر وهو يمشي في خدمتها ظنه من الحراس ولم يخطر له مطلقاً انه الحسين بن جوهر نفسه . فوقعت لمياء في حيرة لكنها تجاهلت

أما الحسين فالتفت الى الفارس وصاح فيه « من أنت ؟ »

فقال سالم « وما يعنيك من أمري ؟ سر في طريقك »

فقال « بل يعنيني ... قف حالا »

وكان سالم قد وصل الى لمياء فلم يحبه لكنه خاطب لمياء قائلاً « لمياء من هو هذا الرجل الذي تسارينه »

فارتبكت في أمرها وهي لا تعلم هل يريد الحسين ان يذكر اسمه أم يحب أن يبقى مكتوماً . فتجلجت في الجواب لحظة وهي تنظر الى الحسين كأنها تنتظر ان يكون الجواب منه

أما هو فاستغرب خطاب الرجل بهذه الدالة على لمياء مما لا يكون الا بين الاقرباء فتبادر الى ذهنه انه من اقاربها الاقربين فخف غضبه اكراماً لها وسألها قائلاً « من هو هذا ألعنه من بعض اهلك »

قالت « نعم يا سيدي انه من أبناء عمي ويظهر انهم رأوني ماشية مع رجل لا يعرفونه فظنوا علي بأساً فجاء أحدهم لتجديتي .. »

فوجه الحسين خطابه الى سالم وقال « لا تخف يا صاحبي اني صديق محب وأنا في خدمة ابنة عمك حتى اوصلها الى مأمنها »

فلم يرض سالم بهذا الجواب لان لمياء متكررة بلباس الصقالبة فكيف تأتي لهذا الرجل أن يعرفها ويماشيها على انفراد ؟ فسبق الى ذهنه سوء الظن فقال « من أنت يا صاحب العلك متسكر مثلها ومن اخبرك انها فتاة وأنها لمياء ؟ »

فاستكف الحسين من لهجته في خطابه وهم ان يخبره عن حقيقة حاله لكنه فضل الكتمان حفظاً لكرامة لمياء فقال « أنا أيضاً في خدمة قصر أمير المؤمنين وعرفت بخروجها بمهمة الى والدها الامير فجئت لمرافقتها في ذهابها وانتظرت عودتها وها أنا معها الى مأمنها كما قلت لك »

فاستحسن لمياء منه هذا الاسلوب وتوقعت ان ينتهي الجدل هنا لكنها ما لبثت ان رأت سالماً ترجل عن جواده وهو لا يزال ملثماً ووقف بين لمياء والحسين وولى وجهه نحوها وقال لها « لا حاجة الى مماشاة الخدم اني اسير في خدمتك .. ألم اقل لك اني مزعم على ايصالك فاييت ؟ »

فتجلدت وهي تخاف ان يغضب الحسين لهذه الجسارة وقالت « لم ارض أن يأتي منكم احد معي لاني على يقين من وجود هذا الرفيق . » قالت

ذلك ومشت فمشى سالم بجانبها بينها وبين الحسين وهو يقول « لماذا لم تقولي لي عنه من هناك »

فاستثقلت ذلك الاعتراض وتحيرت في أمرها وقالت « لم أجد حاجة الى ذلك »

قال « كيف ؟ انك بنت الامير حمدون صاحب سجلماسة لا ينبغي ان يستهان بك وان يكون رفيقك في هذا الطريق المظلم أحد الغلمان . . قولي له ان ينصرف وأنا اسير معك »

فارتبكت في امرها وخافت ان يغضب الحسين ويجبر الجدل الى القتال أو الى كشف أمر سالم . وصارت ترتعد من التأثر وهي لا تدري ماذا تعمل فأجابه الحسين برزانة ولطف قائلاً « ان مسيرك معها لا يخلو من الخطر عليك يا سيدي لان حراس المدينة يستغشونك وربما آذوك أو قبضوا عليك » فضحك ضحك الاستهزاء وقال بهمكم « لا . لا يقبضون علي . فأنت لا تعرف من أنا سر بطريقك ودعني . . » قال ذلك ومشى وهو يقود الجواد وراءه وأوماً الى لمياء ان تتبعه فاغضبها عناد سالم ولم تعرف كيف تتخلص من هذه الورطة وهي تتوقع ان يغضب الحسين ويفتضح امرها . فرأته ظل ساكناً فعلمت انه سكت اكراماً لها وصيانة لشرفها لئلا يقال انهم رأوه معها في ذلك الظلام . فتراجعت وقالت لسالم « لا حاجة بي الى من يحرسني وخصوصاً اني صرت على مقربة من السور بالله الارجمت وخليتني أسير وحدي »

فلم يحجبها بل ظل ماشياً وظل الحسين واقفاً مكانه لا يبدي حراكاً . ولم يمشياً يسيراً حتى سمعا دبدبة وقرقرة واذا بكوكبة من الفرسان خارجين من السور مسرعين نحوهما فقالت « لماذا فعلت بنا هذا يا سالم ؟ انني اخاف عليك . . لان الاوامر شديدة في القبض على من كان يرويه خارج السور وانت تعلم ان القوم يطلبونك فلا أحب أن تفتح باباً للقليل والقال . عزمت عليك الا رجعت من هنا . . اركب جوادك الى معسكر والدي . . »

فمظم عليه قولها واستخف بانذارها وقال « انهم لن يدركوا
مني وطراً »
قالت « ولكنهم ربما آذوني بسبب . . بالله ارجع . . ارجع . . رباه
ما هذا العناد ؟ »

الفصل العشرون

الشهامة

والتفت نحو الحسين فلم تره فظنت الظلام حجبته لبعده فوقفت وأعادت
التوسل الى سالم ان يرجع فأبى خجلاً من نفسه ان يفر . فازدادت حيرتها
وقد دهمها الوقت لان الفرسان وهم عشرة اصبحوا على مقربة منها . وتقدم
واحد منهم وصوب سنان رمحه نحوها وقال « من أنتم »
فتصدت لمياه لهم وقالت « اني رسول امير المؤمنين كما تعلمون »
فقال « ومن هذا » وأشار الى سالم

فقالت « أحد فرسان الامير حمدون جاء لمرافقتي في هذا الطريق »
قال « قد ذهبت بالرسالة بلا حارس . . وكيف يحتاج غلام امير المؤمنين
الى من يحرسه في بلده . . وقد يكون هذا الرفيق جاسوساً فلا بد من القبض
عليه » قال ذلك وأشار الى رفاقه الفرسان فأحاطوا بسالم وقد صوبوا الاسنة
نحوه وأمروه أن يمشى أمامهم . وتقدم اثنان ليأخذوا الفرس منه

أما سالم فانتثر منهما وصاح « اخسأوا . لا يقترب مني أحد الا أرديته »
وهم ان يستل سيفه . فصاح فيه مقدمهم وقال « لا تتعب نفسك بالمحال انك
في قبضتنا ولا نريد بك سوءاً وإنما نطلب اليك ان تدخل معنا وتمكث
عندنا الى الصباح فنعرضك على القائد جوهر فاذا أمر باطلاقك اطلقناك
وليس لك وجه آخر »

فوقع الرعب في قلبه وندم لانه لم يصنع لنصيحة لمياء ورفيقها ولكنه

أكبر الرضوخ وهو يخاف ان يكون في القبض عليه خطر على حياته فوقع في حيرة . والتفت الى لمياء لفظة استغاثة فتقدمت نحو الفارس وقالت « ألا تعرفني أيها الفارس ؟ أنا أضمن ما تريدونه . احبسوني مكانه الى الغد وقدموني الى القائد . وأنا المسئول لديه عن هذا الفارس »

فقال « قد كان ذلك ميسوراً لولا ما أبداه من الوقاحة وهو ملثم ويظهر من كلامه أنه من أهل سجلماسة فلا بد من القبض عليه » قال ذلك وأشار الى سالم إشارة التهديد ان يمشي امامهم فقال « لا أمشي .. »

فترجل بضعة منهم وهموا أن يوثقوه ولمياء تتقدم اليهم ان يتركوه ولعلها لو كانت على جوادها ومعها سلاحها لم تبال بهم . ولكنها كانت راغبة في التستر ولغنت الساعة التي جاء بها سالم . وهي في ذلك وعيناها نحو الجهة التي تركت الحسين فيها واذا بشبح يتقدم من تلك الجهة نحوها مسرعاً . فعرفت انه الحسين فلبثت صامته لترى ما يكون وخافت ان يعتمد البحث عن سالم ويكشف وجهه . لكنها رآته حالما وصل الى المكان صاح في الفرسان قائلاً « خلوا هذا الفارس فانه من الاصدقاء » فأجفلوا والتفتوا اليه وقالوا « ومن أنت ؟ »

فتقدم خطوة أخرى حتى صار بينهم وقال « اتركوه أنا أعرفه » فلما دنا منهم عرفوه من صوته فتأملوا وتأدبوا وتراجعوا وتقدم ورئيسهم وتفرس في وجه الحسين وهو ملثم فلم يعرفه وان كان قد عرف صوته . فلما رآه الحسين يتفرس فيه ازاح اللثام عن وجهه وقال « اتركوه » فصاحوا جميعاً « مولانا الحسين بن القائد جوهر ! . انت هنا يا مولانا وابتعدوا عن سالم ورئيسهم بخاطبه قائلاً « أرجو المَعذرة يا سيدي لم أكن أعرف ان ابن قائدنا الاكبر يعرفك » وأكب على يد الحسين يريد تقبيلها وهو يقول « العفو أتنا تجاسرنا .. »

فقطع الحسين كلامه قائلاً « لا حاجة الى الاعتذار فقد فعلتم ما عليكم وستألون الجوائز على سهركم . ولكنني اتفق اني أعرف هذا الفارس

وهو من الاصدقاء فأطلقوا سراحه « واقترب من سالم وهمس في اذنه وقال « ألم أقل لك اني أخاف عليك من حرس المدينة ؟ . لانهم لا يعرفونك ... ولا أنا اعرفك ولكنني صدقت شهادة هذا الرسول . . سر بحراسة الله » ومد اليه يده ليصافحه مصافحة الصديق

الفصل الحادي والعشرون

الفشل

فمد سالم يده وقد غلب على امره وأخذ الخجل منه مأخذاً عظيماً . واستغرب تلك المقابلة وكيف التقى بالرجل الذي كانوا يتحدثون عنه ويدبرون المسكيدة له وخامرته الغيرة من الجهة الاخرى ولم يفهم سبباً لوجود الحسين مع لمياء غير تواطؤهما على ذلك . وكيف يتواطأان على الاجتماع سرّاً في ذلك الليل هناك وهي تزعم انها لا تريده خطيباً لها . فدارت الهواجس في رأسه لكنه لم يستطع غير اظهار الامتنان من محاسنة الحسين وكبر نفسه وخصوصاً لانه لم يسأله عن اسمه ولا طلب منه ان يكشف وجهه فودعه ورجع ولم يصدق انه نجا قبل ان يكشف أمره

وأشار الحسين الى الفرسان فرجعوا الى السور وتقدم الى لمياء وقال « لها افلت صاحبنا بلثامه وهو يعتقد أنني لم أعرفه . وإنما أطلقته اكراماً لك وحرصاً على كرامتك »

فأجفلت من قوله وأرادت ان تغالطه فابتدرها قائلاً « أليس هذا سالماً طلبه امير المؤمنين انهم يبحثون عنه ولو علم والدي بوجوده لبعث الحيوش للقبض عليه ولكنني رأيت فيك ميلاً الى كتمان امره فأطعته وأخليت سبيله رغم ما أبداه من الوقاحة - لا يخامرك شك في أنني عرفته وكيف أجهله وقد رأيت في حربي مع والدك وتبارزنا في سجالسة وفر مني . وها قد نجا الآن من اجلك - ولكنني اتقدم اليك ان تكتمي أمره وأحب أن لا يطلع أحد على ما جرى »

فنظرت اليه نظر اعجاب وامتنان وقالت « لقد غمرتني بفضلك ياسيدي وأشكرك على مروءتك وكرم اخلاقك .. أنها أخلاق كبار القواد . وقد عرفت ذلك لك »

فمد يده نحوها وهو يقول « انها أخلاق المحبين . . أتأذنين لى ان اصافحك وأودعك »

فلم تستطع الرفض بعد ان غمرها بفضلها مع ما أبداه من الاريحية وسعة الصدر وكبر النفس رغم ما كان من عجرفة سالم وخشونته فاحتمل منه الالهانة وصفح عنه وأنقذه من الموت وهو مع ذلك يطلب من لمياء كتمان ذلك حرصاً على كرامتها وكرامة رفيقها . فمدت يدها نحوه وهي لا تبدي غير الاحترام ولكنها شعرت عند المصافحة شعوراً جديداً تمشى في مفاصلها . فأسرعت في جذب يدها منه وأظهرت أنه قد آن وقت انصرافها وأشارت برأسها اشارة الوداع وتحولت نحو المنصورية فودعها هو بقوله « بحراسة الله يا لمياء »

فارقته ومشيت وهي تائهة الافكار من هول ما شاهدته . وقد قدرت مروءة الحسين حق قدرها وأحست نحوه بشيء غير الاعجاب والامتنان - أحست بميل وانعطاف لم تشعر بهما من قبل لكنها غالطت نفسها وكذبت عواطفها لأنها لا تريد ان يكون في قلبها محل لغير سالم حبيبها الاول

دخلت باب السور فوسع لها الحراس لاعتقادهم أنها غلام صقلي من غلمان القصر يحمل رسالة الى امير المؤمنين . وما زالت حتي دخلت القصر وسارت توالى الى غرفتها وقد انقضى معظم الليل . فدخلت الغرفة واقفات الباب وراءها كأنها تفر من شبح يطاردها . فلما خلت بنفسها لم تشأ أن تير المصباح مبالغة في الانزواء والتستر - ولا باعث على التستر وهي في مأمن ولكن هواجسها حدثتها بذلك - وجدت نفسها تحاول عبثاً لأنها تريد الفرار من شعور في داخلها لا يحجبه الظلام ولا تمنعه الاقفال - بل رأت الظلام يضاعف هواجسها ويحجم خوفها . لأنها لم تكذب تقعد على

الفراش حتى تصور لها سالم بأقبح الصور - رأتها دنيئاً غادراً خائناً وقبحاً جباناً ورأت الحسين شهماً فاضلاً واسع الصدر كبير النفس . فاقشعر بدنهما وتوهمت أنهما ارتكبت ذنباً بذلك التصور . لان سالماً حبيهما الاول وقد أحبته وتركت كل شيء لاجله وعرضت نفسها لغضب أبيها والخليفة حباً به فكيف ترى فيه تلك الخسة حتى يحماها على التواطؤ معه لقتل أعظم الناس قدراً وأفضاهم نسباً ومروءة . وتذكرت كيف رجع سالم في تلك الليلة مردولاً بعد ان عرف ان خصمه هو الحسين بن جوهر . وبماذا عساه ان يعال وجودها مع الحسين في ذلك الليل هناك . وراجعت مدار بينهما وبين والدها وأبي حامد من الحديث فاظلم قلبها وودت لو أنها لم تذهب في تلك المهمة

ولكنها صبرت نفسها الى الغد لترى ما يكون وأخذت في تبديل ثيابها طلباً للرقاد .. وكيف تنام وهي في تلك الحال وقد تراكت عليها الهواجس وأحست بصدمة عنيفة زعزعت أوتار قلبها وشوشت أفكارها . وأصبحت لا تجد راحة الا في النوم لعلها اذا أفاقت في الصباح وجدت ما مربها حاملاً مزعجاً - وكثيراً ما يقضي الانسان امثال هذه الاضطرابات في نومه وتظهر له في الصباح اضغاث أحلام . فتوسدت الفراش وتغطت الى فوق رأسها وقضت تلك الليلة في أشد الاضطراب والقلق

أما سالم فلما انفرد بعد رجوعه أحس بصغر نفسه وعظم عليه ما اصابه من الفشل بين يدي خطيبته وخصوصاً مع مناظره عليها . وكان منذ ساعة يحرضها على احتقاره واحتقار والده وخليفته . وزعم أنه قاتلهم على أهون سبيل ليعيد الملك الى والدها فتصير هي الملكة .. وغير ذلك مما دار بينهما وبينهم في تلك الليلة . غير ما أظهرته هي من التفاني في حبه والثقة ببسالته كل هذه الهواجس خطرت له وهو عائد على جواده يمشي الهويناء ويتوهم لفرط خجله ان الحسين يتبعه - وأخذ يفكر في مدار بينهما في ذلك الموقف ويزن أقواله ليرى هل فرط بكرامته وهل له عذر مقبول بذلك الرجوع

البارد ؟ وأخذ يؤول ما قاله او ما سمعه وينتحل الاعتذار ويهيء الاسباب ويقدر العواقب لو انه ظل على جسارته . فاقنع انه أحسن بالرجوع محافظة على كرامة لمياء وانه لو تمسك بقوله واراد تخليصها من أيدي أولئك القوم لا نفضح أمرها وهي قد تقدمت اليه ان يقتصر ويعود

فارتاح عند هذا العذر السفسطي - وكذلك الانسان قد يصدق الحال تبريراً لعماله ورداً لكرامته وحفظاً لمنزلته عند نفسه . ولما اطمأن خاطره من هذه الوجهة عاد الى التفكير في سبب تلك العلاقة بينهما وبين الحسين حتى يصطحبها في ذلك الليل على موعد وتواطؤ . فلما تصور ذلك اقشعر بدنه وهبت الغيرة في بدنه . والغيور سيء الظن ويتعاطم سوء ظنه كلما تعاظم حبه — قد يرى بعض الرجال رجلاً يخاطب امرأة في ريبة فيغار منه وتحدثه نفسه أن يعترضه وقد يسيء الظن به لكنه لا يلبث ان يلتبس عذراً ويحسن الظن . أما اذا كان الخطاب مع فتاة يحبها فانه يبنى العلامى والقصور على ما رآه أو سمعه ويتعاطم سوء ظنه كثيراً ولا يقبل عذراً . وكان سالماً يحب لمياء ويعجب ببساتها وجمالها ويرتاح الى الاقتران بها ولكنه لم يكن يعشقها كما كانت تعشقه هي . وانما صمم على خطبتها لغرض سياسي سيظهر بعد قليل

الفصل الثانى والعشرون

الحقيقة

دخل سالم معسكر حمدون وتجاوز فسطاطه وهو لا يشعر . وكان في عزمه ان يعود الى ذلك الفسطاط ليقص ما رآه على أبيها . فلما شعر إلا وهو بباب خيمة عمه أبى حامد فاراد أن يثني عنان جواده نحو فسطاط حمدون واذا بابى حامد قد خرج من تلك الخيمة وأشار اليه أن يدخل فترجل ودخل . فرأى أباً حامد وحده هناك وقد احمرت عيناه وبان الاهتمام في وجهه . وكان قد تعود أن يرى ذلك فيه اذا طال التفكير في أمر عظيم

فلما دخل ابتدره أبو حامد قائلاً « قد وصلنا ياسالم الى الغرض المطلوب
اقعد » وأشار الى وسادة على البساط فقعد وقعد أبو حامد الى جانبه وهو
يقول له « اين كنت ؟ »

قال « ذهبت لاشيع لمياء الى المتصورية وليتني لم اذهب »

قال « ولماذا ؟ »

فقص عليه ما جرى من حيث وجود الحسين هناك وكيف كان في
انتظار لمياء وقد رافقها على غير كلفة ولم يذكر فشله
فقال أبو حامد « وهل ساءك ذلك ؟ »

قال « كيف لا ؟ وقد كنا منذ ساعة نتحدث في اقناعها أن تقبل به
وهي تظهر انها لا تريد فكيف تكون على موعد منه وترافقه في هذا
الليل »

فضحك ضحكة اغتصائية لا تلتئم مع ما كان فيه من الاهتمام وقال يظهر
انك لا تزال تهتم بهذه الصغائر . . هل يحول ذلك الاجتماع دون غرضنا
الذي اوقفنا حياتنا من أجله ؟ كلا بل هو يهونه علينا ، وخفض صوته وقال
« ام نسيت الغرض الاصيل من علاقتنا مع هذا الامير المغرور ؟ »
فسكت سالم وأطرق كأنه يفكر في حديث دار بينه وبين أبي حامد
من عهد بعيد

فقال أبو حامد « لا انكر ان لمياء فتاة شجاعة وجميلة وهي تجلك .
ولكن هل خطبناها لاتنا لم نجد بين نساء هذه القبائل من يليق بك ؟
انك ستجد خيراً منها . ولا سيما بعد أن نال بغيتنا وتخلص من اولئك
الحاثئين . . كن رجلاً واعمل عمل الرجال . وانظر الى الغاية التي نحن
سائرون اليها . يكفي اننا أقنعنا هذه الفتاة ان تمهد لنا السبيل لقتل ذلك
الرجل وقائده . فاذا قتلناهما لا يبقى لهذا الغلام حظ من الحياة فتكون
لمياء لك وعند ذلك . . . وسكت وهو يتلفت يمينا وشمالا كأنه يحاذر أن
يسمعه أحد وقال « ألا تعلم متى تزوجت لمياء بعد ذلك كنت أنت صاحب
القيروان ؟ »

وكان لابي حامد سلطة عظيمة على افكار سالم . فاذا قال قولا صدقه ولو كان مستحيلا لكنه أحب الاستفهام فقال « وكيف ذلك ؟ »
 قال « ما هو الغرض الذي اوقفت حياتي من اجله ؟ »
 قال « هو الاخذ بثأر أبي عبد الله المقتول ظلماً »
 قال « وهل نكون قد أخذنا بالثأر ان لم نخرج هذا السلطان من أيدي هؤلاء الخونة ؟ »

قال « أنت اعلم »

قال « أنا أقول لك ان عظام أبي عبد الله رحمة الله عليه تناديننا من ظلمة القبر أن نأخذ بثأره ونخرج الملك من أيدي هؤلاء الخائنين . وأنت تعلم أننا كنا ندبر ذلك قبل ان يؤخذ صاحب سجنه أسيراً . وكنت أحسبه رجلاً يعول عليه في العظام فاذا هو ثثار مغرور بنفسه يقول مالا يفعل وليس هو اهلاً لغير الادعاء الفارغ ولا يغرك ما سمعته من اطرائي اجداده ومبالغتي في مدحه .. لو كان رجلاً لما صار الى الاسر واضطر الى طاعة هذا الرجل . وإنما أنا أداجيه لنستخدم ابنته في تمهيد السبيل لقتل المعز وقائده فنجعلها صاحب القيروان . واذا تزوجت أنت بابنته وهو ليس له ذكر يرثه صارت الامارة اليك أو نجعلها اليك قبل موته بما أعدناه من الاحزاب والاموال وسائر المعدات وعند ذلك نكون قد انتقمنا لذلك المقتول »
 ورغم ما غرس في ذهن سالم من مقدرة أبي حامد العجيبة لم يفته ما يحول دون الوصول الى تلك الغاية من العقبات فقال « اسمح لي ياسيدي ان استفهم عن امر . . . »

فقطع كلامه وقال « لا تخف يا سالم اني لا اخطو خطوة قبل ان أقدر ماورءها انك تقول في نفسك كيف تنتهي مهمتنا بقتل ذينك الرجلين وهذه قبائل البربر من كتلمة وصنهاجة وهوارة كلها من انصارها وهم يعدون بمئات الالوف . ونحن ليس عندنا غير رجال صاحب سجنه . . . ان تلك القبائل يا ولدي لم تدعن للمعز الا لتخاذل امرائها وتفرق كلمتهم مع اعتقادهم صحة انتسابه الى الامام علي . وهذا علي تديره . الا يكفيك

اني عالم بهذا الاعتراض ؟ أم انك تخاف أن أسوء التدبير ولا أحسن الحيلة - ألا يكفي هؤلاء الامراء من هذه الغنيمة ان يعود كل منهم أميراً مستقلاً بحكومته وان من يفوز بقتل صاحب القيروان يكون له الحق بامتلاكها ؟ وهي ستكون حصّة صاحب سجلماسة . وهل تظن أهل القيروان يرمون نبلاً علينا بعد قتل خليفتهم ؟ ان رجال سجلماسة معنا وهم اشداء قادرين على أخذ القيروان وان لم يساعدكم أحد من سائر القبائل فكيف اذا ساعدوهم ... »

فازداد اعجاب سالم بدهاء عمه وقال « لله درك من ملك قادر .. انك والله أولى بهذا الامر مني ومن سواي »

فاسرع ابو حامد فوضع كفه على فم سالم يريد اسكاته عنوة وقال « لا تقل ذلك ان هذا الملك مقدر لك هذه وصية اماننا المرحوم وكفى » قال ذلك ونهض وهو ممسك بيد سالم لينهض معه فنهض وقد تهيب وود لو يستريده بياناً لانه مع طول صحبته لم يسمع منه التصريح بالوصاية وأما أبو حامد فقال وهو يصالح علمته « لا حاجة بي ان اوصيك بالاحتياط - حتى الحديث الذي ذكرته عن لمياء والحسين أخفه واجعل انك لم تر شيئاً ، ثم سكت وبان الاهتمام في وجهه وقال « اما انت فلا ينبغي ان تبقى هنا بعد هذه المقابلة لا بد من سفرك الى مصر في صباح الغد باكراً لمهمة مثل التي اتيت منها بالامس ... فتقابل ذلك العبد الاسود اميرها (كافور) وتعقد معه عهداً على هؤلاء الفاطميين فانه يخافهم كما تعلم وسيكون عوناً لنا في تأييد دولتنا مع صاحب بغداد . . اذ لا بد من خلافة ثابتة تتأيد بها دعوتنا . اظنك فهمت مرادي . ولا ينبغي ان يعلم حمدون بهذه المساعي ولا غيرها .. فهمت ؟ .. »

فاشار بعينه انه فهم وهم بالخروج فاستوقفه وقال « لا بد من سفرك في الصباح خلسة فاني أخاف من دسيسة عليك .. »

قال « سأسافر »

ثم وقف أبو حامد فجأة وقد تذكر أمراً هاماً ونظر في عيني سالم

وحدق فيها طويلاً كأنه يستطلع ما يجول في خاطره . فأطرق سالم تهيباً فقال ابو حامد « اخاف ان تكون قد بحت لاحد بما اعدناه في فج الاخيار هناك . هناك في فج الاخيار قوتنا التي سيتم لنا بها الامر فننشيء دولة نخفق اعلامها على ضفاف النيل وضفاف الفرات »

فلما سمع قوله اختلج قلبه في صدره لعلمه انه لم يحافظ على ذلك السر لكنه اسرع الى طمأنته بأنه يستحيل ان يبوح بذلك السر . فhez رأسه وقال « كيف ابوح به وعايه معولنا ؟ . كن مطمئناً »

فصدقه وقال « فاذهب الى فراشك . . ولا تثق بأحد سواي »

فهم بتقيل يده وخرج وظل ابو حامد وحده وقد اصبح بعد هذا الحديث كالجلال الهاج . وازداد احمرار عينيه حتى صارتا مثل عيني المحموم من شدة ما هاج في خاطره من البواعث . فلما خلا بنفسه جعل يخطر بالغرفة ذهاباً واياباً وهو يقضم اطراف شاربيه باسنانه . وقد جعل يديه متصلبتين وراء ظهره وأخذ يناجي نفسه قائلاً رحمك الله يا ابا عبد الله . . قد آن لي أن أنتقم لك من هؤلاء الغادرين . . فج الاخيار . . فج الاخيار في جبل ايكجان . . هناك دار الهجرة التي جعلها ابو عبد الله هجرة الاحزاب التي نصر بها العبيدين . . هي الآن هجرتنا وفيها الاموال التي ضربها أبو عبد الله عند أول الفتح . . هناك قوتنا . . وضحك ضحكة ظافر وقال « أحب أن يبعث ابو عبد الله ويرى نجاحنا . . ولكن . . » وسكت وبلغ ريقه وأخذ في تبديل ثيابه للرقاد

الفصل الثالث والعشرون

الضمير

أما لمياء فانها قضت تلك الليلة وهي تتقلب كأنها على فراش من شوك القتاد ولم يغمض جفناها الا في الفجر فنامت وتوالت عايبها الاحلام المزعجة

واستغرقت في النوم من شدة التعب حتى صار الضحى فأفاقت على قر الباب فاستيقظت مذعورة وتحركت عينيها وتذكرت حالها أمس فأسفت انه لم يكن حليماً . وبادرت الى الباب ففتحته فرأت حاضنة أم الامراء وحالماً وقع بصرها عليها قالت « كيف أم الامراء عساها في خير »

قالت « قد استبطأتك فارسلني في السؤال عنك »

فأحست بوخز ضميرها من ذلك التلطف لعلمها بما دبروه لزوجها من المكائد لكنها تجلدت وقالت « كان ينبغي لي أن أسرع اليها باكراً لكنتي استغرقت في النوم »

قالت « لا بأس يا سيدتي فاني ذاهبة لأطمئنها عنك »

قالت « وقولي لها اني مسرعة لتقيل يدها حالا »

فمادت الحاضنة وعمدت لمياء الى تبديل ثيابها وخرجت تطلب غرفة أم الامراء ولحظت وهي سائرة في الدهليز ان أهل القصر في حركة غير اعتيادية كأنهم يتأهبون لاحتفال . ثم علمت انهم يتأهبون لصوم رمضان فتذكرت انهم دخلوا في شهر رمضان وقد أصبحوا في ذلك اليوم صائمين وصلت غرفة أم الامراء فرأتها جالسة على مقعد . وحالماً دخلت لمياء نهضت لها وهي تبسم كأنها تستقبل بعض أولادها فلم تنالك لمياء من فرط امتنانها لذلك التلطف أن أكبت على يدها تقبلها وقد سبقتها العبرات . فاستغربت أم الامراء بكاءها لكنها ظنتها تبكي لامر يتعلق بخطبتها للحسين وهي انما تبكي أسفاً لما فرط منها في حق الخليفة من المؤامرة فضمتها أم الامراء الى صدرها وقالت « ما بالك تبكين يا بنية ؟ »

فأغرقت في البكاء وغلبت على أمرها حتى لم تعد تستطيع امساك نفسها . فجعلت تخفف عنها وقالت لها « أرجو انك لم تتجحي في مهمتك » وهي تشير بهذه المداعبة الى رغبتها في زفافها الى الحسين

فماسكت وتجلدت وقالت وهي تمسح عينيها « نعم يا سيدتي اني لم أنجح والظاهر ان الله قد أراد ما أراد أمير المؤمنين

فبان السرور في وجه أم الامراء وأجلست لمياء الى جانبها وقالت

« أذلك تبكين يا لمياء ؟ لا ينبغي أن تحزني وسوف تتحققين انك أحرزت نصيباً حسناً . وأحمد الله لانه قدر لك أن تكوني زوجة لهذا الشاب النادر المثال . وبرهاناً على سروري بذلك فاني سأجعل لك مهراً لم تنله فتاة من اهل القيروان لانك عزيزة علينا . ومتي علمت اني سأقوم بتأدية مهرك يطمئن خاطرك انه سيكون مهراً يليق بك . . . وسأجعل امير المؤمنين يهبك قصراً من قصوره الفخمة أفرشه احسن فرش وأملأه بالتحف والجواري بحيث يجعلك تنسي ذلك الرجل الذي كاد يسبقنا الى نيلك »

فلم يزد لها هذا الكلام الا غيظاً من نفسها وندماً على ما فرط منها ولكنها تجلست وقالت « أشكرك يا سيدتي على هذه النعم اني لا أستحق شيئاً من ذلك » وهي تعني حقيقة ما تقوله . ولكن أم الامراء حملت قولها بحمل التواضع فقالت « بل أنت أهل لاكثر منه ولكن لا بد من الانتظار الى انقضاء رمضان لاتنا دخلنا في هذا الشهر المبارك من صباح اليوم وأظن أمير المؤمنين يؤجل الزفاف الى عيد الفطر أو ما بعده وسننظر في ذلك »

فسرها أن يطول أجل الاقتران لعلها تتمكن في أثاثه من تدبير طريقة للتخلص من هذه الورطة . فبان الارتياح في حياها وقالت « اني أمتك ولساني قاصر عن أداء حق شكرك جزاك الله خيراً »

فقالت انما يهمني يا لمياء أن تكوني مسرورة وأحب أن يكون قرانك بالحسين سعيداً لا فرح أنا ايضاً . وقد أخذت اشعر منذ الآن انك صرت من أهلنا وأصبح والدك يفضل سائر امرائنا بحقوق القربى من قائدنا . وأنت تعلمين منزلة جوهر من نفس امير المؤمنين فانه يفضله على كثيرين من آله وذوي قرابته . وسترين في هذا المساء متى جلسوا للافطار عند الغروب كيف يجلسه بجانبه ويقربه اليه دون سائر العبيدين . ولا ريب انه سيقرب الامير حمدون والدك ايضاً اكراماً لك »

فلم تعد لمياء تستطيع سماع هذا الاطراء وودت لو انها تسمع عكسه عسى أن يخفف بعض ما بها من وخز الضمير . فأحبت تغيير الموضوع فقالت

« سندخل الليلة في شهر رمضان جعله الله شهراً مباركاً عليك وزادك من نعمه ومتعك بأبنائك . ما هي العادة في تناول الافطار عندكم ؟ »
 قالت « ان لأمير المؤمنين عناية خصوصية في هذا الشهر . يأمر اصحاب المطابخ باعداد طعام الافطار لاهل القصر فتعد الاسمطة للخليفة وأهله وقواده وأمرائه وسائر رجال حكومته حسب درجاتهم فيأكلون معاً . وتعد الموائد ايضاً للنساء من أهل هذا القصر فأتولى أنا تديره على أيدي الجواري . وستكونين أنت في من يفطر معي وسأجعل مجلسك بالقرب مني لاستأنس بك . وكذلك نفعل في طعام السحور أحياناً وأما أنت فستكونين معي كل هذا الشهر في السحور والفقور . وسأريك في ساعة الغروب كيف تعد الاسمطة وكيف يجلس الخليفة والامراء عليها وسترين والدك معهم »

فشكرت لها فضلها وأحبت الاستئذان في الذهاب الى غرفتها فراراً من ذلك الحديث ولكي تريح دماغها . لأنها أحست بألم في رأسها بسبب ما قاسته أمس من الانزعاج . وزادها حديث أم الامراء انزعاجاً فأظهرت التعب ولم تكن تحتاج في إظهاره إلى تكلف لانه كان بادياً في وجهها وقالت « ألا تأذن مولاتي في انصرافي فقد شغلتها عن شؤونها وأنا أحس بحاجة الى الراحة »

قالت « اني أقرأ ذلك في عينيك وهو طبيعي في مثل هذه الحالة ولكنني ارجو ان تنسي ذلك بعد قليل . . » وصفقت فجاءت حاضنها فقالت « احب ان تكون عزيزتي لمياء في غرفة قريبة من غرفتي . قولي لقيمة القصر ان تهيء لها الغرفة بما تحتاج اليه فانها ذاهبة بعد قليل للراحة فيها »

فأشارت مطيعة وخرجت ولم تفرح لمياء بهذا الاكرام لانها كانت قود البقاء بعيدة على انفراد خوفاً من ان يظهر شيء منها على حين غفلة فيفضح امرها . لكنها لم تجد بداً من الثناء على ذلك الانعام . وبعد قليل جاءت الحاضنة وقالت « ان الغرفة مهيأة »

فنهضت لمياء وودعت . فقالت لها أم الامراء « سنلتقي هنا قبل الغروب » فأومأت لمياء مطيعة ومشيت الى غرفتها الجديدة وهي تعرف طريقها اليها لكنها لا تدري ماذا تعمل . فلما وصلت الغرفة رأتها أحسن أثاثاً وفرشاً من تلك . وفيها مرآة جميلة من الفضة الصقيلة مستديرة الشكل . وهناك منضدة عليها المكحلة والمشط والسواك وسائر ما تحتاج اليه المرأة في اصلاح شأنها . وسريرها من الابنوس وهو مع بساطته ثمين وكل ما في الغرفة ثمين وبسيط على انها لم تنبئه الى شيء لفرط قلقها . وما صدقت انها دخلت الغرفة حتى اغلقت بابها وتوسدت الفراش واستغرقت في الافكار . وقد سرها تأجيل الزفاف شهراً كاملاً اذ يكون لها فرصة للتفكير والتدبير . وأخذت تفكر في استنباط طريقة تريح بها ضميرها . فتبقى هذه النعمة لها وتعرف حق المعز وامراته وفضلهما عليها فلا تخونهما . ومع ذلك تريد ان تحفظ كرامة والدها . وأما سالم فحالما تصور لها خفق قلبها لما تذكرته من امره في أمس وكيف عاد خائباً وما اظهره الحسين من المروءة وكبر النفس في شأنه واحست بانعطاف نحو الحسين - فكذبت نفسها وأخذت في تحويل فكرها عنه وصورته لا تغيب عن مخيلتها كما رأتها في آخر لحظة وهو يودعها ويوصيها بكتمان ما جرى لسالم . وقدرت تلك الاريحية حق قدرها وجعلت تقنع نفسها ان ما نحس به من الانعطاف نحوه انما هو من قبيل الامتنان لانها لم تكن تريد بدلاً من سالم وهو أول من طرق حبه قلبها وهي صغيرة . تسرب حبه اليها تدريجاً لانهما تعارفا منذ الصغر فلم يأتها الحب دفعة كما اصابها هذه المرة . ولذلك لم تقنع ان شعورها نحو الحسين من قبيل الحب الذي لا يابث ان يتمكن . وخصوصاً انها اصبحت تنتظر ساعة الافطار بفارغ الصبر لكي تراه جالساً على السباط في جملة الجالسين كما قالت لها أم الامراء

الفصل الرابع والعشرون

افطار رمضان

على ان التعب غلب عليها فنامت واستغرقت في النوم . وما أفاقت الا على اصوات المؤذنين في العصر فنهضت واصلحت من شأنها ونظرت الى وجهها في المرآة فاذا هي قد امتقع لونها قليلا وذبلت عيناها . فأحبت ان تتشاغل عن تلك الهواجس فخرجت لملاقاة أم الامراء فرأتها في انتظارها فهشت وسألها عن صحتها . فقالت انها في خير فأشارت اليها ان تتبعها لتطلعها على ما يعدونه من السمطة الافطار . فمشت معها حتى دخلتا روشناً يشرف على ساحة بعيدة الاطراف في جانب الحديقة قد نصب فيها سرادق كبير وأخذ الخدم في مد السمطة والموائد . فأشارت اليها أم الامراء فقعدت على مقعد أمامه ستر فيه منافذ صغيرة تأذن للجالسين هناك في رؤية كل حركة في تلك الساحة بدون ان يراهم أحد من اهلها . وقعدت أم الامراء الى جانبها وجعلت تقص عليها ما تعودوه في الافطار . وهي ترى الخدم يهيئون السمطة على شكل خاص . اعلاها في الصدر سباط يسع بضعة عشر رجلاً يجلسون على الوسائد حوله وقد وضعت عليه انواع الاطعمة والاثمار . ونحو ذلك في السمطة أخرى بين يدي ذاك هنا وهناك . وعليها الاطعمة من اللحوم والافاويه وقد تصاعدت عنها روائح البهارات وغيرها . وما زالت رائحة الند المحروق في اطراف الحديقة غالبية على سواها حتى تكامل وضع اطباق الطعام فتغلبت رائح الاطعمة وبهاراتها . واشتغل جماعة من الخدم السود في انارة المصاييح المعلقة باعمدة السرادق . وأما الصقالبه البيض فأكثر اشتغالهم في حمل اطباق الاطعمة . ووقف جماعة منهم يحملون الاباريق الفضية والاقداح الزجاج حول السمطة يسكبون الماء لمن يريد حسب الطلب

أعد كل شيء قبل الغروب ولمياء تتشاغل برؤية الخدم يذهبون ويحيئون في ترتيب تلك الموائد وهي صامته . رشاركتها أم الامراء بالصمت ثم قالت « اذا شئت ان نذهب الى مائدتنا هلمي اليها فانهم يعدونها كما يعدون هذه » فأظهرت انها تفضل البقاء هناك حتى يجلس الخليفة والامراء على الطعام ثم تنصرف فأطاعتها . وبعد قليل أصبح أهل الحديقة في هرج واهتمام يتسابقون الى التأدب في موافقهم استعداداً لاستقبال أمير المؤمنين . ثم اطل الخليفة ماشياً الهويناء وبجانبه القائد جوهر . ووراءها ابنه الحسين ثم اولاد الخليفة وأهله . ثم جماعة الامراء والقواد فتفرقوا الى مقاعدهم على الوسائد حول الاسمطة . فجلس المعز في صدر السباط الاول وأوماً الى جوهر ان يجلس الى يمينه ونادى الحسين فأجلسه بجانب أبيه . ثم جلس ابناء الخليفة وأهله حول ذلك السباط . وجلس سائر الامراء والقواد حول الاسمطة الاخرى . وبعد قليل عات اصوات المؤذنين فأخذ القراء يتلون الفاتحة وضج الميكان بتلاوتها . وجعلت لمياء تنفرس في الوجوه فرأت والدها في جملة المدعوين وقد دعاه المعز الى اقرب الاسمطة اليه وهو يبش له ويرحب به . وظننت أم الامراء ان لمياء لم تنتبه الى ذلك فقالت لها « هذا والدك قد جاء . . ويسرني ما أراه من اكرام امير المؤمنين له »

وكانت لمياء مشغلة الخاطر بالتفرس في الوجوه ولا سيما في وجه الحسين . وكانت حالما وقع نظرها عليه خفق قلبها وتصاعد الدم الى وجهها رغم ارادتها . ومع رغبتها في رؤيته وانها أتت الى هناك لترآه فلما أحست بخفقان قلبها ندمت وحولت نظرها عنه واخذت تغالب عواطفها ونهضت وأظهرت انها مستعدة لمرافقة أم الامراء الى مائدتها متى شاءت . فأظهرت تود البقاء هناك وقالت هذا الحسين أراه جالسا بجانب والده ان هذا المنظر يغني عن الافطار . كيف انت ؟ « قالت ذلك على سبيل المداعبة . فسكت لمياء وصبغ الحياء وجهها ولم يصبغه الحياء بل الارتباك ايضاً . ولم تجد سبيلا الى اخفاء عواطفها الا بالتحول من ذلك المكان فأطاعتها أم الامراء

فتحولتا الى قاعة مد فيها سباطها الخاص فجلست اليه واجلست لمياء الى جانبها وتناولتا الافطار على نحو ما وصفناه من افطار الخليفة وامرائه ولحظت أم الامراء ان لمياء تسرع في تناول الطعام وهي ساكنة والاهتمام باد في عينيها فأدركت انها تود الرجوع الى الروشن فاختصرت في الاكل حتى اذا فرغت منه قالت لها « هلم بنا الى الروشن لنسمع ما يدور من الحديث هناك »

الفصل الخامس والعشرون

حديث الزفاف

فهضت ومشيت معها وتناست ندمها - وانما سيقنا الى هناك بدافع لا سلطان للعقل عليه فيأتيه الحب رغم ارادته وقد يرتكب في سبيل ذلك اموراً يوجب نفسه عليها ولا يرى مندوحة له عنها - فعدتا فرأنا الاسمطة قد رفعت وانصرف معظم المدعوين وجلس من بقي منهم بين يدي المعز وفهم جوهر وحمدون والحسين . وقد جلس حمدون بقرب جوهر وهما يتجادلان كأعز الاصدقاء . ويتخلل حديثهما ضحك وتودد . فأصاحت لمياء بسمعتها لتسمع ما يدور . فسمعت الخليفة يقول لابيها « قد سرني ما تجد يدتنا من روابط القرابة بخطبة لمياء الى ابن قائدنا وانهما لنسم العروسان . وسرور أم الامراء لا يقل عن سروري وهي تود ان تختص عروسنا لمياء بالتفات هي أهل له وستؤدي لها المهر عن قائدنا . وسنسوقه اليكم قريباً . وسنخص العروسين بقصر من قصورنا فيكونان مثل بعض اهلنا »

فاسرع جوهر الى مقابلة هذا الانعام بالتهوؤ ثم اكب على يدي المعز ليقبلهما علامة للشكر فمنعه المعز وقال « ان الحسين ابنتنا ولمياء بنتنا لا موجب للشكر وانما يهمننا ان يكون زفافهما سعيداً مباركاً »

فقال حمدون وهو يظهر الامتنان « ان نعم مولانا فوق ما نستحق ويكفي شرفاً لنا ان يكون ذلك العقد على يده . فهو لا شك يكون مباركا

وزيد بركة اذا تنازل مولانا بحضور حفلة الزفاف . وان كان ذلك مما لا يطمع فيه أحد ولكني تجرأت عليه لما ظهر من تلمظ المولى في محاسنتنا» فلما سمعت لمياء هذا القول أكبرته وخافت ان يكون ابوها قد تطوح في طلبه الى ما لا يمكن الاجابة عليه . ورأت مثل هذا الاستغراب من جوهر ايضاً . اما المعز فابتسم وقال « ان ذلك هين علي ولا مانع عندي منه . لان قائدنا جوهر اهل لما هو فوق ذلك . وانما أخاف ان يكون فيه ثقله عليكم » فترامى جوهر على ركبة المعز وقبلها وهو يقول « قد غمرني امير المؤمنين بفضله واحسانه . وكان الامير حمدون قد خاطبني بهذا الامر ف أجسر على عرضه والتماسه فكان هو أحسن مني تقديرًا لظف امير المؤمنين فأسرع حمدون الى الكلام قائلاً « لم أقل ما قلته إلا وأنا أعرف منزلة القائد جوهر عند مولانا اعزه الله . وقد جرأني على ذلك ان امير المؤمنين جعل نفسه بمنزلة والد الحسين وخطب له جاريته ابنتنا لمياء . فسبق الى ذهني انه لا يرفض طلبنا ولا شك فان ذلك تنازل كبير منه . اما ما اشار اليه من الثقل علينا فأني ثقله فيه ونحن لو مشينا على رؤوسنا بين يديه لا نكافئه على انعامه »

فكانت لمياء تسمع هذا الحديث وقلها يطفح سروراً لما توسمت فيه من تغير رأى والدها في المعز فظنته يعدل عن الفتك .. ولما تصورت ذلك اعترضها شبح سالم كأنه يوبخها على رضاها بالحسين دونه . لانها اذا تم الزفاف بلا فتك صارت عروساً للحسين فارتبكت في تفكيرها ولبثت صامتة وافكارها تائهة وام الامراء تراعي حركاتها فلاحظت ارتباكها لكنها لم يخطر لها ما كان يحول في خاطرها

ولما فرغ حمدون من قوله اجابه المعز وهو يتسم قائلاً « ان ظنك في محله ايها الامير . ولكن قائدنا لم يعرف حقيقة منزلته عندنا - اتنا سنحضر حفلة الزفاف معه ولا بد ان يكون ذلك في معسكركم حيث تقيم العروس قبل زفافها الى عريسها » وسكت ...

فأجاب حمدون اينما كنا فنحن في ظل امير المؤمنين . وليس لاحد

منا معسكر ولا قصر الا من نعمه . واذا تنازل المولى بأن يكون ذلك في ظاهر المنصورية اريناه عادة السجلماسيين في الاحتفال باعراسهم . وسيجري الفرسان هناك في حلبة السباق ويلاعبون على ظهور الخيل . ولعله يسر أن يرى رجاله وعبيده يتسابقون على الافراس بين يديه . ولو كان في المنصورية متسع لهذه الالاعاب او لو امر سيدي بذلك فاننا مطيعون »

قال المعز « بل نذهب الى معسكركم ونشاهد احتفالكم . اني كثير الشغف برؤية الفرسان يتسابقون ولا سيما فرسان سجالمة المشهورين بالفروسية والمهارة في ركوب الخيل . فمتي ترى ان يكون ذلك ؟ » فقال حمدون « ليس لاحد منا رأي فان الامر في ذلك لمولانا » فنظر المعز الى جوهر كأنه يستشير به فبادر الى الجواب قائلاً « الامر لمولاي »

فقال المعز « اما وقد دخلنا في شهر رمضان المبارك فلا ارى ان يتم الزفاف قبل انقضائه . فنجمعه في عيد الفطر تبركاً به ويكون احتفالنا بالزفاف في جملة احتفالنا بالعيد »

فبان البشر في وجهي حمدون وجوهر عند هذا الاقتراح وأخذوا في تنميق عبارات التثناء أما لمياء فلم يكن ذلك جديداً عليها وكانت قد سمعته من ام الامراء ولحظت من خلال تلك الاحاديث ان المعز عمل بما اوحته اليه امرأته فتأكدت حينئذ اهتمامها بأمرها وشدة حبها لها . والتفت اليها لفتة ملؤها الامتنان والشكر . ففهمت ام الامراء من تلك اللفتة ما لا تقوى اللسنة على بسطه . وكان جوابها انها ضمتها الى صدرها وقبلتها فأكبت على يدها لتقبها فمنعتها وقالت « أكدي يا بنية ان فرحي بتمام هذا الامر يكفيني . . . ولكنهم اطلالوا اجل الاقتران أليس كذلك ؟ . . » قالت ذلك على سبيل المداعبة

فأطرفت لمياء حياء فابتدرتها ام الامراء قائلة « اعني انهم اطلالوه على او على الحسين . . ألا تريه ساكتاً مطرقاً لا يكلم أحداً . . أكدي اني أعد هذا الشاب من أولادنا وأنت ابنتنا . . ولذلك لا أرى أن يأخذوك

الى بيت أليك الا قبل الاقتران بيضعة أيام . . أريد ان اشبع منك . . .
وكانت لمياء في اثناء ذلك قد عادت هواجسها اليها وأصبحت شديدة
الرغبة في ملاقاته والدها لترى هل تغير رأيه وعول عن الفتك بعدما لاقاه
من اكرام المعز او هو يقول ما قاله مداجة . لكن سبق الى ذهنها انه
يظهر ما يعتقد انه الصادق الحر لا يقدر أن يتصور نفاق الكاذبين . ثم
هي من الجهة الاخرى يشق عليها ان تقبل بالحسين وتعد ذلك خيانة فضلاً
عن داعي قلبها . وهي في ذلك رأت الخليفة يتحضر للنهوض وقد نهض
الجلوس واستأذنوا في الانصراف . ونهضت ام الامراء ومشيت لمياء معها
وهي تود ان لا تعود الى محادثتها بشأن ذهابها الى ابيها لانها تحب أن
تترك الامر للتقدير لترى ما يكون في اثناء رمضان . وتحب ان تخلو بنفسها
بعدما تقرر لتفكر في امرها وتحل هذه المشكلة حلاً معقولاً

الفصل السادس والعشرون

المناجاة

ودعت لمياء ام الامراء وذهبت الى غرفتها وهي غارقة في بحار
هواجسها . ولم تكد تخلو بنفسها حتى طرق ذهنها فكر احست بارتياح اليه .
وذلك انها قابلت بين ما دار بينها وبين والدها أمس في فسطاطه بحضور
أبي حامد وما ظهر منه بين يدي المعز في هذا المساء فوجدت فرقاً كبيراً .
فتبادر الى اعتقادها ان أبا حامد هو الذي حرصه على الفتك بالخليفة وانه
لو ترك لنفسه لم يرض بذلك . وتذكرت ما تعرفه من ظواهر هذا الرجل
في اثناء اقامته بسجلماسة وما كان يسر اليها سالم احياناً من الاغراض
السياسية التي يرمي اليها . فترجح لديها ان أبا حامد هو علة المفاسد وانها
لو انفردت بأبيها وباحثته في امر المعز لاقعته أن يرجع عن عزمه .
فارتاحت لهذا الفكر . لكنها لم تكد تشعر بالراحة حتى تصورت انها
تصير عند ذلك زوجة للحسين تقيم في المنصورية . . وماذا تفعل بسالم ؟

فوقف ذهابها عند هذه النقطة فرأت عدول أبيها عن الفتك بالمعز بحرمها من سالم وهي تحبه ولا ترضى عنه بدلا

فاخذت تخاطب نفسها قائلة « ما العمل اذا ؟ ارضى بقتل المعز وهو سلالة فاطمة الزهراء وصاحب الفضل الاكبر علي وأسلم بقتل جوهر القائد العظيم ؟ وهب انى رضيت فهل تغلح هذه المكيدة ؟ ألا يعقل ان تعود عاقبتها وبالا علينا ؟ بأي شيء نحارب جند الخليفة ؟ كيف نحارب الحسين - ذلك الشهم صاحب المروءة ونقتله ايضا ؟ ما هو ذنبه ؟ بل ما هو ذنب الخليفة وقائده ؟ انها مكيدة ملؤها الخداع والغش - كيف ترضين يا لمياء بهذه الرذيلة ؟ . يكفي ما أراه من كرم اخلاق هذه المرأة التى تحبني محبة الوالدة - اأرضى ان اكون وسيلة لسقوطها - انا افعل ذلك ؟ كلا.. كلا.. انى إذا قائلة خائنة . واحرم من حبيبي . . ماذا افعل ؟ اطلع ام الامراء على سر الامر ليتحذروا منه ؟ عند ذلك أكون قد عرضت سالماً للقتل وعرضت والذي ايضا للموت . . هل اسمح بقتل والذي وحبيبي ؟ كلا . . ويلاه ما هذه المشكلة التى لا حل لها ؟ »

وكانت جالسة على الفراش تفكر في ذلك وعيناها شاخصتان الى نور المصباح فلما وصات الى هذا الارتباك نهضت كالواثبة وقد هاجت اشجانها وأخذت القلق منها . وجعلت تتمشى في الغرفة وتعيد النظر في المسألة طرداً وعكساً فلا تجد لها حلاً إلا بارتكاب الخيانة أو القتل فضلاً عن محاربة العواطف وهي اشد وطأة من كليهما

قضت في التفكير ساعة او ساعتين حتى ملت التردد واغلق عليها الامر فوقفت تجاه المرأة فرأت ما اصاب سحنها من التغيير لفرط التفكير فقالت « انى أرى لمياء في هذه المرأة غير لمياء في مرآة أبيها بسجلماسة . ويلاه ما كان اغنائي عن هذه القلاقل بل ما اغنى اهل القيروان عن هذه السحنة العائدة عليهم بالشؤم والخراب . . هل العيب في المرأة وهي التى غيرت لمياء ؟ لا ذنب لها انها ترى وجهي كما هو . وانما العيب في . . بل العيب في من شوش افكاري وأدخل القلق على قلبي - كان الاولى بي ان ابقى على

رفض هذا النصيب وليتسابق هؤلاء الى القتل على غير يدي . هل اقدر على ذلك الآن ؟ بأي لسان اقوله ! وبأي وجه أقابل ام الامراء . هل ابوح لها بسري وأستشيرها في امري ؟ لا اقدر .. ويلاه ياربى ماذا افعل ! وتحولت عن المرأة الى السرير واستلقت عليه وقد اظلمت الدنيا في عينيها فلم تجد لها فرجاً بغير البكاء فاطلقت لنفسها العنان فيه وأغرقت في البكاء حتى كاد يغمى عليها وصارت تشهق وتتدب نفسها .. ثم عادت الى المناجاة فقالت « إلهي قد لدي الموت خذي اليك .. هل اقتل نفسي وأخلص من هذه الحياة ؟ ان موئى احسن حل لهذه المشكلة فينجو المحسنون إلي من القتل وأتخلص من التردد القبيح . ولكن هل اقتل نسي يدي ! .. لا . لا . بل الافضل ان افر من هذا المكان الى حيث لا يراني احد حتى تأتي ساعتى .. لمياء ! لمياء ! انت راعية الحصان . تلاقين الاعداء في حومة الوغى وترزخين تحت هذه الاوهام ؟ بل اعود فرفض الحسين وأعتذر له اني لا اريد الزواج .. كيف افعل ذلك ! مسكين الحسين انه ذو فضل ويظهر انه احبني .. آه يا سالم يا حبيبي . كيف أموت أو أفر وأتركك ! .. بارزت الفرسان واستقبلت النبال في ساحة القتال فلم اجد اصعب مراساً من الحب انه يملك ناصية القلب .. ويلاه هل في الدنيا فتاة أشقى حالا مني ! .. »

ثم سكنت وكأن البكاء خفف مصابها وقشع السويداء عن عينيها وتذكرت ان لديها شهراً كاملاً لاعمال الفكرة فقالت « فلنصبر ان الله مع الصابرين » وذهبت الى فراشها وقد أخذ التعب منها مأخذاً عظيماً

الفصل السابع والعشرون

المراوغة

أما حمدون فانه خرج من قصر المعز بعد العشاء وقد أدهشه ما رآه هناك من الابهة والعظمة واكبر الاقدام على تنفيذ تلك المكيدة ولا سيما

بعد الذي لقيه من الاكرام والمؤانسة من الخليفة وقائده وسائر امرائه وأحس بخطارة الامر الذي هو مقدم عليه . فقضى مسافة الطريق الى معسكره وهو يفكر في ذلك - وتحريض أبي حامد لا يزال غالباً على عقله فوصل خيمته وهو يحب الخلو بنفسه ليعمل فكرته ويرجع أحد الوجهين ولم يكد يستقر به الجلوس حتى جاء أبو حامد وحالما وقع نظره على حمدون استطلع ضميره وكشف عما يجول في خاطره فأراد أن يتحقق ظنه فقال « كيف لقيت امير المؤمنين ؟ »

فاجابه وهو يحاول اخفاء ما يجول في خاطره « لقيته كما اعهد وكما تعهد انت »

فلما رآه لم يستغرب منه تلقيب المعز بامير المؤمنين توهم صدق فراسته فيه فقال « اعنى هل لقيت منه انساً »

قال « لقد جاملنا وآنسنا واكرم وفادتنا ووددت لو انك كنت معنا » قال « أنا أعلم اقتدار هذا الرجل وسعة صدره ولولا ذلك ما تمكن من التغلب على سائر الامراء حتى سمي نفسه أمير المؤمنين »

قال « صدقت . انه واسع الصدر كبير العقل ورأيت منه انعطافاً خصوصياً لانه أصبح يعدني من أهله . ورأيت قائده ايضاً مثله » فتضح أبو حامد وقد ترجح ظنه في تغير عزمه وقال « اظنك ادركت الليلة خطارة الامر الذي نحن عازمون عليه .. »

قال « قد ادركت ذلك من قبل .. ألم تكن أنت مدركه ايضاً ؟ »

قال « كيف لا وقد دان لهذا الرجل الامراء والقواد واصبح صاحب الكلمة النافذة ؟ ان تنفيذ ما عزمنا عليه لا يخلو من الخطر طبعاً »

فاستمسك حمدون بهذا التصريح وتوهم ضعف العزيمة في أبي حامد فقال « هل ترى الخطر يربو على الامل بالنجاح ؟ . »

قال « أراه اضعاف اضعافه ولكن ما العمل وقد رأيتك عازماً على استرجاع مجدك حتى فضلت الموت على التسليم » فجعل السبب في تدبير المكيدة رغبة حمدون في استرجاع ملكه

فهان على حمدون الانسحاب بنظام فقال « لكن الرجل العاقل ينبغي ان يقدر العواقب ويعمل بالرأي السديد وما لا يستطيعه اليوم قد يستطيعه غداً »

فتحقق أبو حامد ما توهمه في صديقه من ضعف العزيمة فعمد الى استطلاع ما دار في تلك الجلسة وهل اقبل الخليفة ان يحضر الاحتفال بالزفاف في معسكرهم فقال « هل وافقك على ان تزف لمياء من معسكرنا ويكون هو حاضراً ؟ »

قال « لم أطلب منه طلباً الا وافقني عليه وقد وافق على هذا وأكثر منه . ولذلك قلت لك انه جاملنا وأحسن وفادتنا . وهذا ما غير رأيي فيه » فعمد أبو حامد الى المداهنة فقال « بارك الله فيك . . ان المصلحة مشتركة بيننا فاذا كنت قد رأيت ما أراه أنا أيضاً من الخطر في هذا العمل الآن واحببت ان تؤجله فاني اوافقك على تأجيله - ولكل اجل كتاب »

فانطلت حيلة ابي حامد على حمدون وصدقه فقال « يعجبني حزمك وتعقلك فأنا أرى التأجيل اقرب الى الحكمة ريثما تتمكن من فرصة أبرك من هذه »

وكان ابو حامد لا يزال واقفاً يتشاغل في تدبير مكان يجلس عليه . فلما سمع قول حمدون ابتسم واطهر الارتياح وجلس الى جانبه ووضع يده على ركبته وقال « ولكن الا ترى صعوبة في تغيير فكر لمياء ؟ »

قال ان لمياء اكثر رغبة منا في العدول عن قتل الخليفة ولا سيما بعد ان تبرع بان ينوب هو وامراته عن العريس في تقديم المهر ولا بد ان تكون أم الامراء قد اخبرت لمياء بذلك وهو يزيد لها تعلقاً بها . . بالحقيقة ان المعز وامراته قد بالغتا في مجاملتنا واكرامنا .. اظنني لم اخبرك بما عزمنا على تقديمه من المهر .. »

فقطع ابو حامد كلامه وهو يروغ كالثعلب وقال « أظنها وعدا بمال كثير وبعوض الحلى الثمينة »

فضحك حمدون وقال بلحن الفائز المعجب « المال والحلي ؟ .. ان أم
الامراء ستقدم للعروس أحسن ما يرجى تقديمه لمثلها من الاثاث والحلي
والثياب وستملأ بيتها من الجواري والخدم وو .. »

فقال ابو حامد وهو يظهر الاستغراب « والخدم أيضاً والجواري ؟ »
فابتدرة حمدون وهو يقول « وفوق ذلك ان الخليفة نفسه سيهديها
قصرأ في المتصورية تقيم فيه مع عريسها .. وسيعدها من أقرب الناس اليه »
فقال ابو حامد وهو يهز رأسه ويرفع حاجبيه استغراباً « ان مثل هذا
الرجل لا تقدم النفس على أذيته .. صدقت .. ولكن .. »

فسبقه حمدون الى الكلام قائلاً « ولكن لمياء عالقة القلب بسالم واذا
تم اقترانها ربما تنقص عيشها .. »

فاظهر ابو حامد التألم من فكر خطر له كأنه ابن ساعته وقال « سالم !
سالم ! دعني من سالم أنه لا يليق بلمياء وهي لو علمت بما فعله لكرهته .
حتى أنا مع انه بمنزلة ولدي فقد كرهته »

فاستغرب حمدون كلامه وقال « وكيف ذلك ؟ »

قال « أتعلم أين سالم الآن ؟ »

قال « كلا .. أليس هو هنا ؟ »

قال « لا أعلم مقره . ولكن يظهر انه فر من هذا المعسكر .. أظنه

خاف مغبة الامر الذي اقدمنا عليه ففضل الفرار »

قال حمدون « لا أظنه يفر وهو رجل باسل »

فقال ابو حامد « لا يليق بي ان اكشف عيبه لكنني لا ينبغي لي

أن اكتمك امراً بعد ما علمته من صداقتي واخلاصي وأنا أغار على لمياء

واجل مناقبها فلا أغشها .. » وتحنح كأنه يستنكف من التصريح بذلك

الامر الفظيع

فقال حمدون « ماذا جرى ؟ »

قال « أتذكر خروج سالم مساء أمس في أثر لمياء ليرافقها الى

المتصورية ؟ »

قال « نعم أذكر أنه أراد أن يرافقها فتقدمت إليه أن لا يفعل »

قال « ليته لم يفعل .. لكنه أصر على الذهاب فعاد بالفشل والعار »

قال « وكيف علمت ذلك ؟ »

قال لانه عاد الي في آخر الليل وقص علي ما لقيه وحاول اخفاء الحقيقة

لكنني قرأتها من خلال حديثه »

قال « ماذا عمل ؟ »

قال « ذهب في أثر لمياء فوجدتها مع رجل عرف بعد ذلك انه

الحسين بن جوهر وكان في انتظارها حتي يسير في خدمتها الى مأمنها . فانكر سالم عليه ذلك وأمرها ان تتركه وتسير معه ففعلت . فلما اشرفوا على المنصورية خرج عليهما الحراس وكادوا يقبضون عليه ويسوقونه الى

السجن لو لم يبادر الحسين الى انقاذه . فعاد والفشل يقطر من اردانه . وشفع ذلك الفشل بالكذب فاقتضب الحديث ولم يذكر فشله . ولكن

أبا حامد لا تتطلي عليه هذه الالاعيب . فوبخته على جبنه فغضب وخرج من عندي ولعله فر خوفاً من غضبي .. ولو قتشت عنه في المعسكرين لم تقف

على خبره . . » قال ذلك بلحن الصدق وهو يظهر الاسف على ما جرى فصدق حمدون كلامه وقال « لله درك انك تطلع على خفايا القلوب

فلا أعجب من اطلاعك على سر سالم . ولكنني لم أعهد فيه شيئاً من ذلك قبلاً »

قال « هذا هو الواقع ولعلك لو سألت لمياء عن هذا الامر لصادقت

عليه وربما صرحت هي بالعدول عنه لانها شهدت فشله بنفسها »

قال « غداً نبعث اليها ونستطلع رأيها »

قال « حسناً تفعل وأنا واثق انها توافقك على ما ذكرت . وعند ذلك

تتحول مهمتنا الى ما هو اقرب لخير لمياء ونترك امر الانتقام حتى تسنح لنا فرصة اخرى . وقد نرى من الحكمة السكوت عن هذا الامر بالكلية اذا

رأينا القوم يعرفون قدرك ولا يبخسونك حقك »

الفصل الثامن والعشرون

رأي لمياء

فارتاح بال حمدون الى هذا الرأي وهو على ثقة من رضى لمياء وقد عزم على اقناعها به .. فبات تلك الليلة وهو يحلم بما سيكون له من المنزلة الرفيعة بعد تلك المصاهرة ونسي انفة آل مدرار وعز سلطانهم ! والحقيقة انه لم يفطن لذلك العز لو لم يحرضه عليه ابو حامد الداهية . وأما حمدون فقد علمت ضعفه وسرعة تقلبه وانه انما كان يساق الى طلب الانتقام بتحريض صاحبه هذا . فلما رآه قد وافقه على السكوت والرضى بالخضوع فرح وبات تلك الليلة مطمئناً وعزم على ان يبعث في استقدام لمياء اليه ليشرها بذلك الرأي الجديد

وأيقظه الغلام للسحور قبل الفجر . ولم يكذ يفرغ من سحوره حتى أتاه الحاجب ينبئه بقدوم رسول من صقالة القصر فاذن بدخوله فاذا هو لمياء متكررة فرحب بها وقبلها وقد توسم القلق في عينيها فعلم انها مبكرة اليه بشأن ما كان فيه أمس فابتدرها قائلاً « أراك مبكرة يا لمياء »

قالت والدمع يترقرق في عينيها « اني لم أذق مناماً في هذا الليل »
قال « ولماذا ؟ »

قالت « أسمح لي أن أقول ما في خاطري ؟ »
قال « قولي .. ولكنني أحب ان تسمعي ما أقوله أنا قبلاً »
قالت « تفضل »

قال « قد كنت في مثل قلقك أمس ولكنني اهتديت الى حل جميل ارتاح له خاطري »
قالت « وما هو ؟ »

قال « هل علمت اني تناولت طعام الافطار أمس في قصر أمير المؤمنين ؟ »

فلما سمعت قوله « امير المؤمنين » استبشرت وقالت « نعم علمت وقد سمعت ما دار بينك وبين الخليفة والقائد »

قال « هل علمت بما عزم عليه الخليفة من اكرامك بالمهر ؟ »

قالت « سمعت .. امثل هذا الرجل ي ... »

فقطع كلامها قائلاً « دعيني أتم حديثي ... ان ما لقيته من ذلك الاكرام وما آنسته من سعة صدره وطيب عنصره وحب أم الامراء لك قد أثر في كثيرًا »

فابرت اسرتها وضحكت والدموع تتدحرج على خديها من الدهشة وقالت « هل أثر فيك ذلك ؟ . هل يليق ان ؟ . »

قال « اسمعي .. اني وجدت الامر الذي كنا قد عزمنا عليه خيانة لا تليق بنا »

فلم تمالك عن الاسراع الى يده فتناولتها وأخذت تقبلها ودموع الفرح تتساقط من عينيها وقالت « الحمد لله .. قد فرجت كربتي .. صدقت يا ابتاه ان امير المؤمنين لا يستوجب هذه الخيانة ولو عرفت مقدار حب أم الامراء لي لازددت حرصاً على حياتهما .. بالله قل هل عدلت عن عزمك ؟ »

قال « رجعت عن مائدة المعز وأنا احدث نفسي بذلك وكنت أحسب أبا حامد لا يوافقني عليه فوجدته أشد رغبة مني فيه . لانه رأى ما رأيته وأنت تعلمين ذكاء هذا الصديق وتعقله »

فتضاعف استغرابها لانها لم تكن تتوقع هذا الفرج المزدوج وكانت عازمة على تحريض أبيها ان يوافقها ولو خالف أبا حامد . فلما رأت أبا حامد موافقاً له على العدول انبسطت نفسها وتوالت الدهشة لهذه المفاجأة فقالت « وقد وافقك أبو حامد على العدول أيضاً .. ؟ »

قال « وليس ذلك فقط لكنه خلصنا من أمر آخر يتعلق بسالم »
فلما سمعت اسم سالم انقبضت نفسها لتذكرها المشكل الذي لم يجد له

حالا أمس . فقالت « وكيف خلصنا من أمر سالم . أين هو الآن ؟ »
 قالت ذلك وقد صبح الحياء وجهها وعلاء قلق واضطراب
 فقال « نعم انه انقذنا من مشكل عظيم . وقد سألت عن سالم أين
 هو .. انه ليس هنا .. وقبل ان أقول شيئاً بشأنه اسألك سؤالاً ارجو ان
 تصدقيني فيه »

قالت « وما هو ؟ »

قال « لما لحق بك سالم في تلك الليلة ما الذي جرى له ؟ »
 فتذكرت وصية الحسين بالكتمان وهي تضمن بسالم ان يهان فقالت
 « ماذا جرى له ؟ لم يجز له شيء »

قال « اصدقيني .. اني قد اطلعت على فشله وجبنه فلا تكري شيئاً »
 فاستغربت تصرّحه وقالت « من قال ذلك ؟ لم يكن معنا أحد سوى
 الحسين وهذا لم يقص عليك الخبر »

فقال « ما ادراك أنه لم يقصه علينا ؟ »

قالت « لانه أمرني بالكتمان »

قال « لماذا أراد كتمان الواقع ان لم يكن في ظهوره عيب على سالم ؟
 قولي الصدق »

فلم تطعمها نفسها على الانكار فقالت « انه أساء التصرف مع الحسين
 لانه لم يكن يعرفه .. ولكن من قص عليك الخبر ؟ سالم ؟ »

قال « لا . ان سالمأ خجل من قول الصدق ولكن أبا حامد قصه علي
 أمس وقد استطلعه بفراسته ووبخ سالمأ عليه حتى اغضبه وخرج من
 المعسكر لا ندري الى أين »

فصاحت رغم ارادتها « ويلاه الى أين ذهب ؟ »

فقال حمدون « يظهر انك لا تزالين على حسن ظنك به وعمه نفسه
 قد رذله واحتقره وكدره وقد قال لي انه ليس اهلاً للميأ الشريفة
 الصادقة .. ان خطيباً يرجع من بين يدي خطيبته بمثل هذا الفشل لا يليق بها

فقلت وصوتها مختنق « أبو حامد قال لك ذلك »
 قال « نعم . اذا كنت لا تصديق فاني ادعوه ليقول ذلك امامك »
 فغصت بريقها واطرقت وقد تولتها الحيرة وتحرك قلبها فتذكرت منزلة
 سالم عندها وهي تجله وتنزهه عن كل عيب فكيف تسمع هذا القول وتسكت
 فصاحت « كلا .. ان سالماً شهم لا يستحق هذه الالهانة .. ان عمه قد
 ظلمه » وشرقت بدموعها

فقال « لله أنت يا لمياء .. بل لله من الحب ما أقوى سلطانه .. ان
 أبا حامد هو الذي رغبنا في سالم ثم هو اليوم يقول أنه جبان لا يليق بك .
 ومع ذلك فان وصولك اليه لا يكون الا بقتل المعز وقائده فهل نعود الى
 عز منا الاول ؟ »

فأجفت وقالت « لا . لا . ان أمير المؤمنين لا يستحق ذلك »

قال « وهل جوهر يستحقه ؟ »

قالت « لا »

قال « وهل الحسين يستحقه ؟ »

فلما سمعت اسم الحسين شعرت بأحاساس يشبه ما شعرت به ساعة وداعه
 تلك الليلة - إذ ودعته وقد سحرها بمروءته وسعة صدره فسكنت وتوردت
 وجنتاها وتسارعت دقات قلبها وغلبت على امرها . فاطرقت والدموع
 تتساقط من عينيها وأبوها يراعي حركاتها ثم قال « لا بد من قتل الخليفة
 وقائده أو التخلي عن سالم الجبان .. »

فصاحت وقد تحيرت في امرها « لا هذا ولا ذاك .. لا تقل الجبان
 ان سالماً ... آه ويلاه كيف اسمع هذا القول فيه ؟ » وعادت الى البكاء

الفصل التاسع والعشرون

الثعلب

وهي في ذلك سمعت وقع خطوات مسرعة خارج الخيمة فالتفت. فاذا

بأبي حامد قد دخل وهو متزمل بعباءته وعلى رأسه عمامة صغيرة قد لا كفا حول رأسه على غير نظام كأنه ناهض من الفراش

فحالما دخل لم تستطع لمياء عند رؤيته غير التهوض احتراماً فاسرع اليها واقعدها وهو يقول « لا تذكرى سالما بفيك . انه ابن اخي بل هو بمنزلة ابني ولسكني أنكرته منذ أمس وهو غير اهل لك وانت اعلم الناس بالسبب .. ومع ذلك فهو ليس هنا . ومن كان مثل لمياء التي جمعت شجاعة الرجال الى لطف النساء وقد عرفناها صادقة اللهجة مخلصه الطوية يجب ان تغلب على قلبها وتعمل بعقلها وكفى .. » قال ذلك وقعد بجانب حمدون

فقات وهي تنص بريقها « مهما يكن من الامر اني لا أطيق ان اسمع مثل هذا القول في سالم .. دعونا منه »

فقال أبوها « وهذا ما ادعوك اليه الآن .. » واظهر الاهتمام وتطاول نحوها كأنه يريد ان يهمس في اذنها وقال « هذا اخي ابى حامد قد رأى مثل رأيي في هذا الامر وقد وجد الاقرار الذي سبقنا اليه لا يليق تنفيذ فعزمت على ان استقدمك لاقص عليك ما جرى وكنت اعتقد انك تتلقينه مسرورة فاذا أنت تجادلينا في سالم فاذا لم يعجبك رأينا الجديد عدنا الى القديم »

نخافت ان يغضب أبوها فيرجع الى سوء رأيه فقالت « قد رضيت لسكني أتقدم اليكم ان لا تذكروا سالماً بسوء .. لرى ما يأتي به القدر » فقال ابو حامد « نسكت عن سالم ولكننا فرحون بما اجتمع عليه رأينا وسنحتفل بقرائك في هذه الساحة احتفالاً لم يسمع بمثله ونزفك الى الحسين بن جوهر بحضور الخليفة واذا كان سالم اهلاً لك فليأت وبأخذك بنفسه . . . وقد عهدنا للحسين يتفانون في هذا السبيل ولا يفعلون ما فعله سالم من الفرار الذي تعلمينه .. دعينا منه . لا احب ان اعود الى ذكره اكراماً لك »

فسكتت وهي ترى الصواب في العدول عن سالم بعد ما رآته من تصرفه فضلاً عن البواعث القاهرة التي الجأتها الى القبول بغيره لكن قلبها

لم يطاوعها على الارتياح لذلك الاقتراح فجعلت قبولها مشفوعاً بانتظار ما يأتي به الغد أو ما تدبره الأقدار

انقضت تلك الجلسة على هذه الصورة فرجعت لميما إلى المنصورية تنتظر أمر والدها في القدوم عليه قبيل الزفاف ومكث حمدون وقد اطمأن خاطره ووطن نفسه على الاكتفاء بالقرب من المعز لدين الله ولو مؤقتاً وقد شفع قبوله أيضاً بانتظار ما يأتي به الغد

الفصل الثلاثون

أبو حامد

أما أبو حامد فخرج من تلك الجلسة وقد ضاقت نفسه من حبس إرادته واتعبته المراوغة وتكلف الظهور بعكس ما يضره . فما صدق أنه عاد إلى فسطاطه وخلا بنفسه حتى تنفس الصعداء وقد هاجت ضغائنه وغلت مراحل صدره وأصبح يزجر كالشبل الجريح . وأمر حارسه أن لا يدخل عليه أحداً وجعل يخطر في الفسطاط ذهاباً وإياباً وهو مطرق يعمل فكرته ويستحث قريحته في تدبير حيلة ينال بها غايته . وقد عظم عليه عدول حمدون عن قتل المعز . ولم يكن أسهل عليه من أن يقتعه بما له من السلطة على أفكاره لكنه خاف رجوعه مرة أخرى على غرة وربما باح بسرّه فيعود ذلك وبالاً عليه . فظهر ارتياحه إلى رجوعه واضمر أن ينفذ غرضه بنفسه فيقتل المعز وقائده وقد يقتل حمدون وابنته وزوجها . فانه لا يبالي من يقتل أو لماذا يقتل في سبيل غرضه

قضى مدة في هذا التفكير وهو يخطر ذهاباً وإياباً ثم جعل يناجي نفسه قائلاً « أنا أبو حامد حامل سيف النعمة .. اطمأن بال هذا الأمير المغرور وسكن خاطره واعتقد أني أطعته في العدول عن قتل ذلك الطاغية كما اعتقد أولاً أني أسعى في هذا القتل كراماً لخاطره لأعيده إلى سرير ملكه في

سجلها سنة وصدق انه من آل مدرار اصحاب تلك المملكة العظيمة . وهو يعلم انه دعي في نسبهم لانهم انقرضوا منذ اعوام . ولكنه حسبي اقول ما اعتقد فوافقه قولي ورضي بذلك النسب وبني عليه حقه في اماره سجلها سنة ووافقتني أيضاً على الفتك بالمعز وقائده وأنا أعلم ضعفه وتردده وطالما خفت رجوعه . فاحمد الله لرجوعه الآن قبل ان ادبر طريقة الفتك واطلعه عليها فاذا انقلب بعد ذلك اخاف ان يبوح بها لصديقه ومولاه المعز فيذهب سعي عبثاً . . أما الآن فاني اكنتم تديرى عن كل انسان وسأجعله قاضياً عليهم اجمعين .. أبا عبد الله ! اني نأثر لك . ثم هادئاً ان دماء اعدائك سأجربها في قناة حتى تدرك قبرك فترتوى انت منها كما ارتوي أنا هنا.. في فج الاخيار مستودع القوة فاذا فرغت من قتل هؤلاء الاعداء عدت الى اتمام مهمتي . أنا أبو حامد ويل لهم من فقمتي »

وكان يناجي نفسه وهو يمشي ثم يقف ثم يمشي كالخيران ويعبث تارة بشاريه وطوراً بلحيته أو يقضم اظافره بين اسنانه حتى كاد يدمي أنامله من عظم ما هاج في خاطره . ولو نظر الى وجهه في المرآة لرأى سحنته مرعبة إذ احمرت عيناه وانتفش شعره لكثرة عبثه به وقد افسد نظام عمامته ولحيته وشاريه كأنه خارج من عراق طويل ثم تمالك واخذ يصلح من شأنه ويتظاهر بالسكون وهدوء البال . وأمر غلامه ان يسرج له الجواد

ركب أبو حامد والغلام ماش في ركابه والشمس في الضحى . وقد تعود الركوب للرياضة فلم يستغشه أحد . ولما صار خارج المعسكر امر الغلام بالرجوع وقد عوده الكتان فلا حاجة به الى التنبيه عليه ان يكنتم امر سيده وجهة مسيره

أما هو فانه ساق جواده وأوغل في الصحراء وقد حميت الشمس وانعكست اشعتها على الرمال فظهرت لامعة تتوهج . وارسل نظره الى الافق ليتطلع الى الحيل الذي يقصده فوجد السراب قد حجبه . ورغم ما تعود من مشاهدة السراب في البادية في مثل تلك الساعة فقد خدع به . فكان

يتوقع ان يرى في اقصى ما يقع عليه بصره من الافق جبلا مخروطي الشكل مميزاً عما يحف به من الجبال . فأوهمه السراب ان هناك بحيرة تترأى في مائها صور اشجار تظهر مقلوبة وخيل له انه يرى قوارب سابحة على سطح البحيرة

شغله ذلك المنظر برهة وان لم يصدقه وكما اقترب من المكان انجلى له حتى وصل الى الجبل واكثره اجرد وفيه كثير من الكهوف والشقوق على شكل يندر بين الجبال

فساق جواده في منعطف صاعد يصعب سلوكه لضيقه حتى دار من وراء الجبل وهو لا يسمع غير وقع حوافر جواده أو صهيله . واذا أطل أشرف على سهل رملي ليس فيه شيء من العمار

وكان وهو سائق يتلفت الى الورا حذراً من ان يكون أحد في اثره حتى اقترب من مغارة عظيمة لها باب كبير منقور في ذلك الجبل فتحنح نحنة خاصة فسمع مثلها في قاع المغارة فساق فرسه حتى وقف في الداخل . فسمع منادياً يقول والصدى يردد قوله « ادخل يا مسعود »

الفصل الحادى والثلاثون

التدبير

فترجل ودخل وهو يقود الفرس بزمامه وراه . وكان الفرس أحسن برطوبة المكان فتوالى عليه العطاس ودوى صوت عطاسه دويًا يزيد اجفالا واستغراباً

وبعد مسير بضع دقائق انتهى الى بقعة منيرة فيها ما تقشعر له الابدان من اشكال الحيوانات المتضادة في طبائعها مما لا يخطر ببال كالثعابين والسحالي وأنواع الضب والطيور والحمام بين سارح ومنساب وواثب . وبينها حية مهولة قد التفت على جزع شجرة منصوب لها هناك ورأسها

يتلوى ذات اليمين وذات اليسار . واخرى تنساب بين الاحجار الملقاة على الارض . ولو لم يكن قد تعود المجيء الى ذلك المكان ومشاهدة تلك المناظر واعتقاده ان تلك الدبابات لا تؤذيه لأنها مسحورة لاجفل وخاف . أما الفرس مع انه كان يصطعجه كل مرة فلم يألف ذلك المنظر المريع فاضطرب وضرب الارض بحافره وصهل وتراجع وابو حامد ممسك بزمامه ينتظر ان يأتي من يتناوله منه . واذا بعبد عظيم الجثة برز من بعض اطراف تلك البقعة وألقى التحية فرد عليه ابو حامد . فتقدم العبد وقبل يده وتناول زمام الفرس ومشى به الى مكان يربطه فيه

ثم مشى أبو حامد في طريق تجنب فيه العثور بشيء من تلك الحيوانات حتى دخل دهليزاً منقوراً بالصخر - ولو زار ذلك المكان أحد علماء الآثار اليوم لتحقق ان تلك المغارة من بقايا الابنية القديمة في العصور الغابرة لأنها منقورة في الصخر وربما كانت في الاصل قبوراً أو هياكل وتوسي خبرها . حتى اصبحت مسكناً لكاهنة ساحرة لا يصطلى لها بنار . وكان ابو حامد قد عرفها منذ اعوام واستعان بها في كثير من شؤونه . وهي من خلفاء كهان البربر قبل الاسلام اتصلت اليها هذه الصناعة من اجدادها وهي تخاف الظهور فاستترت هناك ولا يصلها إلا القاصد

ولم يمش ابو حامد قليلا حتى دخل حجرة منقورة في الصخر أيضاً وفي صدرها دكة من الحجر قد تربعت عليها عجوز شحطاء بلباس غريب الشكل فيه من كل لون قطعة . شعرها ناصع البياض وقد انتفش واشتبك فاصبح منظرها مخيفاً . وهي في الاصل سمراء اللون ولكن الشيخوخة جعلت لونها أقرب الى السواد وتجمد جلدها وغارت عيناها وتدلى حاجبها الغليظان نحو الامام فاصبحت عيناها كالمصباح يترأى من وراء نافذة مظلمة . تحبها أتع غليظ قصير فيه حلقة من العاج ادخلت في انقها كالحزام منذ صباها على يد ساحرة كان لاهلها ثقة في علمها واعتقدوا ان وجود ذلك الحزام من اكبر اسباب مهارتها . وناهيك بما في اذنيها من الاقراط وفي عنقها من العقود وحول زندها من الاساور وفيها الذهب والفضة والعاج . وقد جلست

على جلد دب والقت على كتفها جلد نمر وفي حجرها ثعبان غليظ قصير تتلاهى بملاعبته

فلما أطل أبو حامد عليها رحبت به بصوت جهوري وقالت « اهلا بولدي مسعود.. قد أطلت الغياب علي .. أين كنت ؟ » وأشارت اليه بعصا طويلة كانت بجانبها ان يقعد على دكة بين يديها فقعد وهو يقول « كنت في عملي الذي تعلمينه »

فقالت « قد آن لك الظفر يا مسعود .. » وهو الاسم الذي تعرفه به فارتقت أسرته لانه كان يعتقد صدق فراستها واقتدارها على كشف الخبائآت حتى جعلها مستودع اسراره من أيام أبي عبد الله الشيعي . وكانا يأتياها احيانا ولها دخل في جمع كلمة قبائل البربر الذين نصرُوا أبا عبد الله في تأييد دولة العبيدين . فكان أبو حامد لذلك عظيم الثقة بها لا يأتي عملا هاما إلا شاورها فيه . فتصحه وهو لا يزداد إلا ثقة بها . وقد جاءها في ذلك اليوم لامر لا يخفى على القارىء . ولا هو يخفى على تلك الكاهنة الشمطاء لانها كانت مشرفة على اخباره - ليس مما ينقله هو اليها ولكن لها جواسيس مبثوثين في البلاد لمثل هذه الغاية . فلما قالت له ذلك استبشر واعتقد صدق قولها . لانها كانت متسلطة على افكاره مثل تسلطه على افكار الآخرين فقال لها « هل علمت ذلك يا خالة أم تسأليني ؟ » فنظرت اليه شزراً وقالت « ومتى كنت استشيرك يا جاهل ، »

فضحك وجعل يعتذر لها عن جسارته . وكانت وقاحتها هذه من اسباب تمكين هيبتها فيه . فمد يده إلى جيبه واستخرج صرة فيها نقود دفعها اليها وهو يقول « بارك الله فيك .. صدقت قد دنا الفرج ... اقبلي هذه الدراهم طاماً لاولادك هؤلاء » وأشار الى الثعبان الذي في حجرها وهو يظهر المزاح

فمدت يدها وتناولت الصرة وهي تهز رأسها هز الاعجاب وتقول « لا تقل دنا الوقت بل قل أتى .. لم يبق إلا خطوة صغيرة » قال « نعم يا سيدتي انها خطوة ولكنني أراها شاقة .. »

قالت « أين صرت الآن ! »

قال « سأجمع الرجلين في مكان واحد وإنما احتاج الى رأيك في كيفية القتل .. بالخنجر أم بالسهم ، »

فضحكت ضحكة دوى لها المكان وكشرت في اثناء القهقهة فبانث نواجذها وأصبح فيها كالمغارة المظلمة . ثم اطبقت فاهها فجأة وأطرقت وقد تغيرت سحنها وأبرقت عيناها ومدت يدها الى علبة صغيرة بجانبها تناولت منها مسحوقاً وضعت بعضه في فيها وجعلت تتلاهى بامتصاصه ومضغه . ثم رفعت بصرها الى أبي حامد وكانت الصرة لا تزال بيدها فرمتهالىة وقالت « لا حاجة الى أولادي بدراهمك »

فادرك أنها استقالت المبلغ فاستخرج صرتين أخريين ودفع الكل لها وهم بتقبيل يدها ترفاً واسترضاء وهي تتجنى وتترفع . لكنها تناولت النقود وقالت « ان طلبك لا يقدر بالمال وأنا اعينك فيه اكراماً لذلك المقتول ظمناً .. انظر .. سأعطيك مسحوقاً الذرة الصغيرة منه تقتل فيلا كبيراً .. واذا لم تصدق جرب .. » وضحكت وليس ضحكها الا عبارة عن تكشير شفيتها بدون ان يرافق ذلك ملامح الضاحكين . ثم أمرت الثعبان الذي في حجرها ان ينصرف فانساب الى وكره

فنهضت وهي تتوكأ على عكازها الغليظ وأشارت الى أبي حامد ان يمكث في مكانه ريثما تعود . فكث على مثل الجمر وهو يتبع الساحرة ببصره وقلبه يختلج خوفاً من أن يثب عليه الثعبان وهو يعتقد ان الموت في نايه رغم اعتقاده انه مسحور . وفاته أن تلك الثعابين قد اقلعت أنيابها السامة . ولولا ذلك لقات صاحبته لانها لا ترعى ذماماً . فاستبطأ الساحرة فقال في سره « ألا يخشى ان تخونني هذه الملعونة اذا اغراها سواي بمال كثير ؟ فيجب ان اقتلها قبل خروجي من هنا » ولكنه يعلم ان لها اعواناً ربما كانوا مخبئين هناك فعدل عن القتل وعزم على اطعامها بالمال الكثير خوفاً من غدرها

وبعد قليل عادت وفي يدها حق من الابنوس فتحتته وارته فيه مسحوقاً ابيض وقالت « احذر ان تمسه بيدك لان ما يعلق منه بطرف اصبعك كاف لازهاق الروح » ثم اقفات الحق ودفعته اليه فتناوله وقبل يدها وقال « لا تظني اني انسي فضلك فاني معد لك هدية ثمينة سأدفعها اليك بعد الفراغ من هذا العمل » قالت « لا حاجة بي الى هدية .. خذ هذا الحق وامض الى سبيلك » فتناوله وخبأه في جيبه وودعها وخرج . فرأى العبد في انتظاره فركب الجواد وعاد الى فسطاطه وهو يمني نفسه بالفوز

الفصل الثاني والثلاثون

الاستعداد

أما حمدون ففضى ذلك اليوم في فسطاطه وذهب في الغروب لتناول الافطار على مائدة المعز كامس وقد أخص النية في مصادقته . وهكذا كان يفعل كل يوم من أيام رمضان ولمياء في قصر المعز معرزة مكرمة وأم الامراء توالياً بالاكرام والايانس وقبل انقضاء رمضان ببضعة أيام أرثها القصر الذي ستعيش فيه بعد الزفاف وقد ملأته لها بالرياش والاثاث والتحف والجواري والغلمان . غير ما اهدتها اياه من المجوهرات والثياب الثمينة ولما دنا عيد الفطر أخذ حمدون يهيء معدات الاحتفال في معسكره وهو لا يعمل إلا بمشورة أبي حامد فاشار عليه هذا ان ينصب السراقات على مرتفع بين يدي المعسكر . فنصبها على اكمت مشرفة على ساحة كبيرة ليلعب فيها الفرسان على الخيول . وفي مقدمة السراقات سراشق كبير نصب فيه المقاعد للمعز وقائده ومن يختار ان يكون معه من خاصته . وسراشق للمطابخ تقام فيه الموائد وبينها مائدة خاصة بالخليفة وقائده وابنه وحمدون . واختص خدمتها بعلام صقلي من غلمانه الخصوصيين أصله من صقالبة قصور

قرطبة . وكان أبو حامد قد عاهده سرّاً على أمور تطمح انظاره اليها وحمدون لا يعلم . وزعم انه اختاره لهذه المائدة لمهارته في خدمة الموائد لانه تعود ذلك في قصور المروانيين في قرطبة وقد اتقن معالجة الاطعمة . وكان هذا الصقلي قد استسلم لابي حامد وأعجب يتفانى في تنفيذ اغراضه ولا يبالي بعواقبها وكان لابي حامد سلطة خصوصية عليه من قبيل ما يعرف اليوم بالتنويم المغنطيسي ولم يكن يعرف يومئذ بهذا الاسم . ولكن أبا حامد كان اذا أحب أن يستهوي هذا الغلام اختلى به وسقاه شراباً مخدراً ينعشه ويضعف ارادته ثم يأمره بما يريد فيصبح أطوع له من بنانه . وهو ينسب ذلك التأثير الى فعل الشراب والحقيقة انه يستهويه بقوته المغنطيسية فاذا أمره بعمل وعين له وقته لا بد من تنفيذه

فلما عزم أبو حامد على ما نحن فيه استهواه قبل يوم الاحتفال ودفع اليه الحق وأمره ان يضع منه شيئاً في الاقداح التي يسكبها للخليفة وقائده وحمدون والحسين بن جوهر

ونظر أبو حامد في ما يعمله إذا نفذت حيلته فارسل خاصته الى مكان بعيد عن المعسكر من جهة الطريق المؤدي إلى مصر أعد فيه ما يحتاج اليه من وسائل النقل حتى اذا نجحت مكيدته فر إلى مصر يلاقي فيها سالماً ويتمان مهمتهما بمساعدة صاحبها بفتح القيروان وادخالها في حوزة الخليفة العباسي . ويكون ذلك سهلاً عليه بعد قتل الخليفة العبيدي وقائده . لكنه ظل خائفاً من لمياء لئلا تكون مطلعة على بعض سره من حيث مخابثه ومعداته فاعد لها كها وسيلة أخرى

الفصل الثالث والثلاثون

موكب الخليفة والسباق

دبر أبو حامد ذلك كله خلسة ولم يشعر به أحد وظل مشغولاً من جهة أخرى باعداد مهمات الاحتفال . وقبل يوم الفطر بيضعة أيام نقلت لمياء

الى فسطاط أبيها على أن تزف من هناك الى الحسين في المنصورية على العادة الجارية عندهم . وفي صباح يوم الفطر كان معسكر حمدون غاصاً بالسراقات والاعلام . وبعد الظهر خرج الخليفة بموكبه من قصره في المنصورية وعليه لباس العيد تحف به حاشيته من الامراء والصقالبه . وقد امتطى فرساً من جياد الخيل ومشى بين يديه الامراء والقواد الاقائده جوهر فانه امره أن يسير راكباً بجانبه

فلما أطل موكب الخليفة على ذلك المعسكر خرج حمدون لاستقباله بالاحترام ومشى بين يدي الجواد حتى وقف أمام السراق المعد لجلوسه . فترجل الخليفة وقائده وأوماً الى الحسين بن جوهر ان يصعد معهما الى دكة في صدر السراق مفروشة بالبسط والوسائد . وقد أوقدت مباحر اند والعود في جوانب السراق وغرست الاعلام ببابه

فجلس المعز في الصدر وأمر قائده ان يجلس الى جانبه والحسين بين يديه . وكان الحسين أكثرهم فرحاً وقلبه يطفح سروراً لما اتفق له من الحفاوة في عرسه مما لم يتيسر لسواه . كيف لا وقد خرج الخليفة المعز لدين الله من قصوره الى تلك الساحة اكراماً له ولم يبق في الامراء والقواد الا من حسده على هذه النعمة . وتقدم حمدون للترحاب بالخليفة عند جلوسه واكب على يده كأنه يهم بتقبيلها اعترافاً بما خوله من الالتفات بتلك الزيارة وقد اخلاص النية في طاعته . ثم سأل الخليفة عن يريده أن يجالسه في سرادقه من الشعراء فاكتفى بابن هاني (متني الغرب) وكان حمدون قد اعد له ولا مثاله مقاعد في جوانب السراق

جلس المعز ووراء مقعده صقليان يحملان المذاب من ريش النعام كالمظلة فوق رأسه . وهو ينظر الى ما يشرف عليه من السراقات الاخرى . التي أعدت لجلوس خواصه ورجال حاشيته . واختص بعض امرائه بالجلوس معه في سرادقه . وامام ذلك السراق ساحة فسيحة قد سويت ارضها وفرشت بالرمال للعب الخيل

ووقف حمدون بين يدي المعز وجعل يقدم له امراء سجالسة واحداً

واحداً ويسمهم باسمائهم وفي جملتهم أبو حامد واختصه عند التعريف بعبارات الاعجاب به وأعرب عن اخلاصه للخليفة . فامر المعز ان يكون من جملة الجلوس في ذلك السرادق . ولم يقصر أبو حامد في تأكيد ولائه وولاء سائر امراء البربر لآبناء فاطمة الزهراء . وبالف في الاطراء وهو كما علمت فصيح اللهجة قوي الحججة رغم ما في سجنته من الغرابة . فاعجب المعز به وتوجه نحوه وأبدى ارتياحه الى مجالسته

فلما استقر الجلوس بالقوم تصدى أبو حامد للترحيب بالخليفة بالنيابة عن صديقه حمدون فقال « ان صديقي أمير سجلماسة يحق له ان يفاخر سائر الامراء بما أوتيته من تنازلاتكم لوطء بساطه . بل يحق له ان يفاخر الناس كافة وقد وطىء بساطه ابن بنت الرسول (صلعم) ولعل صديقي حمدون لفرط امتنانه لا يقوى على تأدية حق الشكر »

فاعجب المعز بحديث أبي حامد وقطع كلامه على سبيل التواضع وقال « اتنا نقدر الرجال اقدارهم ونحن نعلم فضل صاحب سجلماسة . ومن أخلص الصحبة لنا جعلناه واحداً منا وان مصاهرتة لقائدنا الباسل جعلت له منزلة خاصة من نفسنا »

فتقدم حمدون عند ذلك وقال نحو ما قاله أبو حامد من عبارات الشكر وأكد للخليفة انه مخلص في خدمته واستأنف الحديث قائلاً « الا يأمر أمير المؤمنين بشيء يسر بمشاهدته من الالعب »

فاحب المعز ان يزيد استئناساً به فأجابه باللغة البربرية لانه كان يحسنها وقال « كثيراً ما سمعت بمهارة فرسان سجلماسة بركوب الخيل فهل يتيسر لنا ان نراهم يتسابقون ؟ » وتبسم

ففرح حمدون بذلك الانعطاف واسرع وهو يشير بيديه فوق رأسه اشارة الطاعة . والتفت نحو الوقوف بباب السرادق من الرجال وأوماً باصبعه الى واحد منهم فهرع . ولم يمض قليل حتى غصت تلك الساحة بالخيول عليها الفرسان باللبسة الفاخرة على زي أهل سجلماسة . واكثرهم بالثام على رؤوسهم يغطي معظم الوجه . وعلى اكتافهم البرانس الواسعة نحو

ما يلبسه أهل تلك البلاد الى اليوم . وعلى خيولهم السروج المختلفة وفيها القرايز الفضة المذهبة أو المنزلة بالعاج . ويبنها خيول عارية لا سرج عليها وإنما زينها جماها الطبعي . على ان العارفين بطبائع الخيل لا يلتفتون الى ما على الافراس من الكساء وإنما ينظرون إلى صدورها واعناقها واكتافها ويتفرسون في عيونها . وكان المعز من أكثر الناس معرفة بالخيل فأخذ يتأمل تلك الافراس ويحيل نظره فيها كما يفعل العارف الخبير

وقفت الفرسان صفاً واحداً عند السرادق وخيولهم لا تستقر في مواقعها ريثما أدوا واجب الاحترام . ثم اشار حمدون اليهم فأخذوا في اللعب على ظهورها العاباً مدهشة تشغل الخاطر اغرابتها . وفيها ما يبعث على الاعجاب الكثير . لان بعض الفرسان كان يسوق فرسه حتى لا تكاد حوافره تطأ الارض ويعمد وهو في تلك السرعة فيدور حوله حتى يلتصق ببطنه ثم يعود الى ظهره ورأى غيره يركب فرساً ويسوق آخر الى جانبه وينتقل من ظهر الواحد الى ظهر الآخر والفرسان في اشد السرعة وغير ذلك . فلم يتمالك المعز عن اطراء تلك المهارة ووجه خطابه الى ابي حامد وقال « بالحقيقة ان اهل سجلماسة من امهر قبائل البربر في الفروسية حتى نساءهم فقد بلغني ان فيهن ماهرات يسابقن الرجال »

فتصدى القائد جوهر للجواب وقال « نعم يامولاي اني رأيت ذلك منهن رأي العين في بلادهن » والتفت الى ابنه الحسين وابتسم ابتسامة فهم الجميع مراده منها - وهو يعني لمياء على الخصوص . فقال ابو حامد « اظنك تعني لمياء وهز رأسه هز الاعجاب فالتفت المعز وقال « عرفنا لمياء عاقلة حكيمة وسمعنا ببسالتها في ساحة الوغى . . فهل تحسن ركوب الخيل ايضاً ؟ »

الفصل الرابع والثلاثون

لمياء بين المواشط

وكان حمدون واقفاً يسمع ذلك الاطراء بابنته فلم يخطر له ان يمرض

على الخليفة رؤيتها على الجواد . لكن ابا حامد غمزه ان يفعل فقال « هل يريد مولانا ان تخرج لمياء على فرسها ؟ »

فقال المعز وهو يحك عثونه « لا يريد ان نزعجها اليوم لانها في ما هو أهم من ذلك » وضحك

فتصدى أبو حامد للجواب وقال « انها لم تركب الخيل من زمان بعيد واذا ركبت اليوم فاعلمها آخر مرة يتأتى لها ذلك ومتى صارت في بيت القائد ربما لا يعود يتيسر لها »

فأشار المعز بالقبول وقال « طبعاً نحن نحب ان نراها ولكن لانعلم اذا كان الحسين يوافقنا ... » والتفت الى الحسين وابتمسم فعد الحسين التفاته نعمة اخرى فاطرق خجلاً

فوقف جوهر بالنيابة عن ابنه وقال « أنها أمة مولانا أمير المؤمنين وسيكون لها الحظ كما يكون لنا في سبيل طاعة أمير المؤمنين »

فأسرع حمدون الى فسطاطه ليخاطب لمياء بما جرى وهو يعلم ان خروجها في تلك الساعة من اصعب الامور لانها ساعة التبرج والتزين . وتصور انه سيجدها بين ايدي المواشط والخواضن يزيناها ويصلحن من شأنها - ولكن خاب ظنه

لان لمياء لما تحققت اتمام الاقتران وآن الزفاف هاجت عواطفها الكامنة وعادت اليها ذكرى سالم حبيبها الاول . ورغم ما ظهر من ضعفه وتردده فانها ما زالت تحبه وتتفانى في مرضاته . وانما كان قبولها بالحسين موقتماً تنتظر ما يأتي به الغد في أثناء شهر رمضان . فلما جاء عيد الفطر ولم يجد شيء وانتقلت الى بيت أبيها لتزف الى الحسين اظلمت الدنيا في عينها وتحققت انها لا تلبث ان تصير زوجة لرجل وان كانت تحبه وتعجب بمناقبه لكنها لا تزال ترى سالماً أولى بقلبها منه . واعتقدت ان قبولها بالحسين يعد في شرع المحبين خيانة . فوقعت في حيرة وظهرت الحيرة فيها على الخصوص في صباح ذلك اليوم لما أتت المواشط لتزينها واصلاحها . فاستمهلتهن وانزوت في فسطاط أبيها تعمل فكرتها

فلما جاء أبوها ليخاطبها بشأن الركوب اخبروه بما فعلت فذهب اليها فوجدتها قاعدة على وسادة وحدها وقد اطرقت وبانت الحيرة في عينيها فقال « ما بالك يا لمياء لماذا أنت هنا ؟ »

فارادت الجواب فسبقتها الدموع فسكتت

فدنا منها وأمسك بيدها فأحس ببرودتها وارتعاشها وقد بالغت في الاطراق فلحظ الدمع في عينيها فاستغربه . وهو لا يقدر ان يتصور عواطف المحبين لانه لم يذق طعم الحب فقال لها « ما هذا الجنون . . ما بالك ؟ . لماذا تبكين ؟ »

فأفلتت منه وقالت وصوتها مختنق « ابكي على سوء حظي .. يالتمعستي ! » فقال « وأي تمعسة ؟ . هل في الدنيا فتاة اسعد حالاً منك ؟ ستزفين بعد ساعات قايلة الى أنبل الشبان . وهذا أمير المؤمنين قد جاء بنفسه ليكون زفافك على يده . ان الوفاً من الاميرات يحسدنك على هذا الحظ وانت تشكين من سوءه ؟ »

فقلت « اني سيئة الحظ .. دعني الآن . . »

قال « كيف اتركك وأنا قادم اليك بمهمة من المعز لدين الله . . بلغه انك ماهرة في ركوب الخيل فطلب ان يراك على الجواد »

فلما سمعت قوله شعرت بارتياح لان خروجها على الفرس ينجىها من مضايقة المواشط . وكانت اذا ركبت الفرس اعتزت على صهوته ونسيت كل مصائبها . وهي مع ذلك تحترم ارادة الخليفة . لكنها لم تجد في نفسها ميلاً الى الخروج في تلك الساعة وهي غارقة في القلق والاضطراب فقالت كيف يخرج مثلي الى ساحة السباق ؟ ان هذا لم يسمع به »

قال « صحيح لكن امر الخليفة لا يمكن رده . وقد وافق عليه القائد جوهر وابنه الحسين »

فلما سمعت اسم الحسين عادت الى هواجسها وندمت لانها لم تقطع في هذه المسألة من أول الامر - من يوم خاطبوها بهذا الشأن .. كان ينبغي أن

ترفض أو تقبل أو تهرب أو .. ولا ترضخ لذلك التردد شهراً كاملاً حتى
إذا أزفت الساعة ضاقت بها الحيلة ..

فلما طال سكوتها ظنّها آسفة لخروجها من بيت أبيها ودخولها بيت رجل
غريب كما يصيب أغلب البنات في مثل هذه الحال . فامسكها بيدها وانفضها
وهو يقول لها « اركبي جوادك وانزعي الاوهام عنك .. انك ذاهبة الى
بيت اعظم من بيت ابيك وستزفين الى شاب هو اعظم شبان هذه الديار ..
قومي .. هيا بنا .. ان الخليفة في انتظارنا »

الفصل الخامس والثلاثون

لمياء على الجواد

فوقفت ورأت خروجها على الجواد خيراً من بقاءها هناك وخطر لها انه
قد يرميها فتقتل وتتجو من ذلك التردد . فاطاعته ولبست ثوباً يليق
بالركوب ولفت رأسها بلثام تعودت ان تلتف به اذا ركبت . وأتوها بفرس
من احسن الافراس فركبت وساقته الى الساحة امام السراشق والجواد
يقطر عرقاً . فتقدم اليه بعض الغلمان الواقفين هنا لتلبية الفرسان
بما يحتاجون اليه من التقاط حربة سقطت أو ابدال رمح كسر . وفيهم من
يمسح عرق الخيل أو يغسل وجوها تنشطاً لها . فتقدم أحدهم ويده وعاء
فيه ماء واسفنجة باها بالماء ومسح وجه الجواد وأخذ بتنشيفه ولمياء على
ظهره كالجيل الراسخ

ولم يكد الغلام يفرغ من عمله والخليفة يتوقع ان تبقى لمياء واقفة
تنتظر امره . فرآها اشارت اليهم اشارة الوداع كأنها راجعة الى خدرها .
واذا بالجواد قد عدا بها عدواً سريعاً عن غير ارادتها كأنك وخزته بحربة
في جنبه . ولم تشأ أن توقفه لئلا يظهر ذلك مظهر الخوف منها فاطلقت له العنان
على ان توقفه هناك وهي بعيدة عن سراشق الخليفة . فظنّها أهل السراشق
انها فعلت ذلك عمداً على ان تعود رأساً الى فسطاطها . أما هي فارادت ان

توقف الفرس فلم تره يزدداد إلا عدواً على غير هدى كأنه أصيب بجنة .
وعبثاً حاولت كبسج جماحه . ثم رأته يوغل بها في الشعب والجبال وهو يشخر
ويصهل ويهز رأسه . وأرادت ان تحوله نحو المعسكر فلم يطعها . وبعد قليل
التفتت الى ورائها فرأت انها صارت على مسافة بعيدة من المعسكر وقد توارى
عنها المعسكر والمنصورة جميعاً والجواد سائر فيها شرقاً جنوبياً

مرت بها دقائق رهيبة خطر لها في اثناها خواطر عديدة . وفي جملتها
ان جموح ذلك الجواد قاتلها لكنه قد ينقذها من ترددتها ووخز ضميرها
وكانت الشمس قد مالت الى المغرب وأخذت الظلال تستطيل ولمياء توغل
في الوعر وتبعد عن العمران

فتبت نفسها على الجواد كأنها قطعة منه وهي لا تخاف الوقوع عنه
لكنها تحققت أنه أصيب بشيء كالجنون أو أنه اهيج بوخز أو عقار مهيج .
لانه لم يكن يعدو في طريق معروف بل كان تارة يهبط وادياً وطوراً يصعد
جبالاً والحجارة تتطاير من بين حوافره . ولم يقع بصرها على أحد تستجده
أو تستأنس به . فعزمت على التحول عن الجواد وهو راكض - ولا
يعجزها ذلك لتعودها مثله ولكنها لم تكن نجد ارضاً رملية أو ترابية
تثب اليها

وهي تفكر في ذلك اصطدم الجواد بصخر فانتثرت هي عن ظهره بقوة
الاستمرار وقذفت الى مسافة بضعة اذرع . فوقعت في حفرة هناك قليلة
العمق فغابت عن رشدها

ولم تنتبه الا وقد اظلمت الدنيا وظهرت النجوم فارادت النهوض
فأحست بألم في جنبها فلم تجد فيه كسراً وإنما هي رضوض . ثم أحست بشيء
يسيل على عنقها فتلمسته فاذا هو دم بارد . فعرفت أنها أصيبت بجروح
فتجلدت وتماسكت . ثم توکأت على ما بين يديها ونهضت وهي تستند الى
جدار الحفرة . والتفت الى ما حولها فرأت انها في بلقع . ولم تقو على
الوقوف فسقطت . فاخذت تفكر بما حل بها وصبرت نفسها ريثما تستريح
وجملت نجس اعضاءها لتحقيق نجاتها من كسر أو صدع فوجدت انها سليمة

ليس فيها شيء غير الرضوض . وشفاها اضطرابها عن خوف الحشرات المؤذية وهي كثيرة هناك

وأخذت تناجي نفسها قائلة « ألم يكن من الحكمة ان أصاب بكسر في عنتي بهذه الصدمة فأموت وأنجو من متاعي ؟ . فيكون الله قد استجاب دعائي وانقذني من عذاب التردد .. يا ربي ما العمل الآن ؟ »

ثم زحزحت لتجرب قوتها فسمعت خشخشة ثعبان ينساب بين الاحجار وراءها . فقف شعرها وهمت بالهوض لتخرج من ذلك المكان - ولم تكن تخاف الثعابين اذا قابلتها في النور لكنها خافت الغدر

الفصل السادس والثلاثون

رسول غريب

وهي تم بالهوض سمعت وقع حوافر مسرعة فاسرع الثعبان في الانسياب حتى توارى وخفق قلبها فالتفتت فرأت اشباحاً كالفرسان يزيد عددهم على عشرة يسوقون أفراسهم . فحدثتها نفسها ان تستغيث بهم ولم تكدهم بذلك حتى سمعت بينهم صوتاً يقول « هل رأيتم احداً ؟ . لا شك انها قتلت » فأجابه الآخر « لا بد من ذلك لاننا رأينا الجواد مقتولا فهل تبقى هي حية ؟ »

وتوسمت في صوت الاول لحن أبي حامد فغالطت نفسها وأحبت ان تتحقق ظنهما فانزوت في مكانها حتى اقترب القوم منها فقال أحدهم « لقد تمت حياتنا ولا يلبث ذلك الدعي ان يموت هو وقائده قبل ان يتناولوا العشاء انظروا هذا هيجان قادم من طريق مصر .. تربصوا له »

فاصبحت لمياء من شدة تأثرها تنتفض كالعصفور بلله القطر . وخانتها قواها وأدركت ان القوم أبو حامد ورجاله وانه الذي دبر لها هذه المكيدة بشيء وضعوه للجواد في انفه عند غسل وجهه . وحدثتها نفسها ان تصيح فيهم فعملت انها اذا فعلت قتلوها لاحالة وهي لا تريد ان تموت على أيديهم .

فتجلدت وأخذت تنظر الى الجهة التي تظن الهجان قادماً منها . فرأت هجاناً مسرعاً سرعة البرق فاعترضه الفرسان وأوقفوه . وسأله أحدهم قائلاً « الى أين يا رجل ؟ »

قال الى « المنصورية »

قال « ومن تريد ؟ »

قال « اريد امير المؤمنين المعز لدين الله »

قال « وما الذي تحمله اليه ؟ »

قال « أحمل اليه رسالة من مصر »

قال « أين هي ؟ هاتها . . اتنا من رجاله »

قال « لا أسلمها إلا اليه . . دعوني اسير في طريقي » قال ذلك وادار زمام هجينه فاعترضوه ومنعوه وألحوا عليه ان يدفع اليهم الرسالة وهو لا يرضى . فقال له أبو حامد « انك كاذب لست قادماً من مصر لان القادم منها لا يأتي منفرداً في هذه الصحراء . . اصدقنا والا قتلناك »

قال « كنت قادماً في قافلة نزلت عند الغروب على ماء هناك واسرعت وحدي لتبليغ الرسالة لانها مستعجلة لا بد من ايصالها قبل انقضاء هذا اليوم »

فقال أبو حامد « لا شك انك كاذب بل أنت لص أو جاسوس ونحن من رجال الخليفة فاذا كنت صادقاً ادفع لنا الرسالة والخليفة الآن في قصره لا تدركه إلا وقد نام »

قال « ان الرسالة خصوصية له وقد امرت ان لا أسلمها الى أحد سواه ولو كان ابنه . وقد اوصيت ان ادفعها اليه حال وصولي واذا كان نائماً أيقظته واذا كان متكئاً لا أمهله ان يجلس قبل ان ادفعها اليه . هذا ما امرت به فاذا كنتم من رجال الخليفة كما تزعمون دعوني اذهب في سبيلي »

فقال « ابو حامد » اعطنا الرسالة والا قتلناك »

فقال « اقتلوني ولا اسلمها الا لصاحبها »

ولم يتم كلامه حتى سمعت لمياء استلال الحسام ورأت أحدهم ضرب ذلك الهيجان بالسيف على رأسه فسقط عن الجمل قتيلاً . وصاح أبو حامد وهو يقهقه من الضحك « أوصل اليه الرسالة . أو تمهل انكما ستلتقيان في السمير بعد قليل »

والتفت إلى القاتل وقال له « فتشه واستخرج الرسالة منه وادركنا فانتا سائقون الى موضع القافلة » قال ذلك وساق جواده وتبعه رجاله الا القاتل فانه ترجل عن جواده ووضع سيفه المسلول على الارض بجانبه حتى يمسحه من الدم بعد الفراغ من تفتيش القتيل

فتحقت لمياء ان تلك الرسالة هامة ولولا ذلك لم يفضل حاملها القتل على تسليمها واعجبته امانته وثباته . وكانت كثيرة الاعجاب بالاخلاق العالية . فاسفت لموته وأحست بميل الى الانتقام له . وكانت قد تجددت قواها أو لعل حماسها نشطتها . فلما تمت ونهضت وخرجت من الحفرة خلسة وهي تنسرق والرجل مشغل بالتفتيش حتى - ت من السيف المطروح بجانبه فتناولته بأسرع من البرق واطلقتها على عنقه فسقط فوق الهيجان وثنت عليه بضربة أخرى حتى تحققت موته ثم ازاحته وأتمت التفتيش . فوجدت الرسالة وهي عبارة عن اسطوانة من القصب الفارسي فيها الكتاب وكان قد خبأها بين اثوابه . وهمت بالجواد فامتطت صهوته وكانت قد عرفت جهة المنصورية منذ رأت الهيجان قادماً وحولت شكيمة الجواد نحو معسكر أبيها وقد عادت اليها قواها تحمساً في مصلحة المعز واسرعت في ايصال تلك الرسالة لاعتقادها انها لو لم تكن عظيمة الاهمية لم يؤمر حاملها بايقاظ الخليفة من نومه لتسليمها اليه وكانت قد تنسمت من كلام أبي حامد انهم اعدوا مكيدة لقتل المعز . فعلمت انها اذا أسرع انقذت ذلك الخليفة الذي تحبه . وتحترمه فاحست بنشاط وفرح فهمزت جوادها نحو معسكر أبيها وهي لا تراه لكنها علمت مما حولها انها متجهة نحوه وقد نسيت

حالتها ولم تعد تفكر بالدم الذي يسيل على عنقها وكان قد جمد وانسد الجرح ولم يضرها لانه سطحي

أما أهل ذلك المعسكر فكانوا لما رأوا لمياء أشارت اليهم اشارة الوداع وركض بها الفرس توهموا أنها عزمت على شوط تركض به فرسها ثم تعود الى فسطاطها الذي كانت فيه كما تقدم

وكان ابو حامد هو الذي دبر تلك المكيمة للمياء فدى أحد غلماناه بين الموكلين بمساعدة الفرسان وأوصاه ان يدس في أتف جواد لمياء مادة حريفة تهيجه وتحمله على الركض بغير هدى فهو عند ذلك لا يهدأ حتى يتحطم هو وراكبه

فلما تحقق عمل العقار ورأى لمياء غابت عن أعينهم وسمعهم يتساءلون عن مصيرها أكد لهم أنها ودعتهم ولا تلبث ان تعود الى فسطاطها وأخذ يشاغلهم بالحديث وطلب الى حمدون ان يأتهم ببعض الالعب الغريبة ليتسلى الخليفة برؤيتها مما لا مثيل له في القيروان واحتال في الخروج من السراشق وكان قد امر رجاله ان يهيئوا احمالهم ويخرجوا بها من ذلك المعسكر الى مكان يعرفونه بجانب الطريق المؤدي الى مصر كما تقدم

فلما بعد عن المعسكر ركب هو ورجاله اخذوا يبحثون عن لمياء ليتحققوا قتلها وشاهدوا جواداً في الطريق قد وقع قتيلاً بعد ان اصطدم بذلك الصخر وتراجع ودمه يسيل من صدره حتى وقع . فلما رأوه ولم يعثروا بلمياء تأكدوا قتلها في مكان رماها به

الفصل السابع والثلاثون

المائدة

أما حمدون فلما دنا الغروب دعا الخليفة الى العشاء الذي اعده له في السراشق الخاص بمائدته . وذهب الامراء الى مواثدhem في السراشقات

الآخرى ومشى الخليفة الى المائدة وقد اضيئت السرادقات بالشموع وأحرق
البخور في اطرافها ومدت الموائد في اواسطها وعليها أنواع الاطعمة . وذهب
حمدون الى الطاهي القرطبي الذي تقدم ذكره وبالنسبة في وصايته حتى يحسن
الوقوف في خدمة الخليفة

وقبل التقدم الى المائدة ازفت الصلاة فصلى الخليفة وصلى القوم وراءه
ثم جلس كل منهم في مكانه . ومائدة الخليفة لم يجلس عليها الا هو وقائده
وابن قائده ووقف حمدون يخدمهم بنفسه بمساعدة الطاهي المشار اليه وبعض
غلمان آخرين يحملون الاطباق من المطابخ . ووقف سائر الغلمان بأباريق
الفضة والقوارير فيها الجوارشنات أو الاشربة الهاضمة وقد شغل حمدون
باضافه عن التفكير بالامياء لاعتقاده انها عادت الى فسطاطها

فبعد ان تقدمت الوان الاطعمة وهي كثيرة ومتقنة أحس الخليفة
بالعناية التي بذلها صاحب سجناسه في اكرامهم وظهر له الفرق بين الاطعمة
التي تعود تناولها في قصره وما تناوله تلك الليلة . لان العبيدين كانوا الى
ذلك الحين لا يزالون ميالين الى السذاجة في الطعام واللباس لاسباب تقدم
بيانها . أما حمدون فقد تعود وهو سجناسه الترف والتأنق بالاطعمة تقليداً
للمروانيين في قرطبة . وكان يبتاع امثال آنياتهم للمائدة من الاباريق
والاطباق الفضة والذهب ويوصى الطهارة بمعالجة اللحوم والالوان كما كان
الخليفة الناصر يفعل في قصر الزهراء

فلما صار حمدون في الاسر لم يعد يستطيع ذلك التأنق لكنه في تلك
الليلة أوصى الطهارة ان يبذلوا الجهد في اصلاح الاطعمة ليدعش الخليفة
ويؤكد له حفاوته واكرامه - ذلك ما اوعز به أبو حامد وأوصى الطاهي
الخصوصي ان يجعل في جملة الاشربة الهاضمة الشراب الذي امره ان يضع
السم فيه

فلم يتمالك المعز لدين الله عن ابداء اعجابه بتلك الحفاوة وذكر على
الخصوص لذة الاطعمة . فقال له حمدون « اتنا نجاسرنا في اخراج امير المؤمنين
عن عادته في الاقتصار على الاطعمة البسيطة التي اقتضاها نقشفه الى ما تعود

غيره من الملوك المنعمسين في ملذات الدنيا . وإنما فعلنا ذلك على سبيل التجربة فقط »

فقال المعز « قد علمنا ذلك ولا بأس به .. ولكن كيف تأتى لك هذا وأنت هنا ؟ »

فقال « عهدت بذلك الى طاه كان من جملة طهارة صاحب قرطبة وهو كثير التفنن » وأشار الى الطاهي الواقفي في جملة الواقفين وقال « هذا الطاهي يا سيدي اتقن من عرفت من الطهارة للاطعمة »

فالتفت المعز اليه فرآه في انظف ما يكون من الثياب وقد حمل بيده ابريقاً من الذهب وقدحاً فابتسم المعز ابتسام من عرف الحق واغضى عنه وقال « بمثل هذه الاطعمة أوهنت عزائم اولئك .. لكن لا خوف علينا لاننا لن نعود الى مثلها بعد الآن .. ما الذي تحمله بهذا الابريق .. ؟ لم يبق لنا قدرة على طعام »

فتقدم الطاهي وقال « هذا يا سيدي شراب هاضم لا تلبث ان تتناول منه قدحاً حتى تذهب التخمة وتشعر بالرغبة في الطعام ثانية »

قال ذلك وصب منه في قدح من الزجاج منقوش وناوله الى حمدون فاخذ حمدون القدح وجعل يتفرس في ما عليه من النقوش - وهو من جملة آنية ابتاعها من تاجر حملها من قرطبة . ثم نظر الى الخليفة وقال « هذا الشراب الهاضم لم أذقه قبل الآن فانه من استنباط هذا الطاهي ولذلك ينبغي ان أذوقه قبل تقديمه لامير المؤمنين » أوهي عادتهم في الشروع بالطعام قبل ضيوفهم ويعدون ذلك مبالغة في الحفاوة . ثم ادنى القدح من فيه وشربه وأخذ يتلمظ ويبيدي الاعجاب . وأمر الساقى فصب في قدح آخر ناوله الى الخليفة وآخر ناوله الى القائد جوهر وآخر للحسين

الفصل الثامن والثلاثون

قادم مفاجيء

وهم الخليفة ان يتناول الشراب بحارة الحمدون لان معدته قد امتلأت بالطعمة والاشربة فازعجه ديب جواد مسرع وقف بباب السراشق وعليه راكب ملثم والجواد يلهث لهثاً شديداً وقد تصبب العرق منه من الجهد . وترجل فارسه وعم بالدخول بلا استئذان فمنعه الحجاب فلم يبال واخترق الصفوف ركضاً ويده اسطوانة من الغاب الهندي حتى دنا من المعز . تخاف القوم ان يكون من جسارته خطر على الخليفة فهض القائد جوهر والقده بيده وأمره ان يرجع . فلم يبال بل ظل مسرعاً وبانت بقع الدم على ثامه فلما دنا من الخليفة دفع اليه الاسطوانة وأشار باصبعه أن يقرأها حالا . فتناولها منه وهو يتفرس فيه . وكان الحضور منذ دخل الرسول قد استأنسوا بثوبه وخصوصاً حمدون فإنه عرف ابنته من ثوبها فصاح « لمياء ! »

فلم تحببه فلما سمعه الخليفة يناديها انتبها انها قد تكون هي فقال « هل أنت لمياء ؟ » قالت « لا تعمل عملاً يا سيدي قبل ان تقرأ هذه الرسالة » فلما سمع صوت ابنته عرفها فاراد ان يدنو منها لمخاطبتها فخافته قدماء وأحس بدوار شديد فسقط على الارض . فاشتغل الغلمان باسعافه ونقلوه الى فسطاط قريب . والخليفة ينظر الى الكتاب وهو يقول للمياء « من أين هذا » ولم يكثرثوا لدوار حمدون لاعتمادهم انه نجا من كثرة الاكل فقالت لمياء « هو من مكان بعيد وفدا امر حاتم ان يعطيه للخليفة حال وصوله . . واذا كان نائماً يوقظ واذا كان متكئاً لا يمهل حتى يجلس قبل قراءته وهذا ما جرأني على ازعاجكم وأنتم على المائدة . . »

فدفع الخليفة الاسطوانة الى القائد جوهر ففضها وأخرج منها لفافة عرف من شكلها انها من مصر لكنه لم يعهد بينه وبين اميرها صداقة أو علاقة توجب مخابرة ودفع جوهر الرسالة الى المعز لعلمه انه يحب ان يقرأ

المراسلات بنفسه . وكان القدح لا يزال في يده فادناه من فيه ليشر به قبل قراءة الرسالة فامرعت لمياء وابتعدت القدح عن فيه وقالت « قد أمر حامل الرسالة ان يمنع امير المؤمنين عن كل عمل قبل قراءتها »

فاستغرب المعز ذلك وأخذ بالقراءة لنفسه والحضور ينظرون في وجهه وخصوصاً جوهر . فرأوا الخليفة قد تغيرت سحنته وبدا الغضب في وجهه وخامره القلق وأما الحسين فكان في اثناء ذلك لا يرفع بصره عن لمياء وقد أدهشه ما رآه من حالها والدم قد لطح نقابها وبعض ثوبها . ولم يتجاسر أن يخاطبها في حضرة الخليفة ولا سيما بعد ان رأى تغير وجهه . . وأطال المعز نظره في الكتاب وأعاد تلاوته وهو كالمستغرب لما يقرأه . وتناول الحضور باعناقهم لمعرفة ما حواه الكتاب . لكنهم لم يجسروا على التماس ذلك

وبعد هنية أشار الخليفة الى جوهر وابنه ان يضعوا الاقداح ودفع الكتاب الى جوهر ونظر الى لمياء وقال لها « أين حامل هذه الرسالة ؟ ادعيه الى هنا »

قالت « ان حاملها قتل يا سيدي وكدت اقتل معه ولكن الله أعانني لا يصله اليكم وأنا على آخر رفق »

فأشار الى من في السراشق ان يخرجوا الا جوهر ولمياء وأمر الحجاب ان يمنعوا الناس من الدخول حتى الامير حمدون نفسه ففعلوا . وكان جوهر مستغرقاً في تلاوة الكتاب لنفسه وقد اصابه من الدهشة اضعاف ما أصاب المعز . فلما خلا السراشق من الغرباء التفت الخليفة الى لمياء وقال « اكشفي عن وجهك وقصي علينا خبرك . اني أرى عجباً وأقرأ اعجب منه »

فلم يسمعها الا الطاعة فرفعت اللثام عن وجهها وقد لصق بعضه بعنقها من الدم وتغيرت ملامحها من عظم ما ألم بها في تلك الليلة وازدادت عيناها حدة وبسالة وابراقاً

فقال الخليفة « ما خبرك من أين أتيت »

فقصت عاينه ما جرى لها من أوله الى آخره وهو يسمع ويستغرب
وينظر في اثناء الحديث الى قائده كأنه يستطلع رأيه في ما يسمعانه
من الغرائب

الفصل التاسع والثلاثون

نص الرسالة

فلما أتت على آخر الحديث أصبحت في شوق للاطلاع على مخوى تلك
الرسالة لكنها لم تجسر على طلب ذلك . أما الخليفة فانه كان يسمع كلامها
ويتأمل ما يبدو في عينيها من صدق اللهجة والبسالة . فلما وصلت الى ملاقة
ذلك الهيجان وكيف انها قتلت قاتله وحملت الرسالة لا يصالها سريعاً وهي
مصابة بالجروح والرضوض لم يتمالك ان قال لها « لله أنت من فتاة باسلة
وصديقة صادقة - أتحبين ان تسمعي نص هذا الكتاب فاني أعدك ابنة لي
بل أنا لا أتوقع من ابنتي أو ابني ان يكون غيوراً علي مثل هذه الغيرة . .
اقعدي » وأشار الى مقعد بجانبه فجلست عليه وامر جوهرأ ان يقرأ الرسالة
فاخذ يقرأها وهذا نصها :

« الى أمير المؤمنين المعز لدين الله من عبده يعقوب بن كلس
« أما بعد فاني ما برحت اذكر نعم المولى وفضله علي وعلى أبائي وأنا
أترقب الفرص للقيام بما فرض علي في سبيل نصرته لاني وان كنت ذمياً
لم أشرف بالاسلام فاني قادر على أن أرى وجه الحق بالنظر الى تنازع
المسلمين على الخلافة . وهي حق صريح لا آل علي أبناء عم النبي وأبناء بنته .
وانما اختلسها سواهم طمعاً بالدنيا لكن الحق عاد الى نصابه بفضل أجدادك
الكرام وسيتأيد على يد الامام المعز لدين الله . ولذلك رأيتني لا أدخر
وسعاً في نصرة الحق وأراقب الفرص في تأدية خدمة تعود على الامام
بالنصر وقد علمت بدسيسة اعدتها المبغضون لايقاع الاذى بالامام وقائده
أعزها الله - علمت ذلك بطريقة غريبة في ليلة من ليالي القدر . فلم أنم قبل

ان كتبت هذا وبعثت به على جناح السرعة مع رسول غيور أوصيته بجد السير حتى يصل قبل فوات الفرصة . فارجو ان يكون قد فاز بذلك وسلم كتابي هذا الى المولى اعزه الله ونصره على اعدائه . وجليه الخبر يا سيدي اني علمت من قرائن مختلفة ان بين امرائك العائشين تحت جناحك أناساً يسمعون في الكيد لك ولقائئك ويخاربون صاحب مصر لفتح القيروان والحاقها بخلافة العباسيين . وكنت اذا سمعت ذلك استبعدته إذ لا يعقل ان يسعى أحد في ابدال دولة بالية خربة من دولة جديدة زاهية . وحدثني نفسي ان اكتب اليكم بذلك وترددت حيناً حتى وقفت بالصدفة على أمر اطار صوابي واقلقني . وهو ما بعثني على كتابة هذا بوجه السرعة وقلبي يخفق خوفاً من تأخره عن الوقت اللازم . علمت يا سيدي من مصدر وثيق وقد سمعت بأذني ان صاحب سجلماسة المقيم في جوارك ورجلا من خاصته اسمه أبو حامد اتفقا على الكيد بك وبقائتك الباسل على ان ينفذ الحيلة في عيد الفطر المبارك وبعثا الى مصر شاباً من رجالها اسمه سالم يزعم انه ابن أبي حامد أو ابن أخيه . فهذا الشاب سمعته بأذني يقص خبر المكيدة وهو في حال سكر على امرأة تعشقها . ولكي تتأكد صدق قولي فأنا أذكر من اسماء الاشخاص الذين استعان بهم في هذه المكيدة فتاة اظنها ابنة صاحب سجلماسة اسمها لمياء اظهر لها سالم أنه يحبها ليستخدمها في اتمام هذه المكيدة لانها من المقربين في قصر مولاي امير المؤمنين . ولا يطيعني قلبي على التصريح بما دبر اولئك الملاحين . وفي الله مولانا الخليفة من كيد الكائدين واذا بلغ كتابي هذا الى سيدي الخليفة قبل عيد الفطر فهو ناج باذن الله . والرسول رجل من المواعين بالحق انصار العلويين أيد الله ملكهم . وأنا يا سيدي خادم مطيع لكم ابذل نفسي في سبيل الحق ولا غرض لي غير ذلك والسلام» اهـ

ولم يبلغ جوهر الى آخر الكتاب حتى استولت الدهشة على لمياء وأصابها شبه الدوار من الحيرة . لاستغرابها ما تسمعه عن سالم . وانكشفت لها مكيدته وتحققت انه كان يخادعها . فاحست من تلك اللحظة بكرهه وتحول

حبها الشديد الى كره شديد وأصبحت لا تصبر عن الانتقام لنفسها منه . . . وأطرفت كأنها أصبحت بجمود وشعرت كأن الدم جمد في عروقها واصطكت ركباتها وتوالت الرعدة . وقد خجلت مما تلي عاينها من دخولها في تلك المكيدة . وكيف أن يهوديا يبعث بخبرها من مصر غيرة على الخليفة وهي في قصر المعز وقد اطاعت على المكيدة منذ شهر ولم تخبره بها . لكنها التفت لنفسها عذرا لها دانست حتى انتهت المسألة على هذه الصورة مرت هذه الحوادث على ذهنها في لحظة سمعت في أثنائها الخليفة يقول « ابن صديقنا صاحب سحرانة »

فأذا سمعت لمياء بداهة تحدثت اليه تريد أن يسأله عن المكيدة وخافت وقوعه في الاذى لكنها تكلمت بترى ما يكون . فأجاب أحد الغلمان « ان الأمير حمدون نائم منذ بعض عن المائدة »

فقال « وقد بان العنصر في وجهه » « أيقظوه » ثم التفت الى القائد جوهر وقال « ابو حامد ؟ أليس هو ذلك الرجل الذي قدمه لنا حمدون ؟ أحب أن أرى الأمير حمدون لأسأله عن تلك المكيدة وان كنت لا اصدق دخوله فيها وليكنه سيمصح عن التفاصيل وترى ما يكون . . . أين هو ؟ أيقظوه »

الفصل الأربعون

حمدون

واذا بغلمان حمدون يترآ كضون وقد أخذتهم البغته وتقدم أحدهم الى المعز وقال وهو يغص بريقه « لم يستيقظ ياسيدي » وأخذ في البكاء . فلما سمعت لمياء بكاءه أسرعته الى حيث رقد أبوها فوجدته مستلقيا على مقعد هناك وقد تغير لونه فازرقت بشرته وغارت عيناه وبانت أدلة الموت في وجهه فصاحت « ووالداه ! ماذا جرى لك ؟ » وجعلت تحبس يديه ووجهه فاذا هو ميت لا حراك به . فأخذت تناديه وسمع الخليفة بكاءها فأسرع ومعه

القائد جوهر فلما رأى حمدون تحقّقاً موته وعجباً لما أصابه فأمر المعز أن يؤتى بالطبيب حالا فأتى . وحالما وقع نظره عليه صاح « مات الأمير مسموماً . ماذا شرب ؟ »

فقال المعز أكلنا معاً من طعام واحد الا شراباً صبه الغلام لنا جميعاً فشربه هو ولم نشربه نحن ولا تزال أقداحه مملوءة على المائدة . . ومشى الخليفة الى غرفة المائدة ودل الطبيب على الاقداح فتناول الطبيب قدحاً منها وتأمل السائل الذي فيه قليلاً وشمه ثم استخرج من جيبه مسحوقاً وضع شيئاً منه في ذلك الشراب وجعل يتفرس بما يحدث فيه والجميع وقوف ينظرون . فلم تمض برهة حتى تحول ما في القدح الى راسب اصفر وتغير لون الماء فصاح « ان هذا الشراب سام . . من صنعه ؟ »

فأمر المعز بالقبض على الطاهي الذي تولى تلك الوليمة فلم يقفوا على خبره وأطرق المعز في أثناء ذلك وأعمل فكرته في ما رآه من الغرائب في ذلك المساء فاتضح له سلامة نية حمدون لانه لو اشترك بالملكة وعلم ان الشراب مسموم لما تناوله

وأسف المعز لموت حمدون وأمر أن يجهز ويناح عليه ويدفن . والتفت الى لمياء فاذا هي قد وقفت لا تحير خطاباً كأنها أصيبت بجمود فقال لها « تعالى يا بنية رحم الله والدك انه مات مظلوماً والله يتولاه برحمته فانت الآن ابنتنا . لا نقول ذلك تعزية لك لكنك أتيت في مصلحتنا ما لا يأتيه الابن الغيور » ومد يده الى كتفها وربت عليه بحنو وعطف وقال « هيا بنا الى قصرنا في المنصورية واحسبوا ان هذا الفرح لم يكن . . وستجدن هناك أم الامراء وتأنسين بها . . »

فلم تحبه لكنها أخذت في البكاء وهي صامئة تتاجي نفسها بامور لا تخطر لاحد من الحاضرين . لكنها أحست بغضب شديد على سالم وجاشت عواطفها ورأت في نفسها ميلاً للانتقام منه - ومن قواعد الحب وطبائع المحبين ان المتفاني في حب شخص يحتمل منه ما شاء من التجني والدلال والاعراض ولا يزداد الا شغفاً وتغافياً . لكنه لا يحتمل الخيانة . . فاذا

تأكد أنه خانه في عواطفه أو خادعه أو داجاه لغرض في نفسه انقلب حبه بغضاً وصار تفانيه نقمة - فاحست لمياء بميل شديد الى الانتقام من سالم وقد تحققت خيانتة لانه كان يظهر حبه حيلة للفتك بأعظم الحسين اليها واليه

وأمر المعز ان تقوض الفساطيط والسرادقات ويؤجل العرس الى وقت آخر فالتفت لمياء عند ذلك وقد هاجت اشجانها وقالت « نؤجله يا سيدي حتى ننتقم لنفسنا من الكائدين . فاذا وافقني أمير المؤمنين على ذلك ضاعف فضله علي »

فقال « سمنظر في ذلك » وأمر رجاله بالرجوع الى المنصورية فاشتغلوا بتقويض الخيام . وركب المعز وقائده ولمياء والحسين وسائر الحاشية الى المنصورية والغلمان يحملون المشاعل بين أيديهم

وفي صباح اليوم التالي احتفلوا بدفن حمدون وبكته لمياء بكاء مرأً لسبب لا يعرفه سواها - وهو اعتقادها أنه قتل بسذاجته وسلامة نيته ودهاء ذلك اللعين ابي حامد

وكانت لمياء حال وصولها الى القصر في ذلك المساء دعته أم الامراء الى غرفتها وأخذت في تعزيتها بعبارات الحنو والحب كما تخاطب الوالدة ابنتها فأحست لمياء براحة وزادت تعلقاً بها . وأيقنت انها كانت على هدى باخلاصها لتلك الملكة وانما شوشوا عليها أفكارها بمكائدهم

الفصل الحادي والاربعون

لمياء وأم الامراء

ولم تطل الملكة الحديث تلك الليلة والميت لم يدفن بعد . ففي الصباح التالي لما علمت بدفنه بعثت الى لمياء وأمرتها أن لا تفارقها وبالغت في اكرامها وتعزيتها وذكرت الحسين في أثناء حديثها . فتذكرت لمياء انها لم تشاهده في ذلك اليوم ولا رأيته بعد عودته معهم في المساء . فاشتغل

خاطرها بشأنه وشعرت بميل الى رؤيته وودت أن تلتقي به في خلوة لتبث له أموراً تحب أن تساره بها بعدما أصابها من قتل والدها وتغير قلبها على سالم . فلما سمعت أم الامراء تذكره أحببت أن تغتنم الفرصة وتسأل عنه فغلب الحياء عليها فسكتت . ولحظت أم الامراء خجلها فقالت « ان الحسين سيء الحظ يا لمياء . انظري كيف اتفق له في يوم عرسه »

فقالت وهي تغص بريقها « بل أنا التعسة يا سيدتي لاني فقدت سندي الوحيد وهو والدي فأصبحت يتيمة الابوين » ومنعها البكاء من إتمام الكلام

فهمت بها أم الامراء وضمتها الى صدرها وقالت « لست يتيمة يا لمياء و . . . »

فقطعت لمياء كلامها قائلة « صدقت يا سيدتي ان من كان تحت ظلك وظل سيدي أمير المؤمنين لا يكون يتيماً . . وكفاني حظاً وشرفاً ان يدعوني الخليفة حفظه الله ابنته . . . انها نعمة لم أكن لاحلم بها . . . ولكن . . »

فقالت أم الامراء « لا لوم عليك اذا بكيت أباك انه كان باراً وكان يحبك . . »

فتذكرت لمياء ما كان يضمه ابوها من السوء للخليفة وقائده فاحست بوخز الضمير فأرادت ان تصرف ذهنها عن ذلك الحديث لانه يؤلمها فقالت « رحمه الله . . وانا الآن لا اعرف أباً غير أمير المؤمنين ولا أمأ سواك » وسكتت وهي تتشاغل باصلاح شعرها وفي خاطرها شيء يمنعها الحياء من ذكره

وكان أم الامراء أدركت مرادها فقالت « اني لم أر الحسين جاء معكم في مساء أمس ولا رأيته اليوم أين هو يا ترى ؟ »

قالت « لا أعلم رأيته ركب معنا من المعسكر ثم لم أره »

فقالت أم الامراء « أتظنين الخليفة أرسله في مهمة مستعجلة ؟ »

قالت « أنت أعلم مني بذلك »

قالت « لا ريب عندي ان أمير المؤمنين يحب ان يراك فهل نذهب اليه وهو يخبرنا عن الحسين .. »

فسرها هذا الاقتراح لكنها لم تظهر الرغبة في الاجابة حياء . ولم تنتظر أم الامراء جوابها فهضت وأمسكتها بيدها ومشيت بها وهي تقول « ان أمير المؤمنين وحده في قاعته وقد اخبرني في هذا الصباح انه لا يريد أن يرى أحداً من الامراء »

فقالت لمياء « لعله طلب ذلك لرغبته في الخلوة فهل يجوز ان نزعجه بحضورنا ؟ »

فابتسمت وقالت « لا نزعجه حضوري أو حضورك ولا هو أراد الخلوة للعمل على ما أظن . ولكنه أراد الراحة من عناء ملاقاه أمس . وهو بلا شك كثير التفكير فيك هلمي بنا اليه .. وانزعي حجاب الكلفة معه بعد ان دعاك ابنته ونعم الابنة »

وبعد هنيهة وصلتا الى غرفة الخليفة . فبادر الحاجب الى القاء التحية باحترام فقالت أم الامراء « ألعلى أمير المؤمنين وحده ؟ »

قال « كلا ياسيدتي انه في خلوة مع القائد جوهر »

فارادت ان ترجع واذا بالمعز يناديها من الداخل « اذا كانت لمياء معك ادخلي »

فاجفلت لمياء عند سماع اسمها على هذا الاسلوب وتصاعد الدم الى وجنتيها فقالت لها أم الامراء « ألم أقل لك أنه يسر برؤيتك - حتى أكثر من رؤيتي . وقد قال بصراحة ان لا ادخل الا اذا كنت معي .. »

وضحكت وهي تظهر المداعبة . ووسع لها الحاجب فدخلتا

وكان المعز جالسا على مقعد والقائد جوهر على وسادة بين يديه وعلى وجهيهما أمارات الاهتمام . فلما دخلت أم الامراء أظهرت الاحتشام لوجود القائد فابتدرها المعز قائلاً « ان قائدنا كواحد منا فلا ينبغي الاحتشام من وجوده وأنت يا لمياء ابنتنا وهذا القائد ابوك أيضاً » وأشار اليهما بالجلوس وكان القائد قد وقف عند دخول أم الامراء فأشار اليه الخليفة ان يجلس

وقال له « نحن في امر هام نحب ان نشرك القادمتين به .. أنت تعلم تعقل أم الامراء . وهذه فتاتنا لمياء قد عرفت ذكاءها وغيرةها على مصلحتنا فلا بأس من دخولها في الحديث . . »

فجلست لمياء وهي مطرقة حياء لهذا الاطراء فقال لها الخليفة « لا ينبغي التهيّب يا بنية بين يدينا وقد اصبحت ذات شأن في امورنا لما تأكدناه من تعقلك وصدق محبتك لنا وقد شق علينا ما أصاب والدك ولكن ذلك امر من الله لا سبيل الى دفعه ... طيبي نفساً سنأخذ بثأره »

فلما سمعت ذكر الثأر تغير وجهها وبان الاهتمام في عينيها ونظرت الى الخليفة وابتسمت ابتسام الامتان وقالت « اشكرلك يا مولاي انعطافك نحوي ولكني أرى الواجب الاول ان ننتقم لامير المؤمنين لان ذلك الخائن أراد اىصال الاذى اليه . وقد حماه الله ؟ »

فابتسم وقطع حديثها قائلاً « وكان الفضل لك بذلك يا لمياء .. فهل يكثر علينا ان تتأثر لوالدك رحمه الله ؟ »

فاطرت وسكتت ثم رفعت بصرها اليه وقالت « لكنني ارجب الى امير المؤمنين ان يدخلني في هذا الانتقام فاني موتورة » قالت ذلك وقد قطبت حاجبيها وبان الغضب في عينيها

فقال « لم نكن لنكلفك شيئاً من هذا يا لمياء . كفك ما أصابك » والتفت الى القائد جوهر وقال « اني لم أشاهد الحسين في هذا الصباح أين هو ؟ »

قال « قد ذهب في مهمة مستعجلة هي من قبيل ما نحن فيه »

قال « الى أين ؟ »

قال « انفذته الى الجهة التي قالت لمياء انها شاهدت ذلك الخائن فيها . وذكرت هناك قافلة أو معسكراً فامرت الحسين ان يذهب بكوكبة من الفرسان لعله يدرك القوم قبل رحيلهم فيأتينا بذلك الغادر ويكفيينا مؤونة البحث عنه »

فقال المعز « بارك الله في همتك وتيقظك » والتفت الى أم الامراء

وابتسم وهو يقول « كيف نلام على تقديم هذا القائد وهو لا يغفل
عن مصالحتنا »

الفصل الثاني والاربعون

الحسين

أما لمياء فأطرقت وبان الارتباك في وجهها فلحظ الخليفة فيها ذلك فقال
« ما بالك ساكتة يا لمياء ؟ هل شق عليك ذهاب الحسين . . ولماذا ؟ »
قالت « كيف يشق علي ذهابه في خدمة هذه الدولة وصيانة أمير
المؤمنين ان ارواحنا فداء »

قال « اني أرى في وجهك قلقاً »

قالت « قد همني ذهابه لعلمي بغدر اولئك الحائنين ومكرهم »
فقطع القائد جوهر كلامها قائلاً « لا خوف على الحسين من
غدرهم . . ولا يلبث ان يأتي ظافراً بأذن الله . وعند ذلك يحق له ان يكون
عريساً لك »

فحجلت وتوردت وجنتاها وأحبت ان تصرح بما في خاطرها من هذا
القبيل فقالت « هل يأذن مولاي أمير المؤمنين بكلمة اقولها جواباً على
ما سمعته »

قال « قولي »

قالت « أما وقد سمعت من القائد الاكبر ما قاله فاتقدم الى مولاي
ان . . » واسكنها الحياء والتفتت الى أم الامراء كأنها تستنجد بها ان تتوب
عنها في التعبير عن فكرها ولم تكن أم الامراء تعلم مرادها فنظرت اليها
تستفهمها فأسرت اليها انها تحب تأجيل الاقتران »

فقال المعز « سمعت ذلك منها في أمس . . طبعاً أتنا نؤجله مراعاة

للحداد »

فقالت لمياء « كلا يا سيدي انما أعني انه لا ينبغي ان يتم شيء قبل

الانتقام من الخونة .. » وتشاغل برفع كمها عن أناملها ويظهر من وجهها أنها لم تتم حديثها

فقال جوهر « انت هؤلاء الخونة لا يمضي كثير قبل ان يكونوا في قبضتنا كما قلت لكم فهل تعنين غيرهم ؟ »

قالت « نعم .. انهم كثيرون وبعضهم لا يتيسر الوصول اليهم الا بعد اشهر لانهم بعيدون .. ان هذه الخيانة يجب ان يقوم صاحب مصر بتحمل عواقبها » واشرق وجهها بما بدا فيه من الحماسة

فادرك الخليفة أنها تعرض بفتح مصر انتقاماً من صاحبها فالتفت الى القائد جوهر وابتسم لانه كان يحسده في شيء من ذلك قبل مجيء لمياء فنظر القائد الى الخليفة وابتسم ابتسامة الظافر لانه كان يرى العزم على فتحها والخليفة يتخوف ويتردد فسره ان تقترح لمياء مثل اقتراحه وأدركت لمياء ذلك فقالت « لا ينبغي لنا ان نتردد في تحميل صاحب مصر عواقب هذه الخيانة فانه شريك فيها . ولاخوف منه فانه الآن عبد ذميم (كافور) واحوال مصر في غاية الاختلال »

فرأى المعز ان يقطع الحديث في هذا الموضوع ريثما يفكر في الامر وهو لا يحب ان يقول قولاً ان لم يكن مصمماً عليه فقال « ان أمر مصر لا يزال بعيداً وربما فكرنا فيه في فرصة اخرى .. فنحن نحب ان نعجل بالعقد عليك للحسين »

قالت « لا اظن رأي الحسين الا موافقاً لرأيي لانه ليس أقل غيرة على مصلحة امير المؤمنين مني .. ارجو من مولاي ان يجعل أمر مصر مقدماً على كل شيء وأنا اضمن الظفر باذن الله »

فاعجب بتلك الحمية وقال « ليس ضمان ذلك بالامر السهل يا بنية .. انه يحتاج الى المال والرجال .. »

فنظرت الى الخليفة وقد تغيرت سحتها وبانت البسالة في جبينها وقالت ان الرجال موجودون ياسيدي ومن كان في قواده مثل القائد جوهر

لا يخشى بأساً فقد فتح المغرب على اهون سبيل . وهل يظن أمير المؤمنين فتح مصر أعظم مشقة ؟ »

فاستحسن المعز اطراءها قائده وقال « هذا مسلم ولكن ما قولك بالمال انه لا بد منه لهذا العمل »

قالت وفي صوتها لحن التأكيد « والمال موجود أيضاً »

فبغت الجميع من تأكيدها وتوجهوا نحوها بإبصارهم وقال الخليفة « من أين لنا المال الكافي ونحن لم نفرغ من الحروب الا بالامس »
قالت « قلت لمولاي ان المال موجود وسأبين له ذلك متى شاء . فاذا فعلت هل يبقى لديه مانع ؟ »

قال « يبقى ان نستطلع حال المصريين ونتعرف داخلتهم وشؤونهم . لا تما لم نعلم عنهم الا ما تتلقفه من افواه الناس »

قالت « أما وقد اشركني أمير المؤمنين بهذا الحديث فاستأذنه في ان أقول اني أضمن له ايضاً كشف ما يريد ان يعرفه من الاحوال »
فرأى الخليفة من لمياء فوق ما كان يتوقعه ولم يصدقه بحذافيره وانما حمله حمل الاندفاع كما يفعل الراغب في امر فانه يراه سهلاً لرغبته في الحصول عليه . وهم ان يستزيدها بياناً واذا بالحاجب دخل وقال « ان مولاي الحسين بالباب »

فأمر بادخاله . أما لمياء فلما سمعت اسمه خفق قلبها ولم تعد تخاف خفقانه للحسين بعد ان نفضت يديها من محبة سالم . لكنها تماسكت والتفتت فرأت حسيناً دخل وعلى وجهه غبار السفر فعلمت انه عائد من تلك المهمة
أما هو فخيا فأمره الخليفة بالجلوس فجلس ووقع بصره على لمياء فتجاذب قلباها ونخاطب بصراها . ولكنه شغل بالتوجه نحو الخليفة فقال له المعز « ما وراءك ؟ قد اخبرني قائدنا أنك تعقبت اولئك الخائنين . . فعسى ان تكون قد ظفرت بهم وحملتهم الينا »

قال « قد حملت اليكم أناساً وجدتهم قرب المكان الذي كان الخائنون فيه ولكنهم ليسوا منهم »

فقال جوهر « وكيف ذلك يا بني ؟ »

قال « قضيت ليل أمس وأنا أبحث في الاماكن التي ينزل فيها الناس أو القوافل في طريق مصر حتى بعدت كثيراً عن القيروان فلم أجده أحداً . . . »

فقطع أبوه كلامه قائلاً « أخشى ان تكون قد اخطأت الطريق »
قال « بل هي الطريق ذاتها والدليل على ذلك اني رأيت جثة ذلك الرسول وبجانها جثة قاتله كما قصت خبرها لمياء . وامننت في تلك الجهات وبثت رجالي في كل جهة فاخبرني بعضهم في هذا الصباح انه رأى آثار معسكر . فسرت اليه فرأيت بقايا قوم كانوا هناك ورحلوا من عهد قريب ولعله المعسكر الذي كان فيه أولئك الخوذة ومع ذلك لم اقنع بما رأيت فواصلت السير الى عين ماء تسمى عندها القوافل فرأيت قافلة قادمة من مصر أتيت باصحابها معي لعلنا لنستفيد منهم خبراً اذ توهمت من زخرف فساطيطهم وخيولهم وسائر احوالهم ما لم اعهد في سواهم من اصحاب القوافل »

فقال الخليفة « أين هم »

قال « أتيت برئيسهم معي وهو بالباب اذا شاء مولاي امر بادخاله »

الفصل الثالث و الاربعون

بنت الاخشيد

فصفق المعز فدخل الحاجب فقال « ادخل الرجل الواقف خارجاً »
وأشار الى ام الامراء ولمياء بالتمحي الى مجلس تقعدان فيه بحيث تريان وتسمعان ولا يراها أحد

ثم عاد الحاجب ومعه صاحب القافلة وهو كهل عليه لباس المصريين من العمامة والحية وقد أخذ الاضطراب منه مأخذاً عظيماً لهول ذلك الموقف .

فقال له الخليفة « لا تخف يا رجل وإنما نريد منك ان تصدقنا الخبر . قل من أنت ؟ »

قال « أنا يا مولاي من أهل مصر »

قال « ما هي صناعتك »

قال « تاجر رقيق »

قال « ما الذي جاء بك الى هذا البلد »

قال « جئت لابتاع رقيقاً أحمله الى مصر . وهي عادتني في كل عام أو بضعة أعوام آتي القيروان لهذه الغاية فابتاع المولدات الحسان وانصرف قال « ولكن رسولنا يقول ان حاكم تدل على غنى وترف لا يمهده بتجار الرقيق الذين يفدون على القيروان »

فبانت البغته في وجه الرجل عند هذا الاعتراض ولكنه قال « نحن يا مولاي تجار رقيق كما قلت لكم فاني لا اكذب »

قال « هذا لا يكفي قل لنا السبب الذي أوجب مجيئكم في الفساطيط الفاخرة ومعكم الخيول المطهمة كأنما أنتم من رجال الدولة أو الامراء » قال « السبب في ذلك يا مولاي اننا نبتاع الجواري بأمر خاص ونحن نتفق على حساب مرسلنا »

فقال الخليفة « لمن تبتاعون الجواري . ومن هو مرسلكم أصدقني والا فلا تنجو من القتل »

نخاف الرجل واصططكت ركبته وارتعدت فرائصه وقال « اتنا نبتاع الجواري لمولاتنا ابنة الاخشيذ صاحب مصر »

فضحك الخليفة والتفت الى جوهر وهو يقول « ألا ترى التلون في كلامه ؟ . يقول انه يبتاع الجواري الحسان لابنة الاخشيذ ولو قال انه يبتاعها للاخشيذ نفسه لصدقناه » والتفت الى الرجل وقال « قل الصدق . . لماذا لم تقل انك تبتاع الجواري للاخشيذ أو غيره من الامراء هل خفت ان يكون عليك من ذلك بأس »

قال « كلا يا مولاي بل أنا أقول الصدق . قد مر علي عدة اعوام وأنا

آتي القيروان بامرها لا بتاع لها الجواري الحسان بالاثمان الباهظة »

قال « ماذا تفعل بهن ؟ »

فتوقف الرجل عن الجواب وبات الارتباك في وجهه لكنه خاف

السكوت فقال « لتستمع بهن »

فبغت الخليفة والقائد والحسين وأخذوا ينظرون بعضهم الى بعض فقال

القائد « تشتري الجواري لابنة الاخشيد لتستمع بهن هي ؟ »

قال « نعم يا سيدي . . . وهذا مشهور يعرفه أهل مصر لانها كثيراً

ما تنزل سوق الرقيق في الفسطاط بنفسها على حمار فتساوم صاحب الرقيق

على الجارية اذا اعجبها وتشتريها لنفسها . واذا كانت لا تحب هناك ما يعجبها

من الجواري الحسان تبعت بي في قافلة خاصة لهذه الغاية وتتفق في

سبيل ذلك الاموال الطائلة »

فلما سمع المعز كلامه وصدق لهجته صدقه وهو مستغرب وأشار اليه ان

ينصرف . فلما خرج التفت المعز الى قائده وقال « قد كنت منذ قليل

أتردد في فتح مصر وأخاف جندها . وأما الآن فهان علي امرها لان بلداً

بلغ من أهله الترف الى ان صارت المرأة من بنات الملوك فيهم تخرج بنفسها

وتشتري جارية لتتمتع بها لا يخشى بأسهم . لان ذلك من ضعف نفوس رجالهم

وذهاب غيرتهم^(١) انما يلزمنا المال » والتفت الى لمياء

فتقدمت أم الامراء وأجابت عنها قائلة « ان ابنتنا لمياء قد قصت علي

خبر المال الذي أشارت اليه وهو مضمون وإنما يحتاج الى نظر خاص »

فقال المعز « هل ترين بأساً من التصريح به بين أيدينا وليس فينا

غريب .. قولي يا لمياء قولي . . »

(١) المقرئزي ٣٥٢ ج ١

الفصل الرابع والاربعون

فج الاخيار

فتقدمت ووقفت وقفة رجل جسور وقالت « ان المال يا سيدي مخبأ في
كان بعيد . وكان قد خزنه عدوك هناك ليحاربك به . ولكن الله قدر ان
يكون لك وتحارب به اعداءك وانت ظافر باذن الله »

فاستغرب الجميع قولها وتناولوا باعناقهم لسباع حديثها فقالت « سأقول
لكم ما اعرفه . ولكن قبل كل شيء ارجو من أمير المؤمنين ان يوافقني على
لمامي الاول وان كان لا يحسن بي التصريح به »

فعلم انها تشير الى تأجيل الاقتراح فقال « أنا أوافقك ولكن الشأن
في هذا الامر هو للحسين » والتفت اليه فوقف الحسين متأدباً . فقال له
لمعز « ان لمياء الشجاعة الباسلة تطلب تأجيل العقد الى ما بعد فتح مصر
التشكيل بالحائتين فماذا تقول ؟ »

قال « هذا ما كنت أتمناه ولم أجسر على طلبه أما وقد طلبته هي فأنا
وافق عليه وأشترط ان أكون في مقدمة المحاربين في هذا السبيل »
فقالت لمياء « طبعاً كلانا يجب ان يكون في مقدمة المحاربين . ولا أعني
المحاربة استلال الحسام أو الهجوم على صفوف الأعداء فقط فان هناك
عمالاً تقدم على امتشاق الحسام سنائي على ذكرها »

ثم وجهت خطابها الى الخليفة وقد ابرقت عينها وبانت الحماسة في
طلعتها وقالت « هل أقول يا سيدي ؟ »

قال « قولي بارك الله فيك . والله ان كلامك ليث الحماسة في قلوب
لرجال .. وقد هونت علي اقتحام الاهوال في سبيل الفتح .. قولي »

قالت « سمعت مولاي يقول اتنا لا بد لنا قبل الاقدام على فتح مصر
من شيئين هامين الاول المال والثاني استطلاع احوال القوم وقواتهم
وداخلتهم . أما المال فاقص عليكم ما عرفته عنه ولذلك حديث سمعته عرضاً

من ذلك الخائن القاتل ولم أكن أفهم مغزاه . فلما ظهرت خيائته ادركت مكايده - علمت منه ان في جبل ايكجان من بلاد كتامة مكان يقال له فج الاخيار كان فيها بلد يسمى دار الحجر بناه أبو عبد الله الشيعي وخزن الاموال فيه »

فلما سمع الخليفة اسم البلد تغير وجهه لانه تذكر بلاء أبي عبد الله في نصرته وكيف قتلوه . ولحظت لمياء ذلك فتجاهلت وأتمت حديثها قائلة « ولما قام أبو عبد الله بدعوة جدك المهدي رحمه الله وجمع كلمة القبائل في نصرته وتمكن من التغلب على اعدائكم أتى فنزلها وقسم البلد على كتامة ونادى بالامام المهدي خليفة وحمل اليه الاموال التي كانت مخزونة في جبل ايكجان . ولكن يظهر انه كان ينوي الخروج من الطاعة فضرب نقوداً جديدة لم يذكر فيها اسم الامام المهدي وإنما اكتفى بأن ضرب على أحد وجهي الدينار (بلغت حجة الله) وعلى الآخر (تفرق اعداء الله) وضرب على السلاح (عدة في سبيل الله) ووسم الخيل سمة (الملك لله) ثم ذهب الى سجلماسة في طلب المهدي وما زال حتى أتم الفتح وسلم الامر اليه . ويظهر انه ندم على عمله فبعث الاموال الى ايكجان سرّاً واختزنها هناك حتى يعود فيقلب ظهر المجن ويطلب الامر لنفسه . فعلم الامام بذلك وما زال عليه حتى قتله كما تعلمون لكنه لم يعرف خبر تلك الاموال فبقيت مطمورة هناك . ولعله اسر امرها الى أبي حامد اللعين فقام يسمى سرّاً في اخراج الملك من أيديكم على ان يفسد قلوب القبائل عليكم ويستعين بذلك المال عند الحاجة . وآخر مكائده قد فشلت أمس وإنما أصابت المأسوف عليه والذي فهرب ذلك اللعين والاموال لا تزال في فج الاخيار . فاذا بعث المولى من يأتي بها اعانته في نصرة الحق . هذا ما أعرف من أمر الاموال »

ولم تتم كلامها حتى كمل العرق جبينها وبان الاهتمام في محياها والخليفة ينظر اليها ويتفهم كلامها . وقد اعجب بما كشفتته من امر هذا السر العظيم فقال « بورك فيك يا لمياء اتنا سنبحث في طلب ذلك المال . ولكنني أفكر

في مكيدة هذا الرجل كيف انطلقت علينا وعلى والدك كل هذه الاعوام . .
ان فضلك في كشف هذا السر يربي على فضلك في انقاذنا من القتل لانك
اطلعتنا على مساع متواصلة لو نجونا من تلك المكيدة ولم نطلع عليها لظلت
الدولة في خطر من مكيدة اخرى . أما الآن فسنتعقب الحائنين حتى نقيهم
بعد ان نأخذ اموالهم »

فاطرت لمياء حياء عند سماع ذلك الثناء

فتصدى الحسين للكلام فقال « هل يأذن لي مولاي ان اذهب في
طلب هذا المال ؟ »

قال « لك ذلك - ولكن هل علمت بما يعتور هذا العمل من المشاق ؟
ان جبل ايكجان في اواسط بلاد كتامة في البادية والذهاب اليه بعيد شاق »
قال « فليكن حيثما كان . . كل ذلك هين في خدمة أمير المؤمنين »
فضحك الخليفة ضحك الاستحسان

فعالت لمياء « هذا من حيث المال أما من حيث استطلاع دخائل
القوم فاعرف فأننا أقوم به »

فبغت الخليفة لهذا الاقتراح وقال « كيف تفعلين . أليس ذلك شاقاً عليك »
قالت « انه هين . . واستأذن مولاي ان لا يسألني كيف أصنع وإنما
أتعهد له ان آتية بالخبر اليقين وأرغب اليه ان يستزيدني بياناً »

فاستغرب القوم رغبتها في كتمان سعيها ولكنها لم تدع لهم باباً للاستفهام
فسكتوا فقال الخليفة « لم يمر بي يوم اطلعت فيه على امور هامة مثل هذا
اليوم - والفضل لك يا لمياء . بارك الله فيك وقواك في نصرة الحق . . »

الفصل الخامس والاربعون

الحسين ولمياء

وتزحزح الخليفة قهض القائد وانصرف ومعه الحسين وانصرفت أم
الامراء ولمياء من جهة أخرى . وعلمت أم الامراء ان لمياء تحب الاجتماع

بالحسين بعد ما وقع من الغرائب . وان الحياء يمنعها من طلب ذلك فلما وصلت غرفتها معها بعثت أحد الصقالبة يدعو الحسين إليها وأمرت لملياء بالجلوس . وأخذت تحدثها في مدار من الحديث في تلك الجلسة وهي تريد استبقاءها ريثما يأتي الحسين

وبعد قليل جاء الصقلي وقال « ان القائد حسيناً أتى »

فلما سمعت ملياء ذكره فأول ما تبادر الى ذهنها ان تهض وتنصرف . فاقعدتها أم الامراء وقالت « الى أين ؟ »

فقعدت وهي ترتعد من تلك المفاجأة وأحست أم الامراء بذلك لما أمسكت يدها لتقعدھا فانها كانت باردة كالثلج فقالت « ما بالك ترتعشين من سماع اسم الحسين ؟ ألا تزالين تفكرين في سواء ؟ ماذا جرى بمنظره القديم أين هو ؟ »

ولم تسمع ملياء ذلك حتى اقشعر بدنھا وامتقع لونھا وأخذھا الغضب لتذكرها خيانة سالم . فاكثفت بالنهد ولم تجب . فقالت أم الامراء « لم تقولى لى عن اسمه بعد . أعله كان في جملة أولئك الحائنين ؟ أرجو ان يكون كذلك فنكون قد خلصنا منه »

فلم تزد ملياء على الاطراق وقد ترقرقت الدموع في عينيها وتذكرت ان الحسين يعرف سالماً من تلك الليلة . أما أم الامراء فقالت « لقد ابطأنا في الاذن للحسين في الدخول » والتفتت الى الصقلي وقالت « يدخل »

وبعد لحظة دخل الحسين وهو لا يزال بثياب الركوب كما كان ساعة وصوله . دخل وهو لم يكن يتوقع ان يرى ملياء هناك وانما ظن أم الامراء تحتاج اليه في خدمة وكثيراً ما كانت تدعوه وتكلفه ببعض المهام . فلما دخل ووقع بصره على ملياء اجفل كما أجفأت هي ووقف فالتقى التحية على أم الامراء ثم حيا ملياء عن بعد باحناء الرأس . فقالت أم الامراء « لا يلذ لى ان ارا كما بعيدين وأنا قد بذلت الجهد في جمعكما فانك ابن قائدنا وهذه ملياء ابنتي . ومع ذلك فقد جمعت نفسي والدتك وقت بتأدية المهر عنك »

قالت ذلك بلطف ومداعبة . فتلعثم لسان الحسين عن الجواب ولكن الامتنان بان في ملاحه

وتقدم نحو لمياء وهو يقول « ان لمياء ذات فضل كبير علي لانها انقذت والدي من القتل فلا أدري بما أ كافئها »
 فقالت لمياء « اني لم افعل شيئاً يستحق الذكر . واذا كنت قد فعلت شيئاً فهو في سبيل خدمة مولاي أمير المؤمنين الذي نقديه بارواحنا . ولا أراك أقل تفانياً في سبيل مصلحته مني . . »

فأشارت أم الامراء الى الحسين ان يقعد على وسادة أمام الوسادة التي كانت لمياء جالسة عليها واظهرت انها ذاهبة في أمر ذي شأن خطر لها فجأة . وهي انما فعلت ذلك رغبة في انفراد الحبيبين لانها وجدت نفسها ثقيلة بينهما . وكانت من أرق الناس أحساساً وأكثرهم تعقلاً لا تفوتهما ملاحظة . فهل شعر الحبيبان انها خرجت عنوة مراعاة لأحاسسهما ؟ هب انهما أدركا ذلك لكن الحب يشغل المرء عن سواه أو أن صاحبه يرى ما يمر به من الاحوال مغطاة كأنه ينظر اليها من وراء حجاب - هو الحب . وقد يأتي في سبيل حبه اعمالاً يحسبها خافية على الناس وهم يرونها باجلى مما يراها هو ولكنهم لا يقولون فيحسبهم غافلين

جلس الحسين وهو ينظر الى لمياء وهي مطرقة حياء وقد مر في خاطرها تاريخ حياتها منذ عرفت سالماً وكيف علفت به وتمشقه حتى أبت ان تحيب دعوة سواه . وتذكرت الليلة التي لقيت فيها حسيداً لأول مرة وما أبداه من الشهامة في معاملتها وكيف انتهت ليلتهم بفشل سالم وخطر لها حالا ما قاله الحسين عند وداعها من كتمان أمر سالم وانه عرفه وعفا عنه . وكيف انها رضيت بالحسين أولاً طوعاً لا مر سالماً ثم أصبح هذا أعدى اعدائها . فأحست بانعطاف الى الحسين وأساس انعطافها الاعجاب بشهامته ومروءته

مر ذلك كله في خاطرها سريعاً والحسين جالس بين يديها وبهم ان يخاطبها ولا يعرف بماذا يبدأ . ثم خطر له ان يعزيها على والدها ويشجعها

فقال « لقد ساءني يا لمياء ما أصاب أباك الأمير رحمه الله ولكننا سنثار له من ذلك الحائن واعلمي اني غير راجع عنه حتى اذيقه حتفه »
 فرفعت بصرها اليه وقد ذبلت عيناها وقالت « عرفت شهامة الحسين من قبل على غير تعمد . عرفته عفواً ولا أنسى تلك الاريحة التي قيدني بها لا أنسى قولك تلك الليلة وقد أدركنا ذلك الرجل المثلث وأوشك ان يقع فريسة - فأنقذته وطلبت كتمان أمره . . . »

فقطع كلامها قائلاً « لا أزال أريد كتمان أمره دعينا منه . انما أحب أن أعلم هل للحسين مكان عندك » قال ذلك وعيناها تبرقان فرآها ساكنة ولحظ دمعيتين انحدرتا على خديها خلسة فاحس بنار اتقدت في بدنه وهب جسمه كأنك صببت عليه ماء غالياً . قدم على سؤاله مخافة ان يكون في غير اوانه وهي في حال الحزن على أبيها فابتدرها قائلاً « اظني تعجلت في الحديث وانت في شاغل من امر والدك رحمه الله فاصفحي عن جسارتني . . . »

فمسحت عينيها بمنديل أخرجه من جيبتها وقالت « ان حزني على والدي شديد لكن خطابك تعزية كبيرة لقابي الكسير » وتهدت والتفت نحو الباب كأنها تحاذر ان يدخل أحد عليهما
 فقال الحسين « هل في الدنيا أرق عاطفة وأطيب قلباً من هذه الملكة اني لا اظنها تركتنا وحدنا الا عنوة فلا ينبغي ان نضيع هذه الفرصة . هل أعددت للحسين مكاناً في قلبك ؟ . . . »

الفصل السادس والاربعون

التعاهد

فتهدت ورفعت بصرها اليه وهي تهم بالكلام فلم تستطعه فاطرقت وتشاغلت بمنديلها تطويه بين أناملها وقد تصاعد الدم الى وجنتيها . فلاحظ قلبها فاراد مداعبتها فقال « لم يكن عهدي بلمياء الفارسة الشجاعة أنها

ترتبك في حديث مثل هذا . ولكنني اقرأ الجواب في عينيك . لم أكن أجهل نظرك الي من قبل ونظرك الي اليوم . كنت أشعر أنك تساقين الي حبي كرهاً لعل قلبك كان مشغولاً بسواي . . لا أدري . أما الآن فاني أقرأ شيئاً آخر في عينيك . انما اطلب اليك ان تقولي كلمة ونحن منفردان هنا باذن أم الامراء وهي لم تخل لنا المكان الا باختيارها . قولي هل تحبيني ؟ وانما أسألك ذلك لانا سنفترق وربما طال فراقنا . فاذا سمعت منك الكلمة التي اريدها كانت لي ذخراً في أثناء الفراق أتعلل بها ربها نلتقي »

فتهدت ثانية وتجلدت وقالت « انك تقول عني وتعبير عن افكاري . أما لمياء الفارسة الشجاعة كما تقول انما تكون كذلك في حومة الوغي وأما في هذا الموقف فاني أسيرة مسكينة . سألتني سؤالاً لا أجيبك عنه الا بعد أن تحبيني على سؤال »

فاستبشر وقال « سمعاً وطاعة اني رهين اشارتك يا حبيبتي » قال ذلك وقد أخذ منه الهيام مأخذاً عظيماً

قالت « اني أسألك هل تعاهدني على التفاني في مصلحة المعز لدين الله حتى ننتقم له أو نموت . »

فاعجب بتفانيها في حب المعز وكيف انها فضلت التعاهد على نصرته قبل كل شيء . فقال « نعم اعاهدك ان اكون طوع ارادتك في كل شيء وهذا من الجملة . اني أحبك يا لمياء واعجب بخلالك ومروءتك . . كنت أحسبني مؤدياً ما يجب علي في خدمة أمير المؤمنين فلما رأيت ما أنت فيه من الغيرة عليه رأيتني مقصراً عاجزاً .. ها قد اجبتك على سؤالك فاجيبيني على سؤال »

قالت « وما هو »

قال « تحبيني ؟ هل تعاهديني على الحب حتى نلتقي ؟ »

قالت « نعم اني أحبك وهذا يكفي . وأما الثبات في الحب حتى نلتقي فانه متعلق بما نحن آخذون به من نصرة أمير المؤمنين . ونصرته هي واسطة

عقدنا . وقد تعاهدنا على ذلك ويسرني انك أخذت على نفسك الذهاب الى جبل ايكجان لحمل الاموال المدفونة هناك . . . ولكن . . . » وسكتت وقد ظهر التفكير في عينيها

فقال « ما بالك . . ما الذي خطر لك حتى سكت . . اظنك خفت علي ما يعتور هذه المهمة من المشاق . . » قال ذلك ونظر في عينيها ففهم منها انها تحجب نسمة . فقال « لا تخافي علي يا لمياء اني لا اهاب الموت ولا سيما بعد ان زودتني بتلك الكلمة الثمينة . . انها ستكون تعزيتي في أشد ضيقي - وهي تشجعني في المخاوف . . لا تخافي علي من شيء . . »

فتهدت وقالت « آه من الحب ما أحلاه وأمره ! ان الاحباء يبذلون كل مرتخص أو غال في سبيل الاجتماع أما نحن فتعاهد على الفراق . ولكن خدمة أمير المؤمنين واجبة . . اني أشعر بفضل علي واني بحب ان أنصره و . . » وسكتت وقد خطر لها أنها تطلب شيئاً آخر غير نصرة أمير المؤمنين - تطلب الانتقام من ذلك الحبيب الخائن فلم يدرك الحسين مرادها وانصرف خاطره الى مهمتها فقال لها « قد علمت مهمتي الى فج الاخير لحمل ما فيه من المال لكنني لم أفهم مهمتك . . »

فتحركت واعتدلت في مجلسها وقالت « قد قلت لامير المؤمنين اني سأسعى في استطلاع دخائل المصريين واحوالهم وأني سأفعل ذلك بطريقة لا أقولها الآن . . لا تغضب يا حبيبي اذا لم أقول لك »

فلما سمعها تناديه « حبيبي » اختلج قلبه في صدره ونسى ما كان يبحث عنه ولم يشأ ان يستزيدها بل تهيب من الالحاح عليها . وكان منذ خاطبها وهو يشعر بسلطانها عليه فلم يجسر على تكرار السؤال فقال « افعلي ما بدا لك وكفاني انك ناديتني بلفظ الحب وهذا تذكار سأحفظه - ربما لا يتاح لنا الاجتماع في مثل هذه الفرصة مرة أخرى قبل سفري . ولذلك فاني أحب أن لا تنقضي هذه الساعة . . ما أطف أم الامراء وما اكثر فضلهما »

قالت « ان هذه الساعة مباركة سنذكرها ما حيننا . وعسى ان يكون

اجتماعنا الثاني في مصر تحت ظل امير المؤمنين «
 فاعجب بتعبيرها وكبر نفسها وشدة رغبتها في فتح مصر واستهانتها
 بفتحها وقال « ارجو ان نوفق الى ذلك يا حبيبتى . . إنها أمنية تمنناها جميعاً
 وخصوصاً أنا لان ذلك الاجتماع سيكون أكيداً لنا لا نخاف بعده فراقاً
 باذن الله اذ تكون لمياء حينئذ لي وأنا لها »

فقلت وهي تبسم « ألا تشعر بارتياح عند تفكيرك بذلك النصر الا
 يلذ لك ان تتصور راية المعز تخفق على ضفاف النيل وقد امتد سلطانه الى
 هناك . . أما أنا فأكاد أسكر بمجرد تفكيري بدخول جيش امير المؤمنين
 الى القسطنطينية واسمع أهله يؤذنون بحمي على خير العمل ويصلون على علي
 المرتضى وعلى فاطمة البتول وسائر الأئمة الطاهرين . ولا بد ان ينصر الله
 أبناء فاطمة الزهراء فانها بنت الرسول وهم اصحاب الحق في الخلافة ولا بد
 ان يملكوا الدنيا كلها . . » قالت ذلك وقد اشرق جبينها وأبرقت عيناها
 كأنها منيت بنعمة لم تكن تتوقعها

فازداد اعجاباً بمروءتها وغيرتها وود لو تكون أم الامراء حاضرة
 لتسمع ما قالته لمياء ولسمعه عزم ان ينقله اليها في فرصة أخرى فقال
 « انى احسبني اخاطب ملاكاً هبط من السماء وأعد قولك وحيلاً لا بد من
 اتمامه باذن الله »

الفصل السابع والاربعون

أم الامراء

وهما في ذلك سمعا خفق نعال في الخارج عرفا أنها نعال أم الامراء .
 وسمعاها تخاطب أحد الغلمان بشأن من شؤون القصر . وهي اما تريد بذلك
 ان تنبه الحبيبين الى قدومها قبل دخولها عليهما حتى لا تدخل فجأة . وفي
 ذلك من دقة الاحساس وسلامة الذوق ما فيه

فاستعدا لاستقبالها ثم دخلت وهي تهش لهما وبادرت الى الاعتذار بان
امير المؤمنين شغلها فلم تقدر على البقاء معهما . فقال الحسين « كم كنت
احب ان تكوني هنا لتسمعي ما قالته لمياء .. أنت تعلمين تعلقي بمولاي امير
المؤمنين وانا صنيعته وعبداه وابن عبده لكنني رأيت من تعلق لمياء اضعاف
ما اعرف في احد من الناس »

فضحكت ام الامراء وقالت « تعني تعلقها بك ؟ »
قال « كلا انما اعني تعلقها بامير المؤمنين والاستهلاك في خدمته حتى
اشترطت علي ان اول شيء نتعاهد عليه انما هو التفاني في مصرته »
« فقلت « لم اقل انك لا تجد مثلها في القىروان ولا في المغرب
كله ؟ »

فاجاب على الفور « ولا في مصر أو بغداد »
فظلت لمياء ساكنة من الحياء فهض الحسين وودع ام الامراء ثم تقدم
الى لمياء وقال « استودعك الله الى ان نلتقي » ومد يده لمصافحتها
فمدت يدها ونظرت اليه وصافحته وهي تقول « في مصر ان شاء الله »
فوقع قولها وقعاً جميلاً في اذني ام الامراء وفهمت منه ما يكفي .
فاكبت عليها وضممتها وقبلتها وقالت « بارك الله فيك يا ابنتي يا حبيبتى لله
انت من فتاة نادرة المثال »
ثم تحول الحسين وهو يقول « لا اظننى استطيع مثل هذا الاجتماع
قبل سفرى الى فج الاخيار ومتى عدت ابن أراك »
قالت « في القسطاط في قصر مولاي المعز لدين الله على ضفاف النيل
ان شاء الله »

فكان لقولها تأثير في قلب ام الامراء لما ينطوى عليه من التفاؤل
الحسن مع التفاني الصحيح والتفتت اليها ثم نظرت الى الحسين وابتسمت
وقالت « المراد ان تجتمعا وتسعدا معاً وذلك غاية ما يرجوه امير المؤمنين »
ثم أومأت الى الحسين مودعة فودعها وهم بالخروج وهو ينظر الى لمياء
نظرة المحب الوهان ولم تكن هي أقل تأثراً منه لكنها قد هاجت فيها

عواطف الغيرة والنقمة فقالت له « الى أين يا حسين؟ »

فرجع اليها وقال « الى فج الاخيار »

قالت « وهل انت على بينة من مكانه وسائر أحواله ؟ »

فبغت من هذا السؤال وأطرق خجلاً لانه كان عازماً أن يسألها عنه

فشغل بذلك الحديث ثم رفع رأسه وقال « أعرف قليلاً وسأبحث وأسأل .

فهل تخبريني عنه شيئاً وهل تعرفينه ؟ »

قالت « لا أعرفه لاني لم أصل الى ذلك المكان لكنني أسمع انه في

بلد بعيد في أواسط الصحراء من بلاد كتامة . ولا بهمني بعده وإنما يهمني

ما هناك من وسائل الدفاع عنه لاني كثيراً ما سمعت بما اتخذهُ أصحابه من

الطرق لاختفاء الاموال وصيانتها »

فقطع كلامها قائلاً « لا تبالي يا لمياء بشيء من ذلك . . فان ما رأيته

من حماسك وغيرتك ومروءتك يصغر كل كبير ويهون كل صعب . .

كوني مطمئنة » . ومد يده لمصافحتها وهو يقول « أعود فأودعك ثانية

وأطلب اليك أن تفكري في أحياناً . وهذا يكفيني لنجاح مساعي » ثم

ودعها وخرج وهي تقول « سر بحراسة المولى فانه آخذ بيدك في نصرة

الحق وكبت الظالمين »

الفصل الثامن والاربعون

الكتاب

وبعد خروجه أرادت لمياء أن تودع أم الامراء فأمسكتها وأقعدها

فقعدت وهي تنظر اليها كأنها تستفهمها عما تريده . فقالت أم الامراء « هذا

الحسين قد عرفنا وجهته وخطته أما أنت ف. . . »

فقطعت لمياء حديثها رغم ارادتها وقالت « أستاذك يا سيدتي أن

لا تسأليني عن ذلك »

قالت « ولماذا هذا التستر ؟ »

قالت « أرى فيه فألاً حسناً . وماذا يهملك اذا عرفت خطتي أو وجهتي ؟
وانما يهملك أن آتى مولاي أمير المؤمنين بأخبار تلك الدولة »
قالت « ولكن أمرك يهمني لئلا تلقى بنفسك في هلكة نظراً لما في
مهمتك هذه من الاخطار مما يربى على مهمة الحسين »
قالت « لا تخافي يا سيدتي لان نصير أمير المؤمنين سلالة بنت الرسول
لا بد من أن ينجيه الله وينصره على أعدائه . غير اني أتقدم اليك بأمر
هو واجب بمجد ذاته »

قالت « قولى ماذا تريدن »

قالت « ان يعقوب بن كلس اليهودى المقيم بمصر أرسل تلك الرسالة
المستعجلة الى سيدي المعز لدين الله فهو صاحب فضل كبير . أليس كذلك ؟ »
فحنت أم الامراء رأسها اذعاناً للحق وقالت « نعم انه صاحب الفضل
الا كبر ولولاه لنفذت حيلة ذلك الشرير »
فقات « ألا ترين أن يكتب أمير المؤمنين كتاباً يشكره فيه ليستم
على خدمته في مصلحة هذه الدولة ! »

قالت « صدقت وأظنه فاعلا ذلك »

قالت « مع من يرسل الكتاب ؟ »

فانتبهت أم الامراء لغرض لمياء من هذا السؤال فقالت « لا أدري
وأظنه يرسله مع أحد غلمانه في قافلة او بطريق آخر . . . وهل يهملك
هذا الامر ؟ »

فقالت وهي تحك وراء أذنها « لا . . . لكن . . . » وأطرقت

فقالت أم الامراء « قولى يا لمياء ماذا يخطر لك . . لا تخفي عني شيئاً »

قالت « اريد ان أسارك في أمر يهمني حفظه مكتوماً . . هل افعل ؟ »

قالت « افعلى ولا تخافي بعد ان ارتفع حجاب الهيبة من بيننا وأنت

بمنزلة ابنتي تماماً كما قلت لك مراراً . بل لا أرى ابنة أو ابناً يعامل والديه

بما تعاملينا به يا لمياء » قالت ذلك وبان الاهتمام في جبينها

فابتسمت لمياء وأبرقت عيناها عند سماع ذلك الاطراء وقالت « ان

سري يا سيدتي يتعلق بالطريق المؤدي الى خدمة امير المؤمنين «

قالت « قولى يا عزيزتي »

قالت « أحب ان اكون انا رسول امير المؤمنين الى يعقوب هذا .

ولا أريد ان يطلع سيدى الخليفة على ذلك . . دبري طريقة »

فاستغربت أم الامراء هذا الطلب على هذا الشكل وقالت « وما هو

غرضك من هذا التكم ولماذا ؟ »

قالت « لعلمي ان السر اذا جاوز الاثنين شاع ولولا حاجتى الى

مساعدتك في نيل الكتاب لكتمت هذا عنك . ولذلك أتقدم اليك

بالحاح ان تكتمى خبري . وقد قلت لامير المؤمنين اني سأسعى في استطلاع

حال مصر بطريقة لا احب ان يعرفها احد . وكنت اود ان افعل ذلك

بدون ان اكشفك بأمر الكتاب . فلا تسألني يا سيدتى عن الاسلوب

الذي سأتحذه في البحث . انما أتقدم اليك ان تستحيى سيدى امير المؤمنين

على كتابة الكتاب واجعلى انك سترسلينه مع أحد الغلمان أو أوصي

الرسول اذا أخذ الكتاب ان يأتي به اليك أو كما تشائين . والمراد ان

تسلمي الى الكتاب وتطلتي سبيلي بدون ان يعلم أحد بجهة سفري »

فضحكت أم الامراء وقالت « اني لا احتاج في ما أطلبه من المعز

لدين الله الى حيلة أو وسيلة وسأفعل ذلك اكراماً لخاطرك . . ولكنني

سأشتاق الى رؤيتك فقد تعودت جوارك و . . » ودمعت عيناهما

فأثر ذلك المنظر في لمياء وأحست بشيء يجذبها نحو تلك المرأة فلم

تمالك عن الترامي على كتفها وقد سبقتها دموع الامتان . فضمتها أم الامراء

الى صدرها وقبلتها وقالت لها « ولكن عسى ان تعودى سالمة ظافرة ويعود

الحسين أيضاً فائزاً فزقان في هذا القصر ونسى ما قاسيته من الشقاء . . »

فتجلدت لمياء واعتدلت وقد بانت الحماسة في عينها وقالت « انما يكون

ذلك في الفسطاط باذن الله »

فاعجبت أم الامراء بغيرتها وضحكت وضممتها ثانية وودعتها على ان

تدبر أمر الكتاب

وانصرفت لمياء الى غرفتها وأخذت تفكر في ما هي مقدمة عليه من الامر العظيم - سفر وخطر وبعد وشوق - لكنها تجللت واستحشت عاطفة الشجاعة وقالت في نفسها « لا بد لي من الصبر حتى انتقم لوالدي وأثأر لنفسي من ذلك الحائن الذي خدعني وأراد ان يجعلني ضحية مطامعه » وسكتت وأطرقت وهي واقفة أمام المرأة تنزع ثيابها . وتصورت ما كان لسالم من المنزلة عندها نحفق قلبها وسبق الى ذهنها حسن الظن به فقالت « قد يكون ابن كلس منافقاً أو مخطئاً . . هل يمكن ان يكون سالم خائناً الى هذا الحد ويخدعني عدة سنين ؟ . لا . لا . إذن كيف افسر عمله ؟ ولو كان صادقاً في حبه لم يوافق على الفتك بابي .. ولكن سأتحقق ذلك بمصر قريباً »

وكانت قد فرغت من نزع ثيابها فاستلقت على الفراش للراحة والتأمل وأجأت الحكم في كل شيء الى ما بعد وصولها الى مصر وبعد بضعة أيام أتتها ام الامراء بكتاب المعز لدين الله الى يعقوب بن كلس . فتناولته وودعها سرّاً وكان وداعاً مؤثراً . وكانت لمياء قد أعدت كل ما يلزم للسفر من الخدم والادلاء لان الطريق من القيروان الى مصر بعيدة الشقة لا تقطعه إلا القوافل وقد أعدت شبه بريد مؤلف من اربعة افراس مع ما يلزم من الخدم والحرس وجعلت ان ذلك البريد يحمل غلام امير المؤمنين الى مصر . ولما أتتها الكتاب تنكرت بثوب غلام صقلي وركبت ولا يشك من رآها في انها غلام الخليفة يحمل رسالة في مهمة . وسار الراكب قاصداً مصر

الفصل التاسع والاربعون

الفسطاط

كانت الفسطاط عاصمة الديار المصرية ومقر الامارة منذ بناها عمرو بن العاص . فلما تولى احمد بن طولون جعل مقره في القطائع كما تقدم في

رواية احمد بن طولون . ثم ذهبت الدولة الطولونية وأفضت الامارة الى محمد الاخشيد فجعل مقره الفسطاط فعادت الى رونقها وزادت عمارتها وتزاحمت الاقدام فيها حتى فاقت البصرة والكوفة في كثير من الوجوه وبلغ طولها على ضفة النيل ثلاثة أميال . وذكر مؤرخو العرب من مقدار عمارتها انه كان فيها ٣٦٠٠٠ مسجد و ٨٠٠٠ شارع مسلوكة و ١١٧٠ حماماً . وقد يستبعد ذلك ولكن إيراد يدل في كل حال على العظمة وال عمران . ومما نظمه الشعراء في مدحها قول الشريف العقيلي :

أحن الى الفسطاط شوقاً وانني لادعو لها ان لا يحل بها القطر
وهل في الحيا من حاجة لجنابها وفي كل قطر من جوابها قطر
تبدت عروساً والمقطم تاجها ومن نيلها عقد كما انتظم الدر
وبلغ من تراحم الناس في الفسطاط حتى جعلوا المنازل طبقات عديدة
بلغ بعضها خمس طبقات الى سبع . وربما سكن في البيت الواحد ٢٠٠ من
الناس . وبلغت نفقة البناء على بعضها ٧٠٠٠٠٠ دينار وهي دار الحرم
لخارويه

واشهر من تلك الابنية دار ضرب المثل بعظمتها وغنى اهلها تسمى
« دار عبد العزيز » كانت مطلة على النيل بانح من سعتها وكثرة ساكنيها
انهم كانوا يصبون فيها اربعمائة راوية ماء كل يوم . ونقل بعضهم ان
الاسطال التي كانت بالطاقة المطلة على النيل بلغ عددها ١٦٠٠٠ سطل
مؤيدة بئكر وأطناب لها ترخي وملا . وذكر رجل دخلها في أواخر
القرن الثالث للهجرة في زمن خمارويه بن احمد بن طولون قال « طلبت بها
صانعاً يخدمني فلم أجدها فيها صانعاً متفرغاً لخدمتي وقيل لي ان كل صانع
معه اثنان يخدمهما وثلاثة فسألت كم فيها من صانع فاخبرت ان بها سبعين
(كذا) صانعاً قل من معه دون ثلاثة سوى من قضى حاجته وخرج »
وفي ذلك دليل على غنى أهل الفسطاط وترفعهم ومن هذا القبيل
استكثارهم من الفرش . فقد يقتني أحدهم ألف فرشة او عشرة آلاف
فرشة . وذكروا ان رجلاً من اهل الفسطاط عنده ثلاثمائة فرشة كل

فرشة لحظية . وكذلك كانوا يفعلون بالثياب ونحوها وقد تكون أثمانها فاحشة فلا يبالون لغنائهم . قال القاضي ان قطر الندى ابنة خمارويه كان في جملة جهازها الف تكة ثمن كل واحدة عشرة دنانير فبلغ ثمنها كلها عشرة آلاف دينار - فاذا كان ذلك شأن الفسطاط في زمن آل طولون ودار الامارة في القطائع . فكيف بعد ان عادت دار الامارة اليها في عهد الدولة الاخشيدية ؟

وأشرفت لمياء على مدينة الفسطاط من جهة الشمال الغربي في صباح يوم صفا جوه فوق بصرها على المدينة عن بعد فلفت اعينها جامع عمرو في وسطها وحوله الابنية الكبيرة بينها المآذن العديدة . ووراءها النيل قد رست فيه السفن في ميناء الفسطاط من جهة الغرب . وبانت سواربها مصطفة كالرماح اذا تقلدها صف من الفرسان وقف بنظام . وبين الفسطاط والمقطم البساتين والغياض وفيها الاشجار الغضة وأنواع الرياحين والازهار . اجملها بين المقطم والخليج بستان الاخشيد او البستان الكافوري (في محل الازهر والسكة الجديدة من ابنية القاهرة اليوم) والى جنوبي الخليج ناحية المقس ومناخ المهراني وأرض الطباله (وهي الاماكن التي عمرت فيها بعد ذلك الفجالة والظاهر والتوفيقية والازبكية وغيرها ، فأخذت لمياء تسأل دليل الركب عما يقع بصرها عليه من البساتين وهو يقص عليها . ثم استوقف بصرها بستان واسع فيه بقعة كاليدان قد نصبت فيها الخيام فقالت للدليل « ما هو هذا البستان ؟ »

قال « هو بستان الاخشيدي يا سيدي »

قالت « أراه جميلا . فلنخرج اليه للراحة ثم نواصل السير »

قال « لا يمكننا ذلك الآن ولو جئنا في غير هذا اليوم ربما استطعنا

دخوله »

قالت « ولماذا »

قال « ألم تر يا سيدي الخيام المنصوبة في وسطه وعليها الاعلام ؟ »

قالت « بلى وما هي ؟ »

قال « هذه سرادقات نصبوها للامير كافور الاخشيدي صاحب مصر الآن لانه منحرف الصحة وأشار عليه طبيبه ان يقيم في الخلاء لعله ينتفع »

قالت « هل كافور هو أمير مصر الآن ؟ »

قال « نعم يا مولاي هو أميرها منذ عامين .. ونعم الامير »

فسكنت ومحاولت الى مرتفع بجانب المقطم يطل على ما تحته الى النيل فاعجبها ما رآته من العمارات التي لا تعهد لها في القيروان ولا في غيرها من البلدان التي مرت بها . ولفت انتباهها على الخصوص لمعان سطح النيل وراء الفسطاط . ووراء النيل بساتين الروضة والحيزة ووراءها الاهرام تناطح السحاب . وقد اكتنف النيل على ضفتيه بساتين النخيل الباسقة تختلط رؤوسها برؤوس السواري البارزة عن السفن السابحة في مياه الفسطاط تحمل اليها الغلات والسلع وضروب الانسجة من كل صقع وبلد . فزادت رغبتهافي ان تصير هذه البلاد الى المعز لدين الله . وتصورت الخليفة قد دخلها فاتحاً ورفع اعلامه فوقها فاختلف قلبها فرحاً

الفصل الخمسون

الشيعة بمصر

ثم ما لبثت ان عادت الى التفكير في المهمة التي قطعت تلك الصحراء من أجلها فكان أول همها ان تبحث عن منزل يعقوب بن كلس ولكونها أمرت صاحب الركب ان يسوق الافراس الى فندق أو خان فينزلون فيه . فاخذهم الى فندق قديم يعرف بفندق ابن حرمة بأول سوق العدسين . وكانوا وهم يمرون في الاسواق لا يلتفتون الانظار لكثرة من يدخل الفسطاط يومئذ من القوافل القادمة من الشام والعراق والمغرب والسودان وغيرها تحمل البضائع والغلال والريش والصمغ والجواري والغلمان على

البغال أو الافراس أو الجمال - غير ما ينقل بحراً عن طريق النيل وما زالوا حتى أتوا الفندق فامرت لمياء صاحب الركب ان يهتم بالافراس وهو لا يشك في أنها غلام . وبعد الاستراحة قليلاً توجه همها الى السؤال عن بيت يعقوب بن كلس فطلبت صاحب الخان الى غرفتها فجاء فرحبت به وكانت قد بالغت في اكرامه ودفعت اليه اضعاف ما طلبه من الاثمان أو الاجور فاصبح طوع ارادتها فلما دعتة اليها وقف بين يديها وأدهشه جمال ذلك الغلام الصقلي وما في عينيه من الذكاء

وكان الخاناني (صاحب الفندق) شيخاً لطيف المحضر قد عرّكه الدهر وشهد تقاب الدول على مصر من اواخر دولة آل طولون . وكان في جملة من شاهدوا الفتك بالطولونيين وخرائب القطائع . وعاصر الاخشيد لما جاء حاكماً ونزل الفسطاط . وكثيراً ما مر به الزلاء من سائر الطوائف والعناصر من الاتراك والارمن والشوام والمغاربة والفرس والشراكسة والسودانيين وغيرهم

وأصحاب الفنادق والحانات والقهوات ونحوها من الاماكن العمومية اقرب الى اللطف ودمائة الخلق من سائر طبقات العامة . لانهم يتعودون الصبر على الضيم وسعة الصدر باضطرارهم الى مسايرة الناس على اختلاف اهوائهم وطبائعهم . فبأتاهم السكرات والمعربد والثقل والبارد والمتكبر والمحتمل وهم مضطرون بحكم الارزاق ان يرضوهم كما يرضون سواهم . فاذا لم يكن فيهم استعداد للقيام بذلك هجروا تلك المهنة وعدلوا عنها الى سواها . واذا ظلوا فيها فلا تزال الحوادث تعركهم والتجارب تحنكهم حتى تصير اخلاقهم كالمجبن لينا ودمائة

فكان صاحبنا الخاناني من هذا القبيل فلما رأى لمياء وهو يعتقد أنها غلام صقلي (وأكثر ما كان يأتي الصقالبة يومئذ من جهات المغرب) عرف انها قادمة من بلاد المغرب فضلاً عما دله على ذلك من ملابس رفقائها وكلامهم . فقالت له « يظهر انك قديم في هذا البلد يا عماء » قال « أنا يا سيدي قديم جداً »

قالت « وقد مر بك الوف من الزائرين من سائر الملل أليس كذلك ؟ »

قال وهو يمشط لحيته بأنامله « نعم يا سيدي أني اعرف من احوال الناس أكثر من شعر هذه اللحية » وضحك
فارتاحت لمجونه مع شيخوخته وهمت بالسؤال عما يفيدها فقالت « أتعرف رجلا اسمه يعقوب بن كلس »

فهرز رأسه هز الاعجاب وقال « كيف لا أعرفه وهو من كبار رجال الدولة وقد رأيته أمس ماراً على بغلته . ويندر بين اليهود من يؤذن له بركوب البغال »

فقالت « وكيف أذن له بذلك »

قال « لان كافوراً اميرنا فتن بذكائه ومهارته فجعله من خاصته وعظمت منزلته عنده حتى اصبح لا يمضي أمراً إلا بتوقيعه »
فاستغربت ذلك وقالت « أين يقيم الآن ؟ »

قال « يقيم في منزل نخم بجانب زقاق اليهود على مقربة من هذا المكان »

قالت « هل ترسل معي من يرشدني الى منزله ؟ »

فنهض الشيخ وقال « أنا اسير في خدمتك الى منزله »

فقالت « لا حاجة الى تعب سرك يكفي أن تدلني عليه من هنا »

فمشى وهو يظن انه يكرمها بهذه الخدمة وقال « لا . لا . بل امشي في خدمتك يا سيدي . . ولهذا المنزل طريقان أحدهما قصير لكنه ضيق مظلم والآخر طويل منير جميل . . والاحسن ان نسير في الطريق الطويل »
قال ذلك ومشى وهو يتوكأ على عكازه

فأطاعته لمياء ومشت في أثره وهي بلباسها الخاص بغلمان الصقالبة -
وانما اختارت ذلك اللباس لان اصحابه أقرب بوجوههم وأصواتهم الى النساء فلا يستغشها من يتوهم في صوتها غنة النساء . فمشيا بزقاق ينتهي الى رحبة واسعة رأت لمياء فيها الجماهير يتزاحمون ويتراكمضون فسألت عن

المكان فقال « هذا جامع عمرو بن العاص يا سيدي »
 قالت « قد سمعت به كثيراً وكنت أود ان اصلي فيه لكنني سأفعل
 ذلك في فرصة اخرى »

فقال « تفضل يا سيدي لأريك الجامع ثم نسير في طريقنا » ومشى
 أمامها مسرعاً وهو ممسك بطرف ثوبها كأنه يجبرها الى هناك
 ولم يكده يصل بها الى الباب حتى سمعت صوتاً ادهشها ورأت شيخاً
 واقفاً بالباب ينادي « معاوية خالي » فيرد عليه شيخ آخر في الجانب
 الآخر بمثل قوله - وهم يفعلون ذلك نكايه في الشيعة لانها تحتقر معاوية .
 فأحست لمياء عند سماع ذلك بغضب لانها تحب الشيعة اكراماً للمعز وأم
 الامراء. وحدثتها نفسها ان تصيح بالشيخين وتسكتهما فتذكرت انها غريبة
 وليس هذا وقت خصام . وهي تعلم تعصب حكومة مصر وأهل مصر يومئذ
 على الشيعة . لكنهما كانت تسمع ذلك عن بعد فلما رأتها رأي العين استغربته
 فتحولت عن باب الجامع والختاناني يتبعها ويقول « ما بالك يا سيدي لم
 تدخل الجامع لتراء على الاقل ؟ »

فقلت « سأرجع للصلاة في فرصة أخرى . ولكن ما بال هذين
 الشيخين يناديان هذا النداء »

قال « يناديان بذلك إغاظه للشيعة »

قالت « ألعك شيعي ؟ »

فصاح « استغفر الله . . لماذا تقول لي ذلك يا مولاي كأنك تريد أن
 توقعني في مصيبة ؟ »

قالت « ولماذا ؟ ألعك الشيعي كافر ؟ »

فأشار بسبابته على شفته السفلى كأنه يطلب سكوتها او يستمهلها في
 الجواب الى فرصة أخرى

فسكتت حتى اذا دخلا في زقاق منفرد قال الشيخ « احذر يا سيدي
 ان تجاهر بأمر الشيعة . . يظهر انك منهم . . »

فقالت « نعم أنا منهم وهل من بأس علي ؟ »

قال « كلا . . ربما هابوا لباسك وقيافتك . وأما الفقير اذا كان شيعياً ضربوه وأهانوه . وقد يضربون الكبراء ويسجنونهم ويهينونهم بلا شفقة » فلما سمعت ذلك الكلام لم تمالك أن صاحت « ويل لهم . . ألا يخافون الله »

فتقدم الشيخ وقال بصوت ضعيف « أنصح لك يا سيدي أن تغض النظر عما تراه ولا تعرض نفسك للاهانة »

فقلت « أليس في هذا البلد أحد من أهل الشيعة ذو مقام ؟ » قال « بلى يا سيدي هنا رجل شريف من سلالة الحسين اسمه مسلم بن عبيد الله الشيعي فان الناس يهابونه ولا يتعرض له احد بسوء^(١) لكن ما لنا ولهذا فقد دنونا الآن من زقاق اليهود وهذا منزل يعقوب بن كلس »

الفصل الحادى والخمسون

يعقوب بن كلس

تقدم الشيخ الى الباب ودقه بحلقة من الحديد في وسطه . فرد عليه البواب وفتح خوخة الباب وأخرج رأسه منها وهو يقول « من هذا » فقال الخانائي « ضيف يسأل عن المعلم يعقوب »

فأجال البواب نظره في الطريق فرأى لمياء واقفة بثوب الرجال فأعجبه هندامها فقال « تفضل يا سيدي . ان المعلم في المنزل » قال ذلك وفتح الخوخة على مداها وتجهى حتى دخلت لمياء بعد ان اشارت الى الخانائي اشارة الوداع وابتمت . فمضى الخانائي معجباً بلطف ذلك النزيل الكريم

أما لمياء فأشار اليها البواب ان تقعد على مقعد في مندره عند الباب وذهب لينادي يعقوب . وبعد قليل سمعت صوت يعقوب يقول لبوابه « ابن الضيف »

(١) ابن خلكان ١١٠ ج ١

فاجابه « في المندرة »

ثم اقبل يعقوب على المندرة فوقفت له لمياء فحياها بلطف وقال « مرحباً بالضيف الكريم . تفضل اجلس » وجلس على كرسي بين يديها وهو ينظر الى نظافة ثوبها وهي تنظر الى سحنته وتبين ملامحه فرأته على ابواب الكهولة وقد لبس الحية والعمامة الصغيرة وأرخى سالفه أمام أذنيه . ويظهر من شكل أنفه وحاجبيه انه يهودي ولكن الشرر يكاد يتطاير من عينيه لفرط ذكائه وحدة ذهنه

فاول شيء تبادر الى ذهنها ان تطلب الخلوة به لكنه سبقها الى الكلام فقال « من اين الضيف ؟ »

قالت من بلدة بعيدة « هل تأذن بخلوة ؟ »

قال « نحن في خلوة »

قالت « بل اريد خلوة ابعد عن ابصار الناس ومسامعهم »

فعرف من لحن صوتها انها من بلاد المغرب وحدثته نفسه لاول وهلة ان يكون لحيي هذا الصقاي علاقة بكتابه الى المعز . وكان ينتظر ورود الجواب عليه كل يوم . فلما طلبت الخلوة نهض ومشى امامها في حديقة كبيرة الى مصطبة صعد عليها الى بيت دخلا غرفة منفردة منه وأوصى يعقوب ان لا يقرب احد من بابه

وفي تلك الغرفة بساط من السجاد ومساند ومقاعد . فاشار يعقوب الى ضيفه ان يقعد على الوسادة . وجلس هو بين يديه وعيناه شائعتان ليري ما وراء هذه الخلوة فقالت لمياء « اني رسول اليك من الامام المعز لدين الله »

فلما سمع يعقوب اسم الخليفة تأدب في مقعده مبالغة في الاحترام وقال « مرحباً بك يا سيدي . كيف امير المؤمنين كيف صحته »

قالت « ان مولاي امير المؤمنين بعثني اليك لاحمل شكره لك ورضاه من رسالتك التي أنفذتها اليه »

قال ارجو ان تكون قد اتت بفائدة . . وأنا في قلق لان رسولي لم
يعد بعد «

فقالت « ولن يعود لانه قتل »

فاجفل وقال « وكيف وصلت الرسالة الى الخليفة ؟ »

قالت « وصلت بالاتفاق الغريب . . انا اوصلتها الى امير المؤمنين وهو
على وشك الوقوع في الفخ (وتهدت لانها تذكرت مقتل والدها » ولكن
وصول الرسالة نجاء وحاشيته من الموت »

فأبرقت اسرة يعقوب من نجاح مهمته لما يتوقعه من الارتقاء على أيدي
الفاطمين وقال « وكيف حدث ذلك . الا تقص علي الخبر . . قل بالله قل »
قالت « أحب قبل كل شيء ان اكشفك بسر آخر يخصني »

قال « تفضل يا سيدي »

قالت « أنت تخاطب فتاة لا رجلاً »

قال « أصبح ذلك ؟ قد توسمت في هذا الصوت لطف النساء لىكنني
رأيت في هاتين العينين قوة الرجال . . أما وقد أطلعتني على هذا السر فهل
تتممين جمالك وتفصحين لي عن حديث رسولي وكيف وصلت الرسالة
اليك ؟ »

قالت « لذلك حديث طويل سأقصه عليك باختصار وفيه اشياء كثيرة
لا تهملك ولىكنني سأقولها لك وثوقاً بدمتك واعتماداً على غيرتك وشرفك
لاستعين بك في بعض الامور التي تهمني شخصياً »

قال « قولي يا سيدي وثقي اني خزانة أسرار واني أبذل كل ما في
وسعي لأخذ بيدك في كل ما تريدنه »

فأخذت تقص عليه خبرها مع سالم مختصراً الى أن غلب أبوها على بلده
وصار في حوزة المعز وكيف خطبها لابن جوهر وما ظهر من كيد أبي حامد
حتى فشل على يده بوصول الرسالة . وكيف قتل رسوله وقتلت هي قاتله .
وانها قادمة لاستطلاع الاحوال والانتقام لنفسها الى آخر الحديث . وهو

مصنع كل الاصغاء فلما فرغت من حديثها قال لها « أنت إذن لمياء المسكينة »
 قالت « نعم أنا لمياء ولكنني لست مسكينة لأنني سأنتقم لنفسي من ذلك
 الخائن الغادر » قالت ذلك وحرقت اسنانها وبان الغضب في عينيها وأدرك
 يعقوب انها فتاة ليست كسائر الفتيات فقال لها كوني على ثقة اني أبذل
 وسعي في سبيل رضاك . ان أمة في نساءها فتاة مثلك أحر بها ان يتسع
 سلطانها وستقيمين هنا وتعرفين كل شيء في مدة قصير »

قالت « بلغني ان في هذا البلد رجلاً من الشيعة اسمه مسلم بن عبيد الله
 هل تعرفه ؟ »

قال « انه من أعز اصدقائي وهو الذي حبيب الي الاخذ بناصر الشيعة
 مع اني اسراييلي لكنني صرت اعتقد ان الحق بجانب الامام علي »
 فهزت رأسها وقالت « الحق يعلو ولا يعلى عليه وسوف يظهر اصحاب
 الحق ابناء بنت الرسول » قالت ذلك ومدت يدها الى جيبتها وأخرجت
 لفافة من الحرير استخرجت منها رقاً ملفوفاً وقدمته اليه وقالت « هذا
 كتاب من أمير المؤمنين اليك » ثم استخرجت حجراً من الالماس كبير
 الحجم كان قد وقع للمعز في بعض غزواته وهو يساوي بضعة آلاف دينار
 وقالت « وهذا هدية من مولاي الخليفة اليك »
 فتناولوه وقبله وفض الكتاب وقرأه فاذا فيه :

« من المعز لدين الله أمير المؤمنين الى يعقوب بن كلس
 » ان اخلاصك الصحيح قد تأكد لنا من رسالتك التي وصلتنا في
 ابان الحاجة اليها فوجب علينا شكرك وقد بعثنا اليك هذا الشكر شفاهاً مع
 رسولنا حامل هذا الكتاب . وسنذكر لك هذه الاربحية والغيرة الحقيقية
 في وقت يكون لك منه نفع صحيح . واذا زدتنا من عنايتك وصدق
 اخلاصك تضاعفت يدك لدينا والله يتولاك بنعمته »

الفصل الثاني والخمسون

مسلم بن عبيد الله الشيعي

فلما أتم القراءة قبل الكتاب ووضعه على رأسه ثم أعاده الى اللقافة وخبأه في جيبه فهضت لمياء فأحس يعقوب أنها تريد الذهاب للتعرف بمسلم بن عبيد الله الشيعي فهض ومشى بين يديها فقالت « أعل منزل الشريف بعيد من هنا »

قال هو جارنا لا نحتاج في زيارته الا الى خطوات قليلة بعد خروجنا من هذا الزقاق » فاعتصمت وجودها معه في الطريق وقالت « لم أحادثك بشأن سالم بعد »

فقال « لا حاجة الى زيادة الايضاح يا سيدي كوني مطمئنة » ولم يسيرا طويلا حتى وصلا الى بيت مسلم المذكور فتقدم يعقوب فطرق الباب وخاطب البواب . فلما عرفه فتح له ورحب به . ودخلت لمياء معه ومشى في الحديقة أمامها حتى بلغ خبر قدومه الى مسلم فناداه من الداخل « ادخل يا معلم »

فأسرع يعقوب اسراع المحتفي بمخاطبه وقال « لست وحدي يا سيدي ان معي ضيفاً تسر بمشاهدته » فقال « تفضل ومن معك »

وكانت لمياء قد صارت على مقربة من باب الغرفة التي فيها مسلم فخالما وقع بصره عليها نزح من مكانه كأنه يهرم بالنهوض فأسرع يعقوب اليه واقعده وهو يقول « لا تقم يا سيدي »

فقال « أهلا وسهلا بالقادم .. من معك ؟ »

قال « رسول ابن عمك صاحب القيروان »

فقال « من أمير المؤمنين المعز لدين الله ؟ » قال ذلك ووقف وهو يقول « فلماذا منعني عن الوقوف ؟ ان كنت لا أقف لرسول صاحب

الحق فلمن اقف « وترقرت الدموع في عينيه فرحاً
فا كبت لمياء على يده فقبلتها وهي تقول « العفو يا سيدي هذا اكرام
لا أستحقه »

فقال « بل يجب علي الوقوف اكراماً لابن عمنا صاحب القيروان .
طالما تمنيت ان أحظى بهذه اللقيا . . كيف فارقت امير المؤمنين ؟ » وقعد
وهو يشير اليها بالجلوس فجلست متأدبة وقالت « فارقت في خير وسلامة . .
ان قلبي يطفح سروراً بهذه المقابلة في هذا البلد البعيد »
وأشار مسلم الى يعقوب فقعد وهو يقول « وازيدك علماً يا سيدي ان
هذا الرسول فتاة تتفانى في نصرة امير المؤمنين . وقد كانت السبب في
حفظ حياته من كيد الكائدين »

فقال « وكيف ذلك يا يعقوب ؟ »

قال « ألا تذكر يا سيدي ما قصصته عليك عن المكيدة التي كادها
بعض الخونة للفتك بابن عمك حفظه الله ؟ »

قال « بلى وعلمت انك بعثت رسولا ينذره بذلك »

قال « نعم ولكن الرسول قتل قبل وصوله الى القيروان فأتيح لهذه
الباسلة ان تتناول الرسالة وتوصلها الى صاحبها . ولو تأخرت لحظة لنفذت
حيلة اولئك الكائدين » وقص عليه الخبر باختصار

فلما علم بما تكنه جوارح لمياء من الغيرة على الشيعة وعن غرضها من
القدوم الى مصر قال « بارك الله فيك يا بنية . . كيف فارقت امير
المؤمنين ؟ »

فطمأنته عنه وأخبرته بما اوتيه من النصر وما ترجوه من تغلبه وفوزه .
فأبرقت اسرته وقال « الحمد لله الذي نصر قومه وتوسل اليه تعالى ان
يتم فضله علينا وينقذنا من القوم الظالمين . . ألم يعزم الامام على القدوم
الينا ؟ »

قالت « انه فاعل باذن الله . وانما جئت لاستطلع الاحوال وأرى
حال الشيعة في هذه البلاد »

فتنه تهنأ عميفاً وقال « ان شيعتنا في ضنك شديد . ان هؤلاء الظالمين يسومونهم مر العذاب من الالهانة والضرب والحبس بسبب وبلا سبب . . . »

قالت « قد تغطر قلبي لما شاهدته من ذلك في هذا الصباح وأنا قادمة الى منزل المعلم يعقوب . . رأيت شيخين جالسين بباب المسجد يصيحان « معاوية خالي » يقولان ذلك بكل وقاحة »

فقال « لم تر شيئاً بعد يا بنية . ان شيعتنا مغلوبون على أمرهم يذوقون العذاب ألواناً من الحبس والقتل »

فقالت « الحبس والقتل ولماذا ؟ »

قال « بغير سبب . . انهم يسومون شيعتنا ذلك لانها تجل ابناء الرسول . . لو قصصت عليك بعض الخبر لبكيت على حالنا »

قالت « أحب أن أعرف شيئاً أنقله الى مولاي أمير المؤمنين لعله يعجل خطواته في انقاذهم »

قال « اذكر لك مثالا صغيراً من مظالمهم . كان في الفسطاط منذ سنوات رجل من الشيعة اسمه ابن أبي الليث الملقب بلع خبره الى صاحب مصر فبعث في طلبه فحملوه اليه فامر بضربه فضربوه مئتي سوط ووضعوا في عنقه غلا ثقيلا وحبسوه وجعلوا يصبقون في وجهه وهو في السجن حتى مات رحمه الله » قال ذلك وغص بريقه فلم تمالك لمياء عن البكاء

فاستأنف مسلم الحديث بعد ان بلغ ريقه وقال « يكتفوا بموته . . فبعد ان دفنوه نهضت جماعة ممن لا اخلاق لهم وهموا بنشه في قبره ^(١) هل سمعت بافطع من ذلك . . هذا مثال صغير مما قاساه الشيعة في هذا البلد . . وناهيك بما نسمعه بآذاتنا من الالهانات والنكيات . فانهم يتعرضون للمارة فيطلبون من أحدهم ان يقول « معاوية خالي » أو « معاوية خال علي » فاذا لم يقل أهانوه أو قتلوه »

الفصل الثالث والخمسون

الحيرة

كانت لمياء تسمع ذلك القول وبدنها يقشعر وعيناها تذرفان الدموع
ومسلم يغص بريقه من فرط التأثر ويعقوب يظهر التألم مما يسمعه . ثم
تصدت للكلام وقد ابرقت عيناها من التفكير وقالت « لا تمزن يا سيدي
قد دنا الوقت لانقاذ هذه الشيعة المظاومة .. ان الله مع الصابرين »

فتهد الشريفة مسلم وقال « لقد طال صبرنا يا بنية ولا نظننا نصل الى
نماره - كأنه قد كتب علينا الاضطهاد وكتب على الخلافة ان تبقى في
غير اهلها لحكمة لا نفهمها »

فقلت لمياء « أليست الخلافة الآن في بيت الرسول بالقيروان . انها
ستبقى فيهم مدى الزمان .. قد كتب لهم النصر ولا يمضي كثير حتى ترى
اعلامهم تخفق على سائر البلدان باذن الله »

وكانت لمياء تتكلم ونحياها يشرق سروراً كأنها تقول ما تقوله عن ثقة .
فأعجب الشريفة بما بدا من حماسها وقال « ان وجود مثلك بين انصارنا
يبشرني بفوز عظيم »

قالت « أنا مسكينة حقيرة . انما الانصار هم القواد والامراء وفيهم
جوهر الصقلي الذي دوخ المغرب بسيف العبيدين . . . ان ذلك الفتح
سيكون على يده وأيدي الامراء من كتامة وضمهاجة وغيرهم من البربر
الذين باعوا انفسهم في سبيل الحق » ثم اعترضت مجاري افكارها صورة أبي
حامد وسالم وما كان من كيدهما حتى قتل ابوها فانقبضت نفسها وسكنت
وهي مطرقة تفكر في سالم وانها تحب ان تطلع على حقيقة حاله وتود ان
تسمع خيائته بأذنها وعلمت انه لا يستحسن ذكره بين يدي الشريفة
فأرأت ان تستأذن في الانصراف حتى تخلو بيعقوب وتطالب منه ذلك .

فترحلت واظهرت انها تحب الذهاب فاستوقفها الشريف قائلاً « الى اين يا ابنتي ؟ انك ستقيمين عندنا بين اهاننا على الرحب والسعة »
 فقطعت كلامه قائلة « كان يجدر بي ذلك وهو حظ كبير لي ولكنني لاسباب قهرية لا اقدر على الاقامة هنا . وأتوسل اليك بمجدك سبط الرسول ان تكتم امري عن كل انسان حتى عن اهلك فهل تعدني بذلك ؟ »
 قال « نعم كوني مطمئنة . والآن الى اين تذهبين ؟ »
 قالت « اني سائرة مع المعلم يعقوب وسأذهب الى الحان او غيره كما يتفق ولا غنى عنك في كل حال فاذا بدت لنا حاجة اسرعنا اليك . فادع لنا الآن »

فقال « بحراسة المولى . . ومهما يخطر لك من امر فانك تجدينني ملبياً مطيعاً . ولا حاجة بي ان اوصيك بالنكتم لاني رأيت من حزمك وتعقلك ما يضمن ذلك »

ثم قبلت لمياء يده وخرجت وخرج ايضاً يعقوب . ولما صارا خارجاً قال يعقوب « الى اين يا لمياء الآن ؟ »
 قالت « قد استأنست بك يا سيدي ولعل السبب في ذلك انك مطلع على بعض امري من قبل أن نتقابل » وتنهدت وسكتت

الفصل الرابع والخمسون

يعقوب وكافور

فلحظ يعقوب انها تعني خبرها مع سالم وكان يعقوب قد اخاص النية للمياء لانها وقعت من نفسه موقعاً عظيماً وأعجب بما رآه من صدق غيرتها ومروءتها وهو شريكها في غرضها السياسي . أي انه يرى ابدال الدولة الاخشيدية بالفاطمية ليس حباً بالشيعه او انتصاراً للحق لكنه كان ذا مقام عند كافور وكان يتوقع انقلاب الاحوال ولا سيما بعد مرض كافور وقد اسر اليه الطبيب ان كافوراً سيموت قريباً . وهو يعلم تغير قلوب

الاشيادية واضطراب أحوالهم . فرأى ان يصادق الفاطميين فيمسك الحبل من الطرفين . ونظراً لثروته ووجاهته كان يخاف مطامع الاششيديين وهو يرى قرب زوال دولتهم من ضعفهم . فلم ير بأساً ان يكون وسيلة لنقل هذا الوادي الى دولة جديدة فتية فاذا جرى ذلك على يده أته المنافع من وجوه كثيرة

وعدوه اللدود في ذلك الحين ابن الفرات الوزير . وكان يعقوب يخافه على الخصوص اذا مات كافور لانه كان يحسده على منزلته عند كافور وينافسه على النفوذ . اما كافور وهو امير مصر فكان يقرب يعقوب ويكرمه وقد جعله موضع ثقته . فلما اشارت لمياء الى امر سالم ورغبتها في استطلاع حقيقة رأى ان يسهل عليها ذلك وأن يطلعها على الاحوال من حيث السياسة وأحزابها فقال « أظنك تعين امر ذلك الحائن »

وعلمت انه يعني سالماً فاجفلت ولم تطق ان تسمع تلقيبه بهذا اللقب مع انها حكمت عليه بالخيانة من تلقاء نفسها . لكن ما رسخ في قلبها من حبه لا يزال له صدى في خاطرها ريثما تتحقق الامر فقالت « اسمح لي ياسيدي ان اعترض على ما ذكرته عن سالم فانه يشق علي ان اسمعه وان كان صحيحاً . وزد على ذلك اني لم اتحققه بعد »

فقال « اما انا فقد تحققت كما ذكرت في كتابي الى المعز لدين الله »

قالت « أليس من سبيل الى تحقيق ذلك بنفسى ؟ »

وكانا قد خرجا من الزقاق واقتربا من منزله وسمعا المؤذن في جامع عمرو يؤذن صلاة الظهر . فقال يعقوب « هذا وقت الغداء فاندخل الى منزلنا نتغدى ثم ننظر في هذا الامر »

دخل منزله وهي في اثره فامر غلامه ان يهيء المائدة في المندرة ولم يحضر معها احد من اهل يعقوب - ذلك ما ارادته لمياء . وبعد الغداء جالسا وكل منهما يفكر في امره ويعقوب يدبر وسيلة لاجابة طلبها . وهما في ذلك طرق الباب وأتى الخادم يقول « الطبيب شالوم بالباب »

فلما سمع اسمه ابرقت اسرته كأنه كان في ضيق وأفرج عنه وقال

للخادم « ادخله الى ردهة الاستقبال ريثما آتي »
وبعد خروج الخادم قال يعقوب للميلاء « تعبت وأنا افكر في اجابة طلبك بحيث أريك خيانة ذلك الرجل فأتي هذا الطبيب ففتح باب الفرج »
قالت « من هو ؟ »

قال « هو طبيب الامير كافور يتردد عليه كثيراً ولا سيما في هذه الايام بسبب انحراف صحته . وكافور ثقة في علمه وطبه وكنا صديقين قبل ان صار هذا العبد اميراً »
قالت « أي عبد تعني »

قال « اعني كافوراً ألا تعلمين انه عبد ! فلا بد اذاً من ان اقص عليك خبره ليتيسر لك تفهم احواله . اعلمي يا بنية ان كافوراً هذا كان في شبابه عبداً لبعض اهل مصر ثم اشتراه محمد بن طغج الاخشيد مؤسس هذه الدولة هنا منذ بضع وأربعين سنة فخدم عنده وترقى في خدمته حتى صار أتابك ولديه أي مريباً لهما . وصار يعرف بالاستاذ كافور . وتمكنت قدم الاخشيد بمصر وصار اميراً مستقلاً تحت رعاية الدولة العباسية كما هي حالنا الآن وتقدم كافور معه . وتوفي محمد الاخشيد سنة ٣٣٤ هـ فخلفه ابنه الاكبر انوجور ومعناه بالعربي (محمود) فزاد نفوذ كافور في الدولة لانه كان مريباً لانوجور فصار وزيراً له فقام بتدبير دولته احسن قيام . ولما توفي انوجور سنة ٣٤٩ تولى بعده أخوه علي بن الاخشيد فاستمر كافور على وزارته او نيابته حتى توفي منذ سنتين (٣٥٥) فلم ير بين الاخشيديين من يليق بالحكم »

ثم خفض صوته وقال « ولعله طمع بالاستقلال فاحتال في اظهار خلعة قال انها جاءت من العراق - وهي شارة الولاية عندهم يرسلها الخليفة العباسي لكل وال جديد فيلبسها باحتفال شائق . وزعم انه لقب بأبي المسك فاستبد بامور الدولة واستوزر رجلاً شديداً اسمه ابو الفضل جعفر ابن الفرات هو وزيره الآن ولولا ابن الفرات هذا لكان كافور من احسن الامراء

فاعجبها ما سمعته عن اصل هذه الدولة ومن هو كافور لكنها ما زالت تحب ان تستزيد من خبره فقالت « قلت ان كافورا كان عبداً وهل تعني انه كان اسود اللون أو هو مملوك ابيض ! »

فقال « هو اسود اللون شديد السواد بصاصاً . لكن سواده لم يمنع من خضوع القوم له وان لم يخضعوا جميعاً . . قد طال بنا الكلام والطبيب شالوم في انتظارنا . لكن لا بأس من اتمام الحديث باختصار اذ ربما لا نقدر على ذلك في حضوره . . » قال ذلك ونهض فنهضت لمياء معه فأتى حديثه وهما واقفان فقال « اعلمى يا لمياء ان امراء هذه المملكة وجندها الآن قسبان قسم مع كافور ينصرونه ويأخذون بيده ويقال لهم الكافورية . وقسم مع آل الاخشيد ويعدون كافوراً مختلساً ويقال لهم الاخشيدية وهم كثيرون . والنقطة الهامة اليوم ان كافوراً مريض ولا ندري هل مرضه خطر أم لا . فاذا انتهى هذا المرض بالموت فان احوال مصر تضطرب وتتضعع اذ ليس من يتولى الامارة من اصحاب الحق بعده الا غلام لا يتجاوز عمره ١١ سنة - وسنعرف حال كافور او صحته من الطبيب شالوم هيا بنا اليه »

قال ذلك ومشى فمشت لمياء معه وهي تتأمل في ما سمعته عن اضطراب احوال هذه الدولة وقد استبشرت بنجاح مهمتها

الفصل الخامس والخمسون

الطيب شالوم

وأطلا على الطبيب شالوم في ردهة الاستقبال فتقدم يعقوب مسرعاً نحوه ولمياء وراءه ثمشي الهوينى لتبقى بعيدة ريثما يدعوها . لكنها جعلت تتفرس بالطبيب عن بعد فاذا هو كهل والذكاء يتدفق من عينيه وعليه زي الاطباء في ذلك العصر وألبسته ثمينة لتقربه من امير البلاد وحظوته

عنده . وحول خصره منطقة مذهبة فيها دواة من عاج وقد التحف رداء كالعباءة من حرير عنابي اللون . وعلى رأسه كساء كالقبة او الطاقيّة عليها طراز مزر كش وقد ارسل لحيته وسالفه بلا هندام كما كان يفعل كبراء اليهود وكان شالوم جالساً على وسادة في صدر القاعة وفي يده كتاب يطالع فيه باهتمام . فلما سمع خطوات يعقوب نهض وحياء وابتسم له والاهتمام باد في عينيه فدعاه يعقوب للجلوس وهو يقول « ما لي أرى حبيبنا شالوم في شاغل ؟ ما هذا الكتاب ؟ »

وقبل أن يجيبه لمح لمياء بلباس الغلمان في الحديقة واقفة تتلاهى بقطف زهر وهو يعرف غلمان يعقوب فاستغربها . وأدرك يعقوب استغرابه فابتدره قائلاً « هذا غلام صقلي جاءني برسالة في هذا الصباح »
قال « من اين ؟ يظهر لي من زيه انه من بلاد المغرب . فهل أذاك برسالة من صاحبك المعز ؟ »

فعض يعقوب على شفته السفلى اشارة التكم وقال « صاحبي ! وهل تعتقد ذلك في ؟ وأنا في خدمة الامير كافور . . ما لنا ولهذا . . قل لي . رأيك تقرأ في هذا الكتاب باهتمام . . اقعد . . قل ما هو سبب اهتمامك ؟ كيف صحة مولانا ؟ »

فقعد وقعد يعقوب بين يديه فقال الطبيب « ان صحة الامير في خطر وقد أعيتني الحيل في تطيبه . وهذا كتاب جاءني أمس ألفه طبيب من اشهر اطباء العراق . . »

فقطع يعقوب كلامه قائلاً « اظنك تعني الرازي فهل هذا كتابه الحاوي »

قال « هو جزء منه يتعلق بالعله التي يشكو الامير منها »

قال « هل وجدت شيئاً جديداً »

فاًوماً برأسه نحو الاعلى ان « لا »

فقال يعقوب « فانت اذاً يئس من شفاء الامير ! »

قال « تقريباً »

فأطرق يعقوب وبان الانقباض في جيبه وعرف الطبيب سبب انقباضه فقال له « انت الآن تنظر في ما سيؤول اليه أمرك اذا مات هذا الرجل . . كم قلت لك ان تسير الوزير ابن الفرات وتداجيه فانه شديد الوطأة حسود وله مطمع لا يخفى عليك »

فتنهذ وقال « انه لا يداجى . . ولا فائدة من مداجاته لان الحسد يعمي ويصم » وأطرق وهو يعمل فكرته ثم قال « لا أبالي به . . ان الامر لا يطول في يده بل أنا لا أرى مصر يطول امرها في قبضة هذه الدولة و . . » وتوقف عن الكلام بغتة

فلم يفت الطبيب ما جال في خاطره فقال « لماذا تداجيني يا يعقوب ! ونحن قد شبننا معاً ومصالحتنا في هذا الامر مشتركة . . لما دعوت المعز صاحبك غضبت . . لا ينبغي لنا أن تداجى وهؤلاء القوم وان قدمونا وأكرمونا فانهم يكرهونا ولولا حاجة هذا الامير الاسود الى طبي لما هش لي ولا كلمني . وأنت مع طول عشرتك له منذ توليت عمارة داره وأنت شاب حتى صرت ملازماً لبابه ثم أجلسك في ديوانه الخاص وصرت تخدمه وتتولى اعمال الحسابات وتدخل بين يديه في كل شيء فانه لا يحبك وانما هو في حاجة الى عقلك وتديرك . هل غرك انك كيفما دخلت او خرجت وقف لك الحجاب والاشراف ! انه انما فعل ذلك لانك خدمت مصلحته باخلاص وغيره ولم تطلب منه مالا . وأنا اعلم الناس بالمال الذي رددته عليه ولم تأخذ منه الا القوت . فانت الآن موضع ثقته لا يمضي دينار ولا درهم الا بتوقيعك^(١) ومع ذلك هل تظنه يحبك ؟ انه لا يقدر ان يحبك ولا ان يحبني . لا اقول ذلك لانك لا تعلمه بل أنا على يقين انك اعلم بهمني ولكني قلته لاسهل عليك التصريح لي بما تحاول كتمانها عني وأنا أتوسمه فيك »

وكان يعقوب يسمع كلامه ويعتقد صحة كل كلمة منه ويعلم ان مياهه الى الفاطميين لم يخف على صديقه الطبيب . وهو لم يفعل ذلك ليندر بمولاه كافور ولكنه توسم قرب سقوط هذه الدولة ويعلم ان ابن الفرات يكرهه

حسداً منه لتقدمه وانه حالما يموت كافور يصبح هو في خطر على ماله وحياته لذلك احب ان يصل حبله بحبل الفاطميين مع البقاء على ولاء كافور لكنه كان يشق عليه ان يصرح بذلك بين يدي احد . فلما سمع تصریح الطيب شالوم هان عليه الدخول في الموضوع فقال « أراك يا صاحبي سيء الظن في هذا الرجل كثيراً »

قال « كلا أنا لا أسيء الظن به خاصة لكنني لا أرى شيئاً يجمعني به غير المصلحة وأرى اسباب التفريق كثيرة . . فنحن الآن لا ينبغي لنا ان نخون هذا الامير او نقصر في خدمته لكنني أخاف على حياتنا بعده . . أليس كذلك يا معلم . . قل . . لا تخف اني اسر اليك اشياء كثيرة ومع ذلك لا يهمني صرحت ام لم تصرح . فانت صديق المعز لدين الله الفاطمي وهذا الغلام رسوله اليك في شأن يتعلق بالدولة . اصدقني لعلني استطيع خدمتك »

فلم ير يعقوب بداً من الكلام وهو يثق بصديقه فقال « انظر يا صاحبي شالوم . لا تظن توقفي عن التصريح لك من ضعف ثقتي بك فانت تعلم ما بيننا من الاسرار القديمة والحديثة . ولكنني مضطرب الرأي في الامر . ان هذا الغلام رسول من المعز . نعم . ولكن كن على يقين اني لم أصاحب المعز لا خون كافوراً . فاني خادمه مقيم على ولائه ما دام حياً . وأما اذا مات فاني أخاف خلفاء كبيرهم وصغيرهم . بل أخافهم على مصر واهلها . . انهم لا يصلحون للحكومة لما تعلمه من انقسامهم واضطراب احوالهم . فلا بد من خروج هذه البلاد من ايديهم . . واذا لم يكن بد من خروجها فمن تراه أولى بها . ان القوم في بغداد مشغولون بانفسهم - ان بغداد مسقط رأسي وأحبها كثيراً لكنني أراها بعيدة عن مصلحة مصر . وهؤلاء الفاطميون دولة جديدة رشيدة كثيراً ما سمعت عن تعقل خلفائها وعدلهم . فاذا تولوها كان ذلك من اسباب سعادتها . . »

ثم تدارك ما قاله بلهفة قائلاً « أما اذا اتفق الاخشيديون

وولوا من يصلح للولاية ولم يؤذونا باموالنا وأرواحنا فمن ضعف الرأي ان نستبدلهم بسواهم . . الا توافقني على ذلك ؟ »
 فأبرقت اسرة الطيب شالوم من سماع ذلك الكلام لانه لسان حاله تماماً فابتسم وقال بارك الله فيك يا معلم لقد نطقت بلساني وعبرت عن جناني . نحن متفقان و . »

فقطع كلامه قائلاً « لم أشاهد الامير كافوراً منذ أمس لاني شغلت عن الذهاب اليه بسبب ساقصه عليك . . كيف هو اليوم . . كيف حاله ؟ »
 قال وهو يرفع حاجبيه « انه ليس على ما يرام . . كانت الحمى عاينه شديدة في هذا الصباح وكنت أتوقع هبوطها فلم تهبط رغم ما اتخذته من الوسائل المرطبة . ولما أعيتني الحيلة رجعت الى كتاب الرازي وأخذت اطالع فيه . وخطر لي ما نتوقعه من تبدل الاحوال فرأيت ان آتي اليك فحملت الكتاب معي ولم أكلف غلامي حمله في جملة ما يحمله من الادوات والعقاقير »

الفصل السادس والخمسون

غلام الطيب

فلما ذكر الطيب غلامه انتبه يعقوب لامر يتعلق بالمياه فالتفت نحوها فرآها تتمشى في الحديقة كأنها تتشاغل بمشاهدة الرياحين والمياه المدبرة في الاقنية ويدها الحصى مرصوفة صفوفاً وهناك طوائف من الطيور الاهلية بالوانها الزاهية بين سارح وحيس ولا نظن لمياه كانت ترى ما بين يديها كما يراه المتفرج لاشتغال خاطرها بسالم والطريقة المؤدية الى مشاهدته ثم التفت يعقوب الى الطيب وقال له « لقد اذكرتني أمراً أتوسل اليك في قضائه . أترى هذا الغلام ؟ »

قال « نعم أراه أليس هذا الرسول الذي تتكلم عنه ؟ »
 قال « بلى . واجب ان أكلفك أمراً يتعلق به حل تقضيه ؟ »

قال « حياً وكرامة . ما هو ؟ »

فقال يعقوب « أتعرف ذلك البربري الذي يتردد على مجلس الامير؟ »

قال « أظنك تعني الرجل الغريب الاطوار ذي العينين الברاقيتين الغائرتين

والاتف الاعقف والشاربين المسترسلين . . »

قال « نعم أعنيه وأعني شاباً يرافقه في أكثر الاحايين . . »

قال « هو ابنه أو ابن أخيه سالم على ما أظن . . نعم اعرفهما وانهما

يترددان على الامير كثيراً كما تعلم وأنا استغرب أمرهما ولا أعلم لهما محلا

سوى . . »

فقطع يعقوب كلامه قائلاً « أنا أعلم أنهما يحرضان اميرنا على فتح

القيروان . . »

فدهش الطبيب وقال « أين نحن والقيروان ! ألا يكفيننا ما يشغلنا من

أنفسنا ! ما الذي تريده مني ! »

قال « ان هذا الغلام يريد ان يحضر مجلس كافور ويسمع ما يدور فيه

خصوصاً عند وجود سالم وعمه . . ولكي لا أخفي عنك شيئاً . اخبرك ان

هذا الرسول ليس غلاماً وإنما هو فتاة بلباس الغلمان - احفظ ذلك سراً -

ولها شأن خاص مع سالم هذا . وقد بلغها عنه أقوال قالها لكافور لم تصدقها

فاحبت ان تسمعها باذنيها . فالذي أراه ان تأخذها معك بدل غلامك الذي

يحمل لك الادوات والعقاقير وتجهد بان تدخلها معك دار الامير لتكون

بمشهد ومسمع »

فاستغرب شالوم كونها فتاة وقال « لا بد لهذه الفتاة من حديث هام

وقد ناقت نفسي لرؤيتها ادعها وقدمها لي وأوصها ان تضع ثقتها بي . ثم

اخبرها ماذا ينبغي ان تعمل ليتم لها ما تريده »

فحول يعقوب بصره نحوها فانتبهت لمياء فأشار اليها بالقدوم اليه

فأسرعت وقد توردت وجنتاها فظهرت الانوثة فيها . ولكن القوة كانت

بادية في وجهها وسائر حركاتها . فاعجب الطبيب بهيبتها وجمالها وبريق

عينها . فلما دخلت قال يعقوب « هذا الطبيب شالوم طيب مولانا الامير

كافور وهو صديق حميم أثق به كثيراً وقد اطلعت على قصدك واتفقنا على طريقة تحضرين بها مجلس كافور وتشاهدين كل ما تريدينه هناك . . . »
وضحك

فأدركت من مخاطبته أياها بصيغة التأنيث أن الطبيب مطلع على حقيقة أمرها فبانت البغته في عيها وأطرقت . فابتدراها يعقوب قائلاً لا تحجلي يا بنية من اطلاع الطبيب على حقيقتك فانه على رأي من كل وجه . والمطلوب الآن ان تكوني هنا بعد قليل وسيأتيك بالثياب اللازمة تتكبرين بها فلا يظن من يراك الا انك غلام الطبيب شالوم وتمكثين هنا حتى يأتي هو فتذهبين معه في اصيل هذا اليوم وأكون أنا قد سبقتكما الى هناك . ولا بد لي من الذهاب حالا لاني اطلت الغياب عن المجلس . وإنما شغلني عنه القيام بأمرك . فامكثي هنا ريثما تأتي الثياب وتلبسينها وسأوصي قيمة المنزل بك خيراً وكل ما تطلبينه يقضى »

فلم يسعها الا السكوت وقد شغل خاطرها بهذه المهمة بما فيها من التجسس وهو يخالف ما فطرت عليه من استقلال الفكر وحرية القول . ولكنها تحملت ذلك في سبيل كشف حقيقة ذلك الرجل الذي خانها في عواطفها ثم نهض الطبيب وودعهما وانصرف على ان يبعث بالثوب والادوات والعقاقير . وودعها يعقوب بعد ان لبس الثوب الذي يلقي به الامير ومضى اليه

وبعد قليل أنت تلك الاشياء فلبست لمياء ثوب غلام الطبيب كما كانت العادة يومئذ وعلقت جراباً من الديباج بعنقها وفيه ادوات الجراحة وبعض العقاقير الضرورية . فاصبح من يراها لا يشك انها غلام الطبيب شالوم . فكثت بانتظاره وكانت الشمس قد مالت نحو الاصيل وكافور في سرادقه بالبستان الكافوري كما تقدم

الفصل السابع والخمسون

سرادق كافور

ثم جاء الطبيب على بغلته وأوماً الى لمياء ان تتبعه على بغلة ساقها اليها . فركبت وعلقت الجراب في عنقها . ولم يمض كثير حتى أشرفا على البستان الاخشيدي وفيه السرادقات والاعلام وقد وقف الحجاب بيابه والجنود حول السرادقات بين ماش وواقف . ولم يدن الطبيب من باب البستان حتى تصدى له كبير الحجاب بلهفة وقال « ان الامير في انتظارك على أحر من الجمر »

فقال « كيف هو الآن ؟ »

فهرز الحاجب كتفيه وقال « يقولون انه احسن »

فارتاب الطبيب بهذه الاشارة لكنه ترجل وأشار الى غلامه (لمياء) ان تترجل وتبعه ففعلت ومشيت وهي تراقب كل شيء . فرأت الوجوه متغيرة والقوم هناك يجتمعون ويتفرقون زرافات كأنهم يتساءلون عما سيكون اذا مات كافور . فمرت بين السرادقات في طريق مستقيم يؤدي الى سرادق كبير مبطن بالحرير الاحمر وقد أرخيت عليه الاستار المزركشة ونصب العلم في قمته . ووقف بيابه حاجبان بلباس خاص وفي يد كل منهما رمح قناته مكسوة بالديباج

فلما دنا الطبيب من باب السرادق وسع له الحاجبان بدون استئذان لانهما يعلمان شدة حاجة الامير اليه فدخل وأشار الى غلامه (لمياء) أن تدخل معه فلما دخلت كان أول شيء استلفت انتباهها سعة ذلك السرادق (الصيوان) واحمرار باطنه وقد فرشت ارضه بالبسط الجميلة وأقيمت في جوانبه منائر من الفضة قد غرست فيها الشموع ومواقف عليها المباخر يتصاعد البخور من بعضها . وقد علقت على أعمدته الاسلحة من السيوف والاتراس والجراب والاقواس . وفي وسط السرادق دكة فوقها قبة قائمة

على اربعة اعمدة كالمظلة وقد استرسلت الستائر من جوانبها الثلاثة وترك صدرها مكشوفاً ليظهر سرير الامير للداخل من باب السرادق . والسرير مصنوع من الابنوس المنزل بالعاج مكسو بالفرش الوثير وأصله من أسرة بني طولون

وكان كافور متوسداً على ذلك السرير ولكن لمياء لم تره لانه كان غارقاً في الفراش المصنوع من ريش النعام . ورأت الى جانبي القبة جماعة واقفين باحترام واهتمام علمت انهم خاصته وأحباؤه غير الغلمان والاعوان . فأجالت نظرها فيهم لعلها تجد سالماً بينهم فلم تجده وأدركت اهتمام القوم من وقوفهم على الاقدام مع وجود المقاعد والارائك والوسائد لجلوسهم أما الطبيب فظل ماشياً نحو السرير وقبل ان يدنو منه برز له من جانب القبة رجل عرفته لمياء انه يعقوب بن كلس وقد لبس ثوباً يليق بذلك الموقف . وتقدم يعقوب لملاقاة الطبيب بلهفة كأنه لم يره من قبل وقال له « لقد أبطأت علينا أيها الطبيب »

فقال « فارقت مولانا الامير وأنا ارجو تقدمه نحو الصحة فهل طراً عليه طارئ ؟ »

فاجاب يعقوب « لا بأس عليه انه اليوم أحسن من ذي قبل . . » قال ذلك بصوت عال ليسمعه كافور على عادتهم في طمأننة المريض وتخفيف جزعه . لكنه اشار اليه همساً ان الحال تدعو الى القلق

فتقدم شالوم حتى دنا من السرير وأشار الى غلامه أن يتبعه ليكون قريباً منه في حين الحاجة الى عقار . فدنّت لمياء من ذلك السرير المغشى بالاعطية المزركشة بالالوان الزاهية تكسوه كله الا بقعة صغيرة عند الرأس سوداء مظلمة هي وجه كافور قد أزيح عنه الغطاء لانه كان شديد السواد بصاصاً جلده يلمع لكن شدة الضعف أذهبت لمعانه حتى تكاد ترى الاصفرار يخالط ذلك السواد . وكان قد أقفل عينيه كأنه نائم وقد برز فكاه من الضعف فافترقت شفتاه وبرزت أسنانه البيضاء من بينهما

فلما أحس كافور باقتراب الطبيب منه فتح عينيه وأجال بصره حتى وقع

نظره على الطبيب فبان الاهتمام في تينك العينين الحمراءوين . وكأنه أراد ان يتسّم فلم يزد منظره الا تكشيراً فاسرع الطبيب الى يده فاستخرجها من تحت الغطاء باحترام وجس نبضها وهو يظهر الانبساط من حال النبض . والتفت الى كافور وقال « ان مولاي أحسن حالا من أمس بحمد الله » والتفت الى أحد الغلمان الوقوف في خدمة كافور وقال « أين قارورة الماء ؟ » يعني زجاجة البول

فأتوه بزجاجة فيها السائل فتأمله وتفحصه ثم عاد نحو السرير وهو يتسّم ويظهر الانبساط وقال « كيف ترى نفسك يا سيدي ؟ » فقال « انى اشعر بضعف ودوار »

قال « هذا امر بسيط . . الى يا غلام » وأشار الى لمياء فتقدمت وفتحت الجراب فاستخرج الطبيب منه قارورة صغيرة فتحتها وأدناها من انف كافور . فاستنشقتها فاحس براحة وانتعاش وبان ذلك في عينيه وجبينه فتحرك في فراشه كأنه يريد الجلوس فاعانه الطبيب على ذلك وساعدها يعقوب وأسنداه بوسادة من الوراء . فجلس وتناول مذبة كانت بجانبه ليتلاهى بها ويطرد الذباب عنه . وهو كثير في تلك الساعة . ولم يشأ ان يتولى ذلك عنه أحد . فتقدم يعقوب وهو يبيد الاهتمام وقال « ان الذباب كثير في هذه الساعة وسيدي الامير منحرف المزاج ألا تأذن لى أن آخذ المذبة (النشاشة) عنك او تأمر ان يقوم هذا الغلام باستخدامها » وأشار الى لمياء . والتفت نحو الطبيب كأنه يستشير بهذا الاقتراح

فتقدم الطبيب وقال « ان الامير في حاجة الى الراحة » ومد يده وتناول المذبة من يده ودفعها الى لمياء وأشار اليها ان تقف وراء السرير تطرد الذباب عن وجه كافور بدون ان تزعجه . فطاعت وقد وافقها ذلك اذ تكون قريبة منهم . وأدار كافور عينيه في جوانب السرادق كأنهما سراجان موقدان . ثم نظر الى شالوم وقال « بارك الله فيك أيها الطبيب انى اشعر بالانبساط الآن »

فقال الطبيب « وستشعر باحسن من ذلك بعد قليل . . ومد يده الى

الجرب فاستخرج منه قارورة فيها سائل صب منه قليلا في قدح ودفع
القدح الى كافور فشربه فازداد انتعاشاً والتفت الى يعقوب وقال « اننا لا
نسى فضل طيبنا هذا بارك الله فيه انه صديق محب »
فقال يعقوب « كلنا عبيد مولانا نقديه بارواحنا فالحمد لله على سلامته
ولا أرانا الله مكروهاً به »

قال « لله أنت يا يعقوب .. أنك موضع ثقتنا وسوف نكافئك على
مودتك وصدق خدمتك .. »

فقال « انما نطلب ان يتعافى الامير وهذا خير مكافأة »
فقال الطبيب « ان حال مولانا بحمد الله حسنة جداً ولا يلبث ان
يخرج على جواده في البساتين أو يركب حراسته يصعد فيها على النيل »
فهرز كافور رأسه وقال « ان شاء الله .. ان شاء الله » وفي غنة صوته
أنه غير مصدق

ثم بدا الاهتمام في وجهه وأشار الى الوقوف بالخروج ولم يبق الا
الطبيب ويعقوب ولما واقفا عند رأسه

الفصل الثامن والخمسون

أبو حامد وسالم

فلما خلا بهم المكان التفت كافور الى يعقوب وقال « ان الطبيب
حفظه الله طمأنني وخفف عني وقد صدقته لكنني ضعيف وأخاف ... »
واختنق صوته

فابتدره الطبيب قائلاً « لا ينبغي لمولانا ان يشك في قولي ولا ان يفكر
في أمر يسوءه - ولا أعول في ما أقوله على فعل العقاقير ولكنني استبشرت
ايضاً من دلالة النجوم فقد تفقدت الطالع في مساء أمس فوافق ما أتوقعه .
أنت يا مولاي في صحة والتوفيق خادم لك »

قال « ذلك الذي أريده ولكن كيف اطمئن لحالي وأنا أرى ما أراه من

الضعف » ثم وجه كلامه الى يعقوب وقال « بل كيف يرتاح خاطري وأنا أرى أحوال هذه الدولة . . أنت تعلم يا يعقوب ما في قلبي وأحب أن اشرك طبيبنا في الامر لو ثوقي به وقد سلمت اليه روعي أفلا أبوح له بسري ؟ أنا لا أثق بأحد من هؤلاء الذين ترونهم حولي . انهم لا يلبثون اذا لفظت نفسي الاخير ان ينقلبوا علي - لا يهمني ذلك ولكنني أخاف على هذه الدولة . إذا مت أنا فان الامارة تفضي الى غلام في الحادية عشرة من عمره وهو صاحب الحق فيها . أو يتنازعها أعمامه والقواد فتفسد الامور و . . » وتنحنح وكأنه ندم على ما قاله فعاد وقال « ولكن لا . اني سأعيش ريثما أدبر شؤونها .. أليس كذلك أيها الطبيب ؟ »

فأسرع إلى الجواب باهفة قال « بلى ياسيدي هذا هو اعتقادي »
فترحزح كافور في فراشه فهض الطبيب وقال « يحب مولاي ان ينام ؟ »

قال « لا . لا أرى في ميلا الى الرقاد لكنني أحببت أن أغير وضعي .. هل رأيت وزيرنا أبا الفضل (ابن الفرات) اليوم يا يعقوب ؟ »
قال « كلا ياسيدي لم أره . . هل تأمر بشيء أبلغه إياه ؟ أم تحب أن ندعوه اليك الى هنا . أم ماذا ؟ »

قال « لا . لكنني استبطأته . . ولعله لم يشأ أن يأتيني لئلا يشغل ذهني بامور الدولة ففضل لي الراحة . لا بأس من ذلك »

وهم يعقوب ان يحبيه فرأى الحاجب دخل ووقف في المكان الذي يقف فيه اذا كان آتياً بخبر فقال له كافور « ما وراءك ؟ »

قال « ان أبا حامد بالباب يا سيدي »

فلما سمعت لمياء اسمه اجفلت وتسارعت دقات قلبها حتى كاد ذلك يظهر عليها ولحظ يعقوب اضطرابها فأومأ اليها ان تتجلد . ولم يكن أسرع منها الى التجلد لما فطرت عليه من قوة النفس ورباطة الجأش . فانزوت وراء عمود القبة والمذبة بيدها بحيث لا يظهر وجهها ولا ينتبه لها أحد . وكان كافور يستأنس بالطبيب لما في كلامه من الذكاء وما يبسطه بين يديه من

الآمال فقال له « هل ندخل هذا الرجل علينا الآن . هل ترى بأساً من ذلك ؟ انه طلي الحديث حاد الذهن ولا يختار من الاحاديث الا ما يسرنا . وكما زدناه اهتماماً بسماع حديثه زادنا مغالاة في غرائبه لا بأس به . . انه لطيف المعشر »

فقال الطبيب « إنك يا مولاي في حاجة الى من يؤانسك بالاحاديث اللذيذة المفرحة فاذا كنت تجد في حديثه شيئاً من ذلك ادعه . . » ونظر كافور الى يعقوب كأنه يستشير فقال « اذا شاء مولاي ان يدخله فليشترط عليه ان يقص علينا نحو ما قصه مرة من الاخبار المفرحة » قال « لكنه قصها علينا سراً . . »

فتصدى الطبيب للكلام قائلاً « أما أنا فاذا كان وجودي مانعاً من سماع الاخبار المفرحة فاني منصرف » ونحفظ للانصراف فأشار اليه كافور بكلمة يديه ان يتي وقال « اذا استغنيت عن رجال الدولة جميعاً لا استغنى عنك . ولا أرى بعد ما رأيته من صدق مودتك وعظيم فضلك أن أخفي عنك سراً كهذا . فليدخل الرجل ويقص ما يقصه وأنت حاضر ولنفرح معاً اذا كان فيه ما يفرح » وأشار الى الغلام ان يدخله

فقال الغلام « ادخله وحده أو مع رفيقه ؟ »

قال « ليدخل الاثنان »

فادركت لمياء ان رفيقه انما هو سالم بعينه فاخذت تتجلد . وكانت الشمس قد مالت الى الغروب وأخذ الفراشون بانارة الشموع فاصبحت لمياء في موقفها تخفيها ظلال الستائر بحيث لا ينتبه لها أحد وهي ترى كل حركة وتسمع كل صوت . ولم تبق حاجة الى المذبة بعد الغروب وقد خفت وطأة الذباب . ونسي كافور وجودها عند رأسه فوقفت لا تتحرك . وبعد قليل دخل أبو حامد وقد تزيا بغير زيه المعهود ودخل سالم في أثره وقد تغير شكله وهندامه حتى كادت تشكره لكنها ما لبثت ان سمعته يلقي التحية حتى تحققت أنه هو بعينه . فخفق قلبها وارتعدت فرائصها وهي

تتجلد وتهاك لترى ما يكون . على أنها لم يكد يقع بصرها عليه حتى
تذكرت تاريخ معرفتها به وكيف كانت تستهلك في حبه وودت في تلك
الساعة ان يخرج بريئاً من تلك الهم واستعازت بالله ان يكون كما قيل لها
عنه وندمت على مجيئها الى ذلك المكان لتسمع اقواله باذنها . وخافت اذا
سمعت شيئاً يشير غضبها ان لا تقوى على امساك عواطفها فيفتضح امرها
لكنها استجمعت قواها ومجذبت

الفصل التاسع والخمسون

الحديث

فلما دخل الرجلان القيا التحية فأشار اليهما كافور بالجلوس على كرسيين
بين يديه فجلسا متأديين وتصدر ابو حامد للسلام فقال « كنا في قلق
عظيم على صحة مولانا الامير أعزه الله ونرجو ان يكون قد تعافى »
قناب الطيب شالوم بالجواب عن كافور تخفيفاً للتعب عنه وقال « ان
سيدي الامير في خير وهو أحسن اليوم من ذي قبل ولا يلبث أن ينهض
من الفراش »

فقال كلاهما معاً « الحمد لله . الحمد لله على ذلك . ان اعتلال الامير
تعطل به الامة كلها ولا سيما الآن وقد دنا الوقت الذي يظهر به نجمه
ويتسع سلطانه »

فقال الطيب « ان مولانا الامير في حاجة الى التسلية بما يفرحه وهو
العلاج الذي يفيد حقيقته فهل عندك شيء من هذا القيل ؟ »
وتقدم يعقوب فقال « لا انسى حديثاً سمعته منكما في حضرة الامير
رأيت مولاي انبسطت نفسه منه »

فقال ابو حامد « اظنك تعني حديث . . » والتفت نحو الطيب ولسان
حاله يقول « ان هذا الحديث لا يتلى جهاراً »

وكان كافور يسمع ويرى فلما رأى إشارة أبي حامد قال « لا تحتشم من وجود طيبنا انه موضع ثقتنا »

فوقف الطبيب وأظهر انه مستعد للخروج . فإشار اليه كافور ان يجلس فجلس والتفت الى يعقوب كأنه يستشير هل يقول . فقال « تفضل يا سيدى قل »

فاعتدل ابو حامد في مجلسه وقال « ان حديثنا في المرة الماضية لا يحلو تكراره ان لم يكن مشفوعاً ببشائر النجاح . وقد جئنا الليلة نحمل بشارة يفرح لها كل مسلم يريد ان يستقر الحق في نصابه »
فقال يعقوب « وما ذلك ؟ »

قال قصصت عليكم بالمرّة الماضية ما دبرناه في سبيل نصرة الحق بانقاذ الدولة الاسلامية من ادعياء الخلافة في المغرب . اعني القوم الذين انتحلوا لانفسهم نسباً كاذباً في القيروان وزعموا انهم من نسل فاطمة الزهراء وهم ادعياء في هذا النسب . ان زعيمهم الذي سمي نفسه المعز لدين الله قد اصبحت الآن في عالم الاموات . ولا بد من اضطراب دولته وقيام امراء كتمامة وصنهاجة عليه وانما نحتاج الى جند يبعث به الامير اعزه الله الى اولئك الامراء هناك حتى يلتفوا حوله ويسلموا الامر اليه - فيدعى له على منبر الفيروان كما يدعى له الآن على منابر مصر والشام والحجاز وحلب وانطاكية وطرسوس . فيستقيم له الامر وحده ولا يبقى لمنافسيه هنا مطمع في شيء لان الباقيين من آل الاخشيد غلمان ونساء لا يستطيعون عملاً »

وكان كافور جالساً ينظر الى أبي حامد وقد بدا الانبساط في وجهه فلما سمع قوله زاد انبساطاً لكنه تنهد وقال « اني لا ألبث ان اعمل بذلك حالما أنهض من الفراش باذن الله » والتفت الى الطبيب كأنه يستشير في ذلك

فقال الطبيب « قريباً ان شاء الله . . » والتفت الطبيب الى أبي حامد وقال « يظهر انك واثق بنجاح هذه المهمة . . »

فقال « اني لا اقول غير الحق وأنا منذ اعوام اعد المعدات وأهيء

الاحزاب وأجمع الاموال . اني على ثقة من انضمام قبائل البربر كلها في
نصرة الامير أبي المسك أعزه الله . وإنما كان ينقصنا أن نتخلص من رجلين
هناك خدمهما الحظ حيناً فغلب عليهما الغرور وقد ماتا الآن »
قال يعقوب « من تعنى ؟ »

قال « أعنى المعز وجوهر قائده . انهما ماتا الآن ولا يمضي الا بضعة
أيام حتى تأتينا كتب الامراء بذلك »
فأحب يعقوب ان يسمع لمياء كلام سالم عن نفسه فوجه الخطاب قائلاً
« ان الفضل في هذا النجاح ليس للامير أبي حامد فقط وإنما هو لك
ايضاً . . وان حيلتك التي قصصتها في المرة الماضية غريبة في بابها » وضحك
تحريراً له على التصريح

فقال سالم « ان الفضل الاكبر لهذا الامير وهو صاحب الرأي الاعلى
وعنده الرجال والاموال . وأما أنا فعملي مقصور على إغراء فتاة جاهلة
توهمت اني أحبها فاتخذناها وسيلة لخدمة مصلحة صاحب مصر أيده الله »
ولا تسلم عن لمياء وما أصابها عند سماع هذا الكلام . ورغم تجلدها
وتمالكها أحست انها مدفوعة لتكذيب ما سمعته وحدثتها نفسها أن تتقدم
في تلك اللحظة وتكشف الحقيقة . وكان يعقوب يلاحظ حركاتها ويشير
اليها خلسة ان تتجلد

وهم في ذلك رأوا كافور يتحرك في سريره حركة غير اعتيادية وقد
تغيرت سحنته فانتبه له الطبيب ونهض اليه فرآه قد أصيب بنوبة سعال شديدة .
فأوماً الى القوم بالانصراف حالاً فنهض ابو حامد وسالم وخرجا واشتغل
الطبيب بمعالجة كافور فتنادى غلامه (لمياء) أن يأتني بالجرباب فاسرعت
وفتحت الجراب وبدأها ترتعدان من التأثير وقد احمرت عيناها من الكظم
فتناول الطبيب قارورة الاستنشاق وقربها من انف كافور وأعاناه يعقوب
باسناده وهو لا يزداد الا سعالاً حتى كاد يغمى عليه

وشغلت لمياء بذلك المنظر عما جال في خاطرها وقضوا ساعة وهم
يسعفون الامير بالعلاج حتى سكن السعال ومال الى الرقاد

ثم جس الطبيب نبضه وقال « انه مرتاح الآن فينبغي ان نتركه نائماً »
فقال يعقوب « فنذهب نحن اذاً »

قال « نعم . أما انا فلا ينبغي ان اتركه إذ أخشى ان تعاوده النوبة »
فقال يعقوب « انا ذاهب مع غلامك هذا وسأترك عندك أحد غلمان

الامير يقدم لك الجراب اذا مست الحاجة »

ففهم الطبيب مراده فوافقه فدفعتم لمياء الجراب اليه وخرجت مع
يعقوب وركبناها ترتعدان من هول ما سمعته ورأته وعيناها شائعتان خارج
المعسكر تبحث عن ابى حامد وسالم فلم تر لهما اثرأ

ولحظ يعقوب فيها قلقاً وأدرك ما يجول في خاطرها فإشار اليها ان
تتبعه . فوقفت وهي تكاد تسقط من شدة الاضطراب والغضب وقالت

« لا استطيع المشي يا سيدي . . بالله ماذا رأيت . . ويل لك يا خائن . . »

فالتفت يعقوب اليها فوجد وجهها قد امتقع وتغيرت سحنتها ومشيت
وهي تتساند وتخاف السقوط . فإشار الى السائس ان يقدم الدابة فاسرع

الى تقديمها وأعانها حتى ركبت وركب هو على دابة أخرى في اثرها ولحظ
في اثناء الطريق ان لمياء مزعجة فاحس انه مسئول عن سبب ازعاجها

لانه هو الذي جمعها بذلك الخائن واذا اصابها سوء فمن شدة تأثرها مما
سمعته ورأته

وبعد قليل وصلا الى منزل المعلم يعقوب فترجل والتفت الى لمياء فاذا هي
لا تزان على بغلتها لا تتحرك ولم يعهد بها ذلك التواني . فتقدم نحوها ومد

يده ليعينها على النزول . ولما لمست يده احس بسخونتها وجفافها فاقشعر
بدنه فناداها أن تنزل فنزلت وهي لا تستطيع حراكاً فنادى بعض الخدم

فأعانوه على حملها الى دار النساء وهي غائبة عن رشدها كلما تته

فتأسف يعقوب لما أصابها ونادى قهرمانه منزله وأشار اليها أن تسعف

الفتاة بالتدابير المستعجلة ريثما يأتي الطبيب . وبعث رجلاً يدعو الطبيب

شالوم اذ لا يريد ان يطلع احد على وجودها عنده

ظلت لمياء غائبة رغم ما استخدموه في ايقاظها من المتعشات والمنبهات وأبطأ الطبيب عن الحضور لاشتغاله بالامير كافور فاشتد القلق بيعقوب وأصبح لا يدري ماذا يعمل فخطر له أن يطلع الشريف مسلم على حالها لانه ذو شأن في الامر فبعث اليه وقد أظلم الظلام . فجاء ولمياء لا تزال في تلك الحال فسأله عن امرها فقص عليه حقيقة خبرها . فجلس نبضها فاذا هو يسرع كثيراً فعلم انها مصابة بحمى شديدة ورأى الاولى ان ينقلها الى منزله ليخدمها اهله ريثما يأتي الطبيب ويرى ما يكون . وكان قد استلطف الفتاة قبل ان يطلع على حقيقة امرها مع الحسين بن جوهر وغيبتها على المعز وخبرها مع سالم فلما اطاع على الحقيقة أحس بانعطاف شديد نحوها وأمر بمحفة حملوها عليها الى منزله وأخذ على عاتقه ان يعالجها طبيب منزله

الفصل الستون

الحلم

قضت لمياء في تلك الغيوبة أياماً لا تأكل ولا تشرب غير ما يسقونها إياه رغم ارادتها . ثم أفاقَت وقد شحب لونها وبان الضعف في عينيها وحالها أفاقَت التفتت الى ما حولها وقد استغربت كل شيء لكن الناظر في عينيها يرى انها لا تزال ضائعة رغم حركتها والتفاتها . وكان في الغرفة ساعتئذ الشريف مسلم نفسه وامرأة من أهله فتقدمت المرأة نحوها وقالت « ماذا تريدن يا حبيبتى »

فلم يحبها لكنها عادت الى استغراقها . وكانوا قد أعدوا لها لبناً تشربه فلم تستطيع ذلك لانها عادت الى الرقاد فأمر الحكيم أن تسقى اللبن كرهاً . وكانت الحمى قد انخفضت والغيوبة هذه المرة لم يطل مكثها . ففي صباح اليوم التالى سمعوها تئن أنيناً شديداً كأنها تشكو ضيقاً . فاسرع مسلم اليها فسمعها تقول بأعلى صوتها « حسين ! حسين ! تبأ لهم قبضوا عليك . . دعوه فبحكم الله . . أما كفاكم ما فعلتموه بأبي ؟ . . آه . . آه . . » وسكنت ثم فتحت

عينها فجأة والتفت الى مسلم وهو واقف الى جانبها وتفرست فيه وقد عاد اليها رشدها فعرفته فقالت « العفو يا سيدي ؟ . . انت هنا . أين أنا ؟ ماذا جرى لي . أين الحسين ؟ قد قبضوا عليه ؟ . . ويل لهم . . » وشرقت بدموعها

ثم تراجعت وكأنها انتهت انها في يقظة وليس هناك حسين فخجلت فتقدم الشريف نحوها بلطف وقال لها « ما بالك يا بنية . انك تهذين أو تحلمين لا تخافي انك في منزلي وأنت أعز من ولدي . . »

فاخذت تفرك عينها بكنتا يديها وهي تنظر الى ما حولها وقالت « لست خائفة يا سيدي . . لست خائفة . ولكن الحسين بن جوهر . رأيتم اخرجوه مغلولاً في فج الاخيار . . وأولئك اللصوص حوله كالزبانية . . رأيتم رأي العين . . »

فقال « انت يا لمياء في الفسطاط . ويتناوين فج الاخيار عدة أيام . . خفي عنك . وعودي الى رشدك . . لا بأس عليك . وبعد هنية يأتي الطبيب ويشير بما يجب أن تفعلي »

قالت « الطبيب ! وأي طبيب ؟ اني لا أشكو مرضاً ولكنني أشكو ظمناً وخيانة . . قالت ذلك وغصت بريقها وأغرقت في البكاء حتى ملا نجيبها الدار . فبعث الشريف بتعجل الطبيب فأتى والفتاة مستغرقة في البكاء فجلس نبضها ثم أشار عليهم ان لا يخاطبوها ولا يقصوا عليها خبراً بل يكتفوا بالغذاء الخفيف . ووصف لهم ما ينبغي عمله ولكنه ألح عليهم ان يتركوها هادئة ساكنة بقدر الامكان

ظلت لمياء في الفراش عدة اسابيع لا يخاطبها أحد الا بالضرورة وهي تصحو تارة وتغيب اخرى والطبيب يتردد عليها ويصف الادوية والاغذية حسب الحاجة . ويعقوب يأتي كل يوم للسؤال عنها ويأسف اشد الاسف لما أصابها على يده - رغم اشتغاله في تلك الاثناء بأمور ذات شأن أهمها موت كافور وانتقال الامارة الى احمد بن علي بن الاخشيذ وهو غلام لم يتجاوز الحادية عشرة . وتحول النفوذ الى جعفر بن الفرات وزير كافور

المتقدم ذكره . ولم يكن بن الفرات يستطيع عملاً في حياة كافور فلما صارت
الامارة الى ذلك الغلام استبد هو في الامر وأخذ في مطاردة رجال الدولة
ومصادرة الاغنياء . وكان يعقوب من جملة المهديين وخاف ان يصل الدور
اليه فاستتر . وكان يقضي اكثر اوقاته عند الشريف مسلم بن عبيد الله المشار
اليه بحجة السؤال عن لمياء ويتحدثان في شؤون الدولة ويرون قرب سقوطها
لكنهما لا يتحدثان في شيء من ذلك أمام لمياء عملاً بإشارة الطبيب

وبعد مدة تقدمت لمياء نحو الصحة وأصبحت في شوق الى استطلاع
الاحوال والحكيم يأمرها ان تلازم الصمت وبعد مدة أخرى أذن لهم ان
يخاطبوها في الشؤون التي تريدها . وكانت لا تزال تتردد الى الفراش
وتنزل الى الحديقة او تمشي في المنزل . ورأت وجهها بالمرآة فزعجت مما
صارت اليه من الضعف فبكت وعاد اليها رشدها فتذكرت ما انتابها في تلك
المدينة وكيف خلفت اهل القيروان على مثل الجمر في انتظار أخبارها من
مصر . وتذكرت انها رأت الحسين خطيبها مغلولاً أو رأتهم يوثقونه ويضربونه
كأنها رأت ذلك في يقظة

كانت هذه الخواطر تمر بذهنها في أواخر أيام النقه ولا تجسر على
مفاتيح احد بها . فلما أذن لها الطبيب بذلك طلبت يعقوب وسأله عما جرى
في أثناء مرضها فقص عليها ما كان من موت كافور وتنصيب احمد بن علي
فمالت « ألم تبعثوا بذلك الى القيروان ؟ »

فابتسم ونظر الى مسلم فابتسم ايضاً وفي وجهيهما علامات البشر فقالت
« ما الخبر »

قال يعقوب « الخبر خير يا لمياء . . ان اهل القيروان علموا بكل ما جرى
هنا وقد جاءوا الينا بخيلهم ورجاهم »

فصاحت « أتوا الى هنا ؟ القائد جوهر أتى ؟ المعز أتى ؟ اين هم ؟ »
فقال « المعز لم يأت ولكن القائد جوهر جاء بجند كثيف ونزل
الاسكندرية ووقع الرعب في قلوب المصريين . . ولا ندري ما يكون »
فاطرت لمياء وقد بان البشر في محياها وأحست بنشاطها الاول كأنها

كانت في رقاد وأفقت . وتذكرت مهمتها التي جاءت من أجلها وانها لم تستطع عملاً تخدم به المعز لان المرض أعاقها . وتذكرت للحال ما رآته من سالم فاقشعر بدنهما فقالت « وماذا جرى بذلك الخائن وعمه ؟ »
قال « لا ادري لاني لم اعد اراها من تلك الجلسة وأظنهما يشتغلان في دس الدسائس في قصر السيدة زينب بنت الاخشيد بعد موت كافور وضياع املهما . . »

فلما سمعت اسم بنت الاخشيد تذكرت اشياء اخرى هاجت اشجانها فاطرقت ومسلم ويعقوب يلاحظانها ولا يتكلمان . ثم انتهت فجأة وقالت « ماذا جرى بامتعتي وجوادي ؟ »

قال يعقوب « أي أمتعة تعنين ؟ »

قالت « اعني ما حملته معي من الثياب والامتعة من القيروان وتركته في الفندق مع الجواد والخادم والدليل »

قال يعقوب « أي فندق ان الفنادق كثيرة هنا . . »

فقالت « في الفندق الذي اهداني صاحبه الى منزلك »

قال « لم أنتبه له »

قالت « أنا لم أعرفه وقد آن لي أن أخرج من البيت ولاخوف علي .. اخرج بالثوب الذي يعرفني صاحب الفندق به فالاقية وأدفع له اجرته وآتي بالامتعة .. والحق يقال اني أحس بقصوري في خدمة امير المؤمنين وقد شغلت عن خدمته بخدمة نفسي ثم شغلني المرض »

قالت ذلك ووقفت وقد عاد اليها نشاطها والتفتت الى مسلم وعيناها تنطقان بالشكر على ما ابداه من الغيرة . فاجابها على الفور « انك ستعودين الينا وتنزلين في دارنا .. أو الافضل ان تمكثي هنا فترسل من يأتي اليك بالامتعة والجواد »

قالت « بل افضل الذهاب بنفسي وسأعود الليلة أو في صباح الغد ان شاء الله »

فقال مسلم « بل تأتين الليلة »

الفصل الحادي والستون

في اليقظة

فأشارت مطيعة واختلت في غرفة لبست فيها ثوب الصقالبة الذي دخلت به الفسطاط واستأذنت بالانصراف وخرجت وهي تذكر الطريق التي جاءت بها وتتوهم أنها مرت في تلك الطريق منذ بضعة أيام وقد مر على ذلك عدة اشهر . وصلت الفندق فرآها صاحبه بالترحاب وأبدى غاية الاستغراب لما رآها فيه من النحول وسألها عن سبب غيابها وان خاطره شغل عليها كثيراً حتى خاف ان تكون قد ماتت قال ذلك بين الجد والهزل فاستلطفت مجونه وقالت « الحمد لله اني لا أزال حياً (لانه يعرفها غلاماً صقلياً) ولو مت ما الذي كنت تصنعه بالجواد ؟ »

قال « اي جواد يا سيدي »

قالت « الجواد الذي جئت عليه »

قال « ان الجواد اخذه رفيقك ومضيا » يعني الدليل والخادم

قالت « وكيف أذنت بذهابهما ؟ »

قال « لما استبطاء قدومك استأذنا في الانصراف » وضحك لهذا التعبير

فقالت « وماذا فعلتم بتيابي وامتعتي ؟ »

قال « هي باقية في الغرفة التي كنت نازلاً فيها ضمن صندوق مقفل

ولكن جاء بعض المسافرين واستأجروا الغرفة مني فابقيت الصندوق في

بعض جوانبها على ما أظن »

قالت « اعطني الامتعة أين هي ؟ »

قال « هي هنا تفضل يا سيدي » ومشى نحو الغرفة التي باتت فيها ليلة

وصولها الفسطاط وهو يتناقل في مشيته وهي تتبعه . فلما دنا من الغرفة هز

بابها فاذا هو مقفل فقال « لا أدري لماذا يقفلون الغرف كأنهم يخافون ان

أسرق ثيابهم . . »

قالت « ألا يمكن الحصول على الامتعة الآن ؟ »

قال « كلا . . اخاف ان افتح الباب في غيابهم فيهموني بالسرقة . ليس كل الزبائن لطفاء الاخلاق والوجوه مثلك ياسيدي . لكن لا يلبثون ان يأتوا . . تفضل واجلس في غرفتي . . يظهر انك تشكو تعباً على أثر المرض »

فمشت في اثره الى غرفة بجانب تلك وفتح الباب و اشار اليها بالدخول وقال « ان هذه الغرفة لى وحدي وقد تركتها لك تفضل استرح »

وكانت قد تعبت من المشي لانها اول مرة خرجت بها من المنزل فدخلت واستلقت على مقعد هناك واغلقت الباب خوفاً من ان يكشف امرها واستلذت تلك الخلوة فاخذت تفكر بما اصابها بالفسطاط . وطرق ذهنها خصوصاً الحلم الذي رآته وهي مريضة إذ رأت الحسين مغلولاً في اشد الضيق وقد حاولت ان تقنع نفسها انه حلم لكنها لا تتصوره الا واقعاً

وتذكرت تلك الجلسة في بيت كافور وما تحققت من خيانة سالم فاقشعر بدنهما ولم تكذ تتصوره حتى سمعت صوتاً مثل صوته يرن في اذنها فذعرت واصغت فاذا هي حقيقة تسمع صوته فجلست على المقعد واصاحت بسمعها وهي تحسب ذلك حلاً آخر . فاذا هي تسمع وقع اقدام بياب الغرفة فهضت وتهيأت للوثوب واستعدت للمقاومة فاذا بالخطى تتجه نحو الغرفة الاخرى التي كانت لها وسمعت صوتاً مثل صوت ابي حامد فتسارعت دقات قلبها واسرعت الى باب غرفتها فاوصدته وجعلت انها نائمة ووجهت انتباهها لتحقق هل هي في يقظة . فسمعت ابا حامد يقول « اوصد الباب يا بني وتعال »

وسمعه يوصده ثم سمعت قائلاً يقول اوصدته . . هات ما عندك ؟ » وهو صوت سالم . فتأكدت انها نازلان في تلك الغرفة ففرحت بتلك الفرصة لكن تأثرها كاد يذهب بنفسها لتسارع دقات قلبها . فتجلدت وتذكرت ما كان من بسالتها ورباطة جأشها ومواقفها في ساحة القتال فهاهنا

واصفت . فسمعت أبا حامد يقول « ذهب ذلك الاسود ولم تل منه وطراً . . . ولكن ذلك من سوء حظه »

فقال سالم « وسوء حظنا ايضاً يا عماء »

قال « ما اضعف عزمك يا سالم . . اتحسب قدوم ذلك المملوك الصقلي (جوهر) يغير عزمي ؟ انه لا يلبث أن يعود على أعقابيه . . »

قال « كيف يعود ؟ وقد أتى بجيش جرار ولحظت القوم هنا خائفين »
ففقّقه ابو حامد فتصورت لمياء ما يرافق فقّقهته من التكشير عن سنيه
البارزتين ثم سمعته يقول « لا يلبث خوفهم ان يذهب متى وصل ذلك الغلام مغلولاً »

قال « وأي غلام ؟ »

قال « أي غلام ! صحيح انك لم تعلم بعد بالقبض على الحسين »
فلما سمعت لمياء ذكر الحسين اختلج قلبها وتسارعت دقاته حتى شوشت
عليها سماع الحديث فاذا سالم يقول « قبضوا على الحسين ؟ لا لم اعلم بذلك
بعد . اين قبضوا عليه ؟ »

قال « في فج الاخيار . . لان لمياء اللعينة افشت السر وأخبرت المعز
بوجود المال هناك فتبرع هو بالذهاب ليحمل ذلك المال اليهم . وجاءني
الرسول أمس ان رجالنا هناك قبضوا عليه وأوثقوه وسألوني عما يفعلونه به
فاجبتهم ان يحملوه الى هنا . فاذا جاء حبسناه وجعلناه رهناً . . ما قولك ؟ »
فقال « لم أكن اعلم ذلك . . بارك الله فيك . كيف لم تخبرني به
حتى الآن . . »

قال « لاني لا أثق باحد ولو لم أر خوفك لم أخبرك به . لكنني لم اعلم
اين ذهبت تلك الفتاة المفتونة . فقد اخبرني الجواسيس انها خرجت من
القيروان ولكنني لم أعلم الى اين لانها أخفت جهة سيرها »

قال « ما ظنك بها ؟ »

قال « أظنها أتت الى هنا لان يعقوب اليهودي هو الذي أنبأ المعز
بعزمنا على قتله فنجأ بذلك . ويغلب على ظني ان لمياء أتت الى الفسطاط .

لكنني لم أستطع البحث عنها في حياة كافور لانه كان يقرب ذلك اليهودي ويصغى اليه . . اما الآن وقد مات كافور فاني اوغرت صدر ابن الفرات عليه فأصبح يطارده ولا يلبث ان يصادره . وهو يسعى الآن في إقناع الفواد ان يسلموا لجوهر . ولكنه ان يفلح لانهم مختلفون لا رابطة لهم وكل منهم يطمع بالمال لنفسه وهم طوائف اهمها الاخشيدي والكافورية والاثراك وليس عليهم امير حازم يجمع كلمتهم . وفي عزمي ان اجمع شتاتهم بواسطة السيدة زينب بنت الاخشيد لانها كانت نافذة الكلمة عندهم لكنها امرأة ولا تعلم كيف تعمل فضلا عن اشتغالها بامر نفسها . . لا تخف يا بني . . كن على ثقة من تدويري »

وكانت لمياء تسمع كلامه وفرائصها ترتعد فاذا بسالم يقول « قد أدهشتني يا عماء بهذا التدبير . . بارك الله فيك » فقال « كيف لا وقد قضيت عمري في دس الدسائس عملا بوصية ذلك المقتول ظلماً . . انى منتقم له كن في راحة . . ولكن تلك الملعونة أين ذهبت لا ادري »

قال سالم « ما لنا ولها فلتكن حيثما شاءت » ثم استولى السكوت كما ان الرجلين ناما وأخذت تفكر بما سمعته فرأت انها استطلعت اشياء كثيرة لم تكن تعرفها وخصوصاً امر الحسين والقبض عليه وان المصريين يسعون في مصالحة جوهر والتسليم له وان الامر موقوف على بنت الاخشيد . وقد صدقت انهم قبضوا على الحسين لانها رأت ذلك رأي العين في أثناء الغيبوبة . فلم تعد تستطيع البقاء هناك واحتالت في الخروج فلقها صاحب الفندق فسأله عن الثياب فقال « هل أتى الاضياف ؟ » قالت « أظنهم أتوا لاني سمعت حركة » فقال « قبحهم الله يدخلون كالاصوص » وأسرع وعاد اليها بالثياب . فتناولتها ودفعت اليه أجرته وانطلقت نطلب بيت الشريف مسلم بن عبيد الله . وكان الليل قد سدل نقابه فأسرعت حتى وصلت فرأت الخيول متزاحمة في الباحة والناس وقوف بالباب فاستأذنت في الدخول فاذن لها وسألت عن الشريف فقيل لها انه في

خلوة مع جعفر بن الفرات . فجلست وهي في غاية الاضطراب وأصبحت في شوق لمعرفة ما يدور بين الرجلين

الفصل الثاني والستون

الصلح

وهي جالسة رأت جماعة عليهم ألبسة المصريين الوطنيين من التجار والمزارعين وقد تجمعوا ازواجاً وأثلاثاً وهم يتذمرون ويتأوهون وسمعت أحدهم يقول « مالنا وللحروب لقد خربت البلاد واختنق الناس من القحط والغلاء حتى فرغت أيدينا من النقود وهؤلاء الجند لا يزيدوننا إلا ضرائب . وهم منعمون لا يهمهم الا اخذ الاموال . . انهم معذورون طبعاً اذا خافوا على سيادتهم وأحبوا محاربة اولئك المغاربة »

فأجابه آخر « مالنا ولهم . . الافضل لنا ان نصالح . وهذا الوزير قد وافقنا على طلب الصلح . ان هذه الدولة الجديدة رشيدة وقد سمعت الثناء على خليفتها وزهده في الاموال ورغبته في راحة رعيته . . »

فتقدم ثالث وقال « وقد بلغني ان هذا الجند قادم الينا وقد حمل الذهب على الجمال كالارحية . . أين ذلك من استبداد جنودنا وحكومتنا باموالنا ؟ »

ثم سمعت رجلاً يضحك وفي وجهه هيئة المجنون وقال « كيف تدعون الفقر يا قوم أليست الاموال مخزونة في بيت الاخشيدي والكافورية ؟ هذه بنت الاخشيد قد فرشت منزلها بما لم تبلغ اليه زبيدة زوج الرشيد وعندها الجوارى بالمئات . . وتقولون مع ذلك أننا فقراء . ؟ » فضحك الجميع من مجونه . ثم شغلوا بحركة وضوء ظهرت هناك فالتفت لمياء فرأت ابن الفرات خارجاً وقد خرج الشريف مسلم لوداعه وابن الفرات يبالغ في احترامه والثناء عليه . ولما ودعه قال ابن الفرات « أتعدني ياسيدي بالذهاب غداً الى الاسكندرية ؟ »

قال « كن مطمئناً أني باذل جهدي في اقناع القائد ان يقبل بالصلح وأنا ضامن ذلك باذن الله »

ففهمت ان ابن الفرات يسعى في المصالحة وتذكرت ما سمعته من ابي حامد في هذا الشأن . وأرادت ان تخاطب الشريف فرأته تحول الى غرفته كأنه في شاغل عن المقابلات فاجلت مقابلته الى فرصة أخرى وذهبت الى دار الحريم وقد تعبت واستلقت على الفراش ومالت الى الخلوة وأخذت تفكر بما سمعته فغلب عليها النعاس فنامت رغم ارادتها

ولم تفق الا في الصباح على ضوضاء القوم في الدار فنهضت وسألت عن الشريف فقيل لها أنه بكر الى الاسكندرية مع وفد من اعيان المصريين ومعه كتاب الوزير ابن الفرات في طلب الصلح^(١)

أما هي فانها ما زالت في قلق لما علمته من مساعي ابي حامد وأسفت لانها لم تستطع مقابلة مسلم قبل ذهابه . وهي في ذلك رأت يعقوب داخلا فأحست براحة وأسرعت اليه فلما رآها هش لها وتقدم نحوها فأومأت اليه ان يجلس وقصت عليه ما سمعته أمس . فاستغرب قولها وأدهشه عزم ابي حامد وما دبره فقالت « لا حاجة بي ان أخبرك عن أهم ما قصصت عليك »

قال « اما من حيث الحسين فاذا صح ما قالوه عنه وانه آت الى هنا فهو في مأمن ولا شك ان ذلك الغادر مغرور » ثم اطرق وهو يحك عنتونه وقال « ولكن .. » وسكت

فقالت « ولكن ماذا ؟ هل تستطيع ان تعمل عملاً . . اني اشعر بتقصيري في مهمتي لاني شغلت بنفسي عن خدمة مولاي المعز ما بالك . . قل »

قال « فهمت من حديثك ان ذلك الملعون يهدد سعينا في الصلح بدسائسه عند بنت الاخشيد ولا سبيل لي الى هناك وأنا رجل فلا أستطيع التناكر . . . »

فادركت انه يلوح الى استطاعتها ذلك لانها فتاة فاطرقت ثم قالت « هل أقدر أنا على ذلك ؟ »

قال « طبعاً ولكن . . »

قالت « ماذا قل . . قد ادركت الآن مركز بنت الاخشيدي في هذه الدولة ويظهر ان السكل يشقون بها رغم ما بلغنا من تهتكها وانغماسها في الذي ترى في القدرة عليه ؟ »

قال « ليس اقدر منك على ذلك . . أرى ان تدخلني دار بنت الاخشيدي وتسلطي على عقلها حتى تصير أطوع لك من بنائك »

فعلمت انها لا بد لها من التجسس وهي اكبر نفساً من ذلك . فتوقفت عن الجواب لحظة وهي تنظر في مرآة معلقة في الحائط أعجبها شكلها لانها صنع مصر ولم تكن رأت مثلاً من قبل . كانت تنظر الى المرأة وهي تفكر في أمر تنكرها . فابتدورها يعقوب قائلاً « لا تترددي يا بنية . . اذا كنت تحبين المعز وتريدين الفوز لجوهر فالامر في يدك ولا يستطيع عليه سواك » فلما سمعت قوله تحمست وهان عليها كل صعب فقالت « روعي فداء أمير المؤمنين وأحسب اني مت في مرضي هذا . فما العمل ؟ »

قال « هل تعلمين شغف بنت الاخشيدي باقتناء الجواري الحسان ؟ .. » فقالت « نعم اعلم ذلك »

قال « أرى ان تنكري بثوب جارية مغربية وان اجعلك هدية لبنت الاخشيدي ولا ريب عندي انها لا تلبث ان تخاطبك حتى تستسلم لرأيك والامر بعد ذلك لفظنتك »

فنهضت وقالت « أنا مستعدة للذهاب من يأخذني وكيف اصنع ؟ » قال « تمهلي . . اني عائد بعد قليل وإنما أتقدم اليك ان تلبسي ثوباً مثل أثواب الجواري . . » قال ذلك وخرج

فلبست واصلحت شعرها وغيرت هندامها حتى اصبح من يراها لا يشك في انها جارية وقد زادها الضعف جمالا وهيبة . ثم جاء يعقوب ومعه رجل

عرفت انه تاجر الرقيق الذي قبضوا عليه في القيروان ووقف بين يدي المعز واعترف انه جاء لىبتاع جوارى لبنت الاخشيد فتجاهلت
ثم تقدم يعقوب وقال « هذه هي الجارية يا سيدي .. كيف تراها ؟ »
قال « لا بأس بها »

فضحك يعقوب وقال « لا تقل لا بأس بل قل انها جميلة وأظهرها
تعجب مولاتنا كثيراً نظراً لما فطرت عليه من الذكاء والادب فضلاً عن
الجمال »

فقال الرجل « ما اسمها وكم ثمنها ؟ »

قال « اسمها سلامة واما الثمن فاني لا أتاخر بالرقيق كما قلت لك واما
أردت ان افعل ذلك خدمة لمولاتنا . خذها اليها ويكفيني ان تقبل هذه
الهدية مني . ولكن هذه الفتاة عزيزة علي لاني اعرف منشأها فلا ينبغي
ان تعامل مثل سائر الجوارى . اوص السيدة بنت الاخشيد بذلك اذا
شئت »

قال « سأفعل » وأشار الى لمياء فتبعته وهي تتجاد

الفصل الثالث والستون

بنت الاخشيد

وكانت بنت الاخشيد تقيم في قصر قرب دار عبيد العزيز أكبر دور
الفسطاط وقد تقدم ذكرها . وذكرنا ما فيها من الغرف وعدد من فيها
من الناس . وهي واقعة على ضفة النيل الشرقية يقابلها في الغرب جزيرة
الروضة . وقصر بنت الاخشيد نخم يطل على النيل قد فرش بأثمن الرياش .
والدولة الاخشيدية يومئذ في ابان بذخها تقلد العباسيين بما في دورهم من
الرياش الفاخر والاثاث الثمين بالابسطة المطرزة والاستار المزركشة قد
شدت الى الجدران بمسامير الفضة وفرشوا غرف النوم بالاسرة الذهب أو

الابنوس المنزل بالعاج ونصبوا منائر الفضة عليها الشموع العنبرية اذا أوقدت
فاحت رائحتها حتى تملأ الفضاء

فلا غرو اذا دهشت لمياء عند دخولها ذلك القصر بعد ان رأت بساطة
دار المعز في القيروان. وكانت تحسب دار أبيها في سجلماسة قبل سقوط دولته
قد بلغت أرقى أحوال الحضارة فاذا هي لا تعد شيئاً بالنسبة الى دور
الاخشيديين وخصوصاً هذه الدار لان بنت الاخشيد كانت لفرط اعجابها
بنفسها تقلد نساء الخلفاء العباسيين بالبذخ والرخاء ولا سيما زبيدة زوج
الرشيد فقلدتها باصطناع قبة من الفضة والابنوس والصندل وكلاسيها من
الذهب ملبسة بالوشى والسمور والديباج الاحمر والاصفر والاخضر
والازرق^(١) رغم ما كانت عليه البلاد من الضيق

تلك كانت طريقة الحكومة في تلك الايام ولا سيما في اواخر الدولة .
انما يهم الحاكم ان يجمع المال لنفسه ويتلذذ بالشهوات وقد يبلغ من تمتعه
بالم لذات ان يموت من التخمه والرعايا حوله يموتون من الجوع

وكانت بنت الاخشيد في حدود الكهولة تظهر لاول وهلة انها قوية
الخلق وهي بالحقيقة ضعيفة الرأي لكنها جسورة لا تبالى ما تفعل ولا تقدر
العواقب وكانت مثالا لطبقة المترفين من أهل ذلك العصر لا يفوتها ضرب من
ضروب المذات . وكانت وجهية نافذة الكلمة ليس في رجال الدولة من
لا يخشى بأسها ولا سيما في تلك السنة وقد مات كافور وصارت الامور الى
احمد بن علي حفيد أخيها وهو غلام . فاصبح طبعاً طوع ارادتها هو وكل
رجال دولته الا جعفر بن الفرات فاحب ان يستأثر بالنفوذ فاغضبها وأغضبته
فمال مع الاهلين الراغبين بالتسليم لجوهر قائد جند المعز . وأما سائر الاجناد
فكانوا يلتمسون رضاها لا يرمون أمراً الا برأيها

وكانت جميلة الخلقة لا تزال الملامح التركية ظاهرة في محياها لان أباه
فرغاني . ويظهر انها لم تتزوج رغبة في استبقاء عصمتها في يدها فانصرفت
قواها الى التمتع بالحياة والتماس النفوذ والشهرة فجعلت قصرها مباء لرجال

الدولة . وكانت في تلك الاثناء مشغولة الخاطر لما بلغها من عزم المصريين على التسليم ومعهم ابن الفرات لكنها لم تكن تتوقع حدوث ذلك فعلا إذ لم تكن على بينة من حقيقة حال الوطنيين ولا مقدار ما بلغوا اليه من الضنك . ولم يخطر لها انهم يجسرون على مخاربة الاعداء وكان ينبغي ان لا يفوتها ذلك ولكن حكام ذلك العصر لم يكونوا يحسبون الامة حساباً وانما يهمهم احتلابها وابتزاز أموالها

اصبحت بنت الاخشيد في ذلك اليوم وهي تتوقع ان يأتي رجال الدولة يشكون اليها ما فعله ابن الفرات . وقبل نهوضها من الفراش أتها المواشط والولائد يخدمنها في ما تحتاج اليه من الغسل أو اللبس أو تسريح الشعر وتصفيفه . قضين في ذلك ساعة وهن يتسابقن الى استرضائها بالاطراء أو المجون . وهي في ذلك أتها جارية تقول « ان صاحب الرقيق يستأذن على مولائي »

قالت « دعيه ينتظر في البهو الكبير ريثما أخرج . . وهل هو وحده ؟ »

قالت « معه فتاة لعلها جارية »

قالت « جارية سوداء ؟ »

قالت « كلا بل جارية بيضاء جميلة لم اشاهد مثلها قبل الآن »

فاهتمت بنت الاخشيد بذلك الخبر وأمرت الماشطة أن تسرع في إلباسها اما لمياء فكانت قد اقبلت مع ذلك النحاس على قصر بنت الاخشيد وهو يمتاز بفخامة بنائه وبوقوف الحجاب بيابه - فمرت اليه في حديقة طرقها مرصفة بالحصى الملونة على أشكال الطير والوحوش فتقدمها النحاس وهي تتبعه حتى دخل باب القصر الى ردهة واسعة فرشت بالسجاد . وبعض السجاجيد عليها وشي جميل بأشكال الزهور او بعض الحيوانات او ايات من الشعر . فاستقبلتها القهرمانة قيمة القصر وعليها الاساور والدمالج وحول عنقها العقود حتى تكاد تنوء تحت أعبائها . فقالت لمياء في نفسها « اذا كانت هذه القيمة فكيف تكون السيدة » فدعتهما القهرمانة الى بهو الاستقبال فدخلا ولمياء زداد شوقاً لمشاهدة بنت الاخشيد وذهبت القيمة لا بلاغ الخبر

وبعد قليل اقبلت السيدة وهي تجر ذيل رداءها الوردي وراءها وعلى رأسها عصابة مرصعة قلدت بها العالية اخت الرشيد وصففت شعرها تصفيفاً خاصاً لا يجسر احد من اهل الفسطاط على تقليده وشبكته باكليل من الذهب بشكل طائر . ومنطقت بمنطقة مزركشة لها عروة مرصعة على شكل الكروبيم - قلدوا به بعض ما على الآثار المصرية من الرسوم . وأدركت لمياء قدومها من حركة الخدم في الدهليز ومما توضع من الطيب فوقفت ووقف النحاس وتقدم حتى اكب على يد الاميرة كأنه يقبلها وفعلت لمياء مثل فعله فظهر التكلف في حركاتها لانها لم تتعود مثل ذلك

فحالما رأتها بنت الاخشيد وقعت من نفسها موقعا جميلا وأعجبها ما في عينها من المعاني السحرية والضعف زادها سحراً . فتقدمت الى لمياء ووضعت يدها على كتفها كأنها تحاول ضمها فاستأنست لمياء بها ووقفت مطرقة ف اشارت اليها ان تجلس وجلست على مقعد من الابنوس فرشته مكسو بالحرير وقالت « من أين لك هذه الفتاة ! »

قال « هذه هدية من عبدك يعقوب بن كلثوم رآها لا تابق بأحد سواك نظراً لما هي عليه من الادب والذكاء . وقد كلفني ان انوب عنه في تقديمها » فلما سمعت اسم يعقوب مر في ملاحظها شيء من الانقباض لكنها اظهرت الامتنان وقالت « انها هدية نفيسة لا أظن يعقوب أهدي مثلاً في حياته فالظاهر انه يلتمس منا خدمة بعد ان اغضب الوزير جعفر (ابن الفرات) . . ان أولئك اليهود امرهم عجيب . . قد قبلنا هذه الهدية مع الشكر بارك الله فيك » قالت ذلك ومدت يدها فاستخرجت خاتماً من احدى اصابعها ودفعته اليه فتناوله وقبله ومضى . وظلت لمياء صامتة وقد أدهشها ما رآته من التباين العظيم بين حال الامة المصرية وحال حكامها أو اهلهم وقابات بين بنت الاخشيد بمصر وأم الامراء في القيروان . وترجى عنها قرب سقوط هذه الدولة . وهي في ذلك أنى الحاجب فوقف قرب الباب فعلمت بنت الاخشيد انه يريد مخاطبتها في امر فأومأت اليه فتقدم فقالت « ما وراءك »

قال « ان بعض القواد الاخشيدية يلتمسون المقابلة »
 فظهرت استسكافها وقالت « دعهم ينتظرون » ونهضت وأشارت الى
 لمياء أن تتبعها وسألتها « ما اسمك »
 فبغتت وأوشكت أن تقول اسمها الحقيقي فبلعت ريقها وقالت « سلامة
 يا سيدتي »
 فقالت « اسمك جميل » وصفقت ونادت القهرمانة فأنت فقالت لها
 « كيف ترين هذه الفتاة المغربية ؟ »
 فنظرت اليها وهي تبسم وقالت « ما شاء الله انها جديرة أن تكون
 في قصرك »

قالت « فاليك هي افردى لها غرفة خاصة ولتسترح الآن »
 فأشارت مطيعة وانصرفت ولمياء تتبعها حتى أدخلتها غرفة بها نافذة
 تطل على النيل فاستأنست بمجرى الماء . لكنها لم تأت الى ذلك القصر
 وتركب ذلك المركب الحشن لتتمتع بالمناظر الطبيعية فاخذت تفكر فيما ينبغي
 ان تفعل . وتذكرت ان الحاجب أنبأ بنت الاخشيد وهي في حضرتها عن
 قدوم بعض القواد لمشاهدتها وهي فرصة ينبغي لها أن لا تفوتها والوقت
 ضيق لا يأذن بالتأجيل فاخذت تفكر في حيلة تستبطنها لحضور تلك الجلسة
 لعلها تستطلع شيئاً

الفصل الرابع والستون

الطعام

واذا بالقهرمانة دخلت وهي تنهذى بمشيتها تهباً وتشمخ بأنفها عجباً .
 ولما دنت من لمياء وقفت لها تأدباً فقالت القهرمانة « يظهر انك وقعت من
 نفس مولاتنا موقعاً جميلاً لم توفق اليه عادة قبلك » قالت ذلك وضحكت
 فبان ان اسنانها متفرقة لان الزمان ذهب بنصفها . وكانت تلك القهرمانة جميلة
 في صباها لكن عيشة الرخاء أسمنتها وداهمتها الشيخوخة فجعلت جلد لها

طيات يتقطر العرق من بينها . واذا مشت خطوتين لحقها التعب . لكنها مع ذلك كانت خفيفة الروح فاستأنست لمياه بها وسرها ما سمعته من اعجاب بنت الاخشىد لان ذلك يعجل ما ترجو الاطلاع عليه أو الوصول اليه في سبيل خدمة المعز . فأطرقت وقالت « ليس في ما يدعوا الى اعجاب سيدتي الاميرة ولكنها ربما اشفقت على الضعف الظاهر في وجهي » فقطعت القهرمانه كلامها قائلة « ان هذا الضعف يزيدك جمالا ولطفاً . . . والآن فان مولاتنا الاميرة كلفتني ان اصلح من شأنك وآخذك اليها لتتناولي الغداء معها »

فشغلها ذلك التلطف عن التفكير بأبي حامد ورفيقه . واشتغلت القهرمانه بالاصلاح من شأنها فاتها بثوب من الحرير الناعم الملون نسيج مصر وعليه صور تأخذ بالابصار وحوله منطقة مذهبة . وأخذت الماشطة في اصلاح شعرها وتصفيره على نسق خاص . فضايقها ذلك وتقدمت الى القهرمانه أن تعفيها من هذا التصفيف فاجابها « هكذا تريد مولاتنا » فقالت « اسألها لعلها تعفيني لان ذلك يضر برأسي »

فمضت ثم عادت وهي تقول « وهذا دليل آخر على حب مولاتنا لك فانها سمحت ان تكوني كما تشائين وأن تسرعي في الذهاب اليها فان المائدة قد اعدت »

فسرحت شعرها بيدها تسريحاً بسيطاً وضفرتة ضفيرتين أرسلتهما الى الورااء الا خلا صغيرة أرسلتها على الصدغين وأبت الا كتحال أو الزجج وبين يديها جارية سوداء تحمل لها المراة فنظرت الى وجهها فيها فرأت انها اجمل مما كانت تظن . ثم مشت في أثر القهرمانه في دهليز يؤدي الى قاعة واسعة في صدرها دكة مرتفعة قد نصبت عليها المائدة ويشرف الجالس اليها على ضفاف النيل فيرى السفن ذاهبة جاثية ووراءها جزيرة الروضة وفيها الابنية الفخمة وفي جملتها المقياس . ووراء ذلك بر الحيزة الى الاهرام والقاعة مفروشة بالبسط والسجاد مثل اكثر غرف تلك الدار غير الارائك والوسائد والمقاعد وكلها مذهبة او منزلة . وقد ارخيت الاستار

المنزخرفة على الجدران التي تكسوها . ومنها ستارة في عرض القاعة مرفوعة
بأمراس من الحرير ترخى عند الحاجة فتحجب مجلس الأميرة عن سائر
الجلوس . كانت هذه القاعة فرشت لعقد المجالس الكبرى . فإذا حضرت
بنت الأخشيد المجلس أرخت الستارة المشار إليها ودار الحديث أو المفاوضة
ولا يراها أحد من الحضور . وأحببت أن تتناول طعامها فيها في ذلك اليوم
لأشرافها على النيل . فنصبوا لها بجانب المائدة مقعداً مكسواً بالخز المطرز
باسمها . فجاست هي عليه والتفت بملاءة كالمطرف من القطيفة الحريرية وقد
طرزت بالقصب ورصعت بالأحجار الكريمة بأشكال بديعة تمثل شجراً
وطيوراً وحيوانات أخرى وهي من جملة ما قلدت به نساء العباسيين في
أبان بذخهم . ولعنها قلدت بها بساطاً لأم الخليفة المستعين عليه الطراز
والترصيع بصور كل حيوان من جميع الأجناس وصورة كل طائر من ذهب
وأعينها من يواقيت وجواهر^(١)

دخلت لمياء وبنت الأخشيد متكئة على ذلك المقعد والمطرف على جنبها
يأخذ لمعانه بالأبصار والمائدة بجانبها عليها الأطعمة . وقد وقف الخدم من
الجواري يحمان الأطباق فيها الحلوى أو الفاكهة . وهن في أجمل ما يكون
من الأثواب وتصفيف الشعور إلا لمياء فإنها ظلت على بساطتها
فتقدمت القهرمانة أولاً وأنبات السيدة بنت الأخشيد بقدميها
وانصرفت فدخلت سلامة (لمياء) وعليها ذلك الثوب الباهر الذي زاد وجهها
إشراقاً وهيبة . ولم تنالك بنت الأخشيد عند دخولها عن الجلوس ووسعت
لها مجلساً على المقعد ودعتها إلى القعود بجانبها فقعدت فرحبت بها وقالت
« ان هدية ابن كلثوم قد كفرت عن سيئاته وسيئات شيعته » وضمتها
وقبلتها ولمياء مطرقة وقد زادها الحياء وقاراً - والحياء من أجمل ما تزدان
به المرأة بل هو أجمل أثواب زينتها الحقيقية

ثم تقدمت بنت الأخشيد إلى لمياء أن تتناول الغداء معها . وأشارت
إلى خادم بيده طبق أن يضعه على المائدة بين يديها وفيه سكاج فتناولت

قطعة وناولت لمياء قطعة تشجيعاً لها فاطاعتها وتناولت مما حضر من الألوان . ولم يكن بينها شيء لم تعرفه الا لوناً في جام انكرته ولم تستلذ طعمه . ولحظت بنت الاخشيد ذلك فقالت « يظهر انك لم تستطعي هذا اللون مع ان الدرهم منه يكلف مئات الدنانير انه مصنوع من أدمغة نوع من الطير لا يوجد في غير مصر ونحن نتفق في جمعه الاموال الطائلة لان دماغه كثير الغذاء واللحمة منه تغني عن عدة اطباق من اطعمة اخرى »

ثم امرت بالحلوى فاتوا بعشرات من اشكالها بين معاجين ومطبوخات وفاكهة . ويقدمون في اثناء الطعام باقات الازهار الطيبة الرائحة غير ما يرشونه في ارض القاعة من ماء الزهر او العطر وما يحرقونه في المباخر المنصوبة بين الابواب من الند او العود

وكان في جملة ما قدموه على المائدة سائل محمر اللون (خمر) لم تعرفه لمياء ولا مدت يدها اليه بل هي حالما وقع بصرها عليه اقشعر بدننها لانها تذكرت الشراب الذي ذهب بحياة أبيها . على أنها كانت تنظر الى كل ذلك بعين الاستغراب وتقابل بين ما كانت تراه من نقشف المعز وأم الامراء والاموال عندهم في الخزائن وسلطانهم في ابانه وبين ذلك الرخاء والبلاد في ضيق والناس يتضورون جوعاً

وكانت بنت الاخشيد تأكل بهم ولذة وتعجب لتعفف لمياء وتحسبها تفعل ذلك من علة لانها تعودت ان ترى غاية الانسان في دنياه ان يتمتع بالملذات على اختلاف اشكالها وضروبها . ولا تقدر تتصور أحداً يتمتع عن لذة الا اذا عجز عن نيلها - ذلك شأن المتغمسين في الشهوات وهم يكثرون في اواخر الدولة قرب سقوطها إذ تذهب ملذاتهم العقلية والادبية بذهاب مجدهم ونفوذهم فلا يبقى لهم غير الملذات البدنية فينصرفون اليها فلا تزيدهم الا ضعفاً وانحطاطاً - ان ملذات الرجال في اوائل الدولة تقوم بالنصر أو الفوز والمسابقة في الفتح أو نيل المناصب وتقويمها وتوسيع دائرتها لاتهمهم الملذات البدنية الا قليلا . فاذا ذهب المجد وأخذ أصحابه بالتقهقر لا يبقى غير هذه الملذات

أمرت بنت الاخشيد برفع المائدة وقد امتلأت معدتها وانتفخت عروقها وأسرعت دورتها وبأن ذلك في عينيها واستلقت على ذلك المقعد . وأحبت لمياء ان تنتقل الى المقعد الآخر فامسكتها واقعدتها بجانبها وأخذت تحادثها فبدأت بالسؤال عن بلدها فقالت « من أين أنت يا سلامة ؟ » فلم تعرف ماذا تجيب لانها لا تريد ان تكذب ولا ان تقول من هي فاجابت جواباً وسطاً فقالت « اني من افريقية (بلاد المغرب) » فوقع اسم افريقية وقعاً شديداً على سمعها لانه شغلها الشاغل منذ عدة اشهر فتصاعد الدم الى وجهها لكنها تجاهلت وابتسمت وقالت « ان افريقية واسعة فمن أي قسم منها ؟ » فقالت « ان الجوارى يا سيدي لا يطلب منهن معرفة انسابهن لانهن ينتسبن الى موالين فأنا الآن في دار السيدة بنت الاخشيد وانما انتسب اليها وكفى »

فاستحسننت جوابها الدال على الذكاء وأحبت تبديل الحديث واذا بالحاجب دخل وقال « القواد الاخشيدية لا يزالون في انتظار الاذن لهم بالمقابلة يا سيدي ... »

فتأففت وهزت رأسها وقالت « اقلقوا راحتي بمقابلاتهم .. ما أصنع لهم هذا اميرهم احمد فليقابلوه ... » قالت ذلك ونظرت الى لمياء فرأت لمياء ان لا تضيع هذه الفرصة فابتسمت ابتسامة مسيرة وقالت « صدقت يا سيدي ان هذه المقابلات ترعجك لكنك تعلمين ان الرأس كثير الاوجاع ولولا ثقهم بتعقلك وسداد رأيك لم يطلبوا مقابلتك . فاذا جاز لي أن أشير عليك أرى ان تأذني بدخولهم وتشجيعهم وتنصحي لهم فان اميرهم صغير السن .. »

فقطعت بنت الاخشيد كلامها قائلة « أحسنت يا سلامة لكنني لا أستطيع مجالستهم الآن بعد الطعام فأرى ان أؤجل الاجتماع الى المساء » فقالت « ذلك لك اذا شئت . لكنني لا أظنهم يلحون للاجتماع في هذه الساعة الا وهم في أشد الحاجة اليه واذا استثقلت الانتقال الى قاعة

أخرى أدعهم الى هنا وانزلي هذا الستر بينك وبينهم وخاطبهم بما تريدن»
 فاعجبها هذا الرأي كثيراً لأنها يمكنها ان تتمتع براحتها في الجلوس أو
 الاتكاء وقالت « هذا الرأي صواب على شرط ان تبقى أنت معي »
 ففرحت لمياء بتلك الدعوة وهي غاية منها لكانها قالت « اذا لم يكن
 بأس من وجودي فاني باقية حسب أمرك .. »

قالت « ان وجودك يؤنسني .. ولا تستعربي ما تريئه من اعجابي بك
 لأول مرة رأيتك فيها فاني لم أجد هذه الاخلاق في واحدة من الجواري
 فانت اميرة باخلاقك » ثم التفتت الى الحاجب وقالت « اذا شاء القواد
 فليتفضلوا الى هنا » وامرت بعض الخدم ان يرخوا الستر فاصبحت القاعة
 قاعتين بينهما ذلك الستر وهو من الديباج المطرز وفيه ثقب ترى منها من
 شاءت من الجلوس ولا يرونها

الفصل الخامس والستون

الجالسة

ولبثت لمياء جالسة وهي تنظر من أحد الثقوب لتعرف الداخلين وما
 لبثت ان سمعت وقع الاقدام وقلقلة السيوف واذا بثلاثة عليهم الالبسة
 الفاخرة والعمام الصغيرة والدراعات المزركشة مما يلبسه كبار القواد . وقد
 تقلد كل منهم سيفاً يجر الى جانبه وحالما دخلوا ألقوا التحية فأمرتهم بنت
 الاخشيد بالجلوس وهمست للمياء « هؤلاء ثلاثة من قواد جنودنا المخلصين
 ويعرفون بالاخشيدية نسبة الى والدي الاخشيد رحمه الله

فاظهرت لمياء الاعجاب . فقالت بنت الاخشيد بصوت عال « مرحباً
 بقوادنا الاجلاء عسى ان يكون مجيئكم خيراً »

فابطأوا في الجواب هنيهة لحظت لمياء في خلالها ان كلا منهم يدعو

الآخر للكلام . ثم تصدى اكبرهم سناً وقال « اتنا جئنا لخير ان شاء الله ونأسف اتنا ازعجنا مولانا بمجيئنا ولكننا لم نر بداً من ذلك والعدو على الابواب وهؤلاء الكافورية لا يزالون ينازعوننا على هذه الدولة . وكنا نحسب مبايعة مولانا الامير احمد توقفهم عند حدهم فيكفون عن تعدياتهم فاذا هم على ما كانوا عليه يفسدون الجند علينا ويوغرون القلوب على مناوأتنا والوزير جعفر لم يزد الا استبداداً في الدولة وقد قبض على الاموال فلم يترك بيضاء ولا صفراء . وقد بلغنا انه كاتب العدو بالتسليم فهل ترضى مولانا بهذا العمل ؟ أم هو استخف باميرنا لانه صغير السن »

فقالت بنت الاخشيد « أنا لا أرضى بذلك . . هذا لا يكون ابداً . . نسلم البلد الى العدو وعندنا الجند والقواد ؟ كيف يفعل الوزير ذلك . لا بد من عزله »

فأجاب أحد القواد « انما فعل ذلك بايعاز الكافورية لانهم على رأيه وقد ساء هم كما ساء ان يعود الامر الى نصابه ويتولى الملك أهله واصحابه وقد خرج من أيديهم فارادوا ان يخرج من يد اميرنا ولو صار الى عدونا . . » قال ذلك والحنق باد في كلامه

ولم تكذب بنت الاخشيد تتدبر كلامه حتى سمعت ضوضاء بباب القاعة ثم دخل بضعة رجال عرفت انهم من قواد الكافورية وكانهم كانوا بالباب وقد سمعوا الطعن بهم وأرادوا الدخول فمنعهم الحجاب فدخلوا قهراً وتصدى واحد منهم للكلام ووجهه الى الطاعن وقال « تقولون اننا أفسدنا الدولة وانها لكم وقد اختلسناها مدة . اتنا لم نختلسها ولولا أميرنا كافور رحمه الله لصارت هذه الدولة في خبر كان . فهو الذي حفظها ونظمها وثبت دعائمها من أول أمرها منذ تولاهم مولانا الاخشيد رحمه الله . فقد كان له خير نصيح ومشير ولو ظل كافور حياً الى الآن لم يجسر العدو على حربنا . وها أنتم ولاية الامر الآن فاخرجوا العدو من الدار »

فاجابه الاخشيدي « نعم اتنا نخرجهم اذا تركتمونا ولم تمالئوهم وتطلوا صالحهم . . دعونا اتنا نعيدهم على اعقابهم . . »

فصاح فيه قائد آخر « ويحك تقول ذلك بجسارة بين يدي مولاتنا .
تقول انتا نملأ الاعداء ؟ »

فأجاب « نعم إنكم تمالئونهم ألم يكن الوزير جعفر سيدكم ونصير اميركم
وهو الآن يخبر الاعداء في طلب التسليم .. »

فضحك ضحكة اغتصائية وقال « انه يفعل ذلك برأينا . . ومع ذلك
فقد أحسن صنعا .. ان دولتكم قد شاخت واذا أنكرتم ذلك هلم الى العدو
وحاربوه واخرجوه »

فحفي غضب الاخشيدية وصاحوا بصوت واحد « انتا لا تقبل هذه
الاهانة وخصوصاً بين يدي مولاتنا ومولاتكم . » وتقدم أحدهم ويده على
قبضة حسامه وقال « والله لولا حرمة هذا المكان لضربت اعناقكم بهذا
الحسام وألحقكم باميركم العبد الاسود الذي تفاخرونا به . . صدق فيه
المتنبى (اشارة الى هجوه إياه)

فتصدى رجل من الكافورية واستل حسامه وقال « ويحك تطعن في
الاموات .. انها وقاحة لم يكن لمولاتنا بنت الاخشيد ان تسكت عنها »
وعلت الضوضاء فصفتت بنت الاخشيد وصاحت « ويحكم ما هذا .
تتشائمون في حضرتي . واغرب من ذلك ان نسمع الطعن في اسلافنا باذتنا
هذا أمر لا نرضاه . وليس هذا وقت الخصام والعدو بالباب . . وأنتم
يا اصحاب كافور ان كافوراً كان خادماً أميناً رحمه الله فما بالكم تفاخرونا
به أما امارته فقد كانت فلتة انتحلها لنفسه أو انتحلها له بعض اصحاب
الاغراض وزعم ان الخلعة أتته من بغداد .. ما لنا ولهذا الآن انه خصام
في غير أوانه . . »

فوقف الكافورية جميعاً وقال كبيرهم « اما وقد سمعنا هذه الاهانة
من فم مولاتنا فلم يبق لنا الا ان نخرج ونترك الامر لاصحابه وولاة امره »
قالوا ذلك وانسحبوا بعجلة والغضب باد في كل حركة من حركاتهم
وكانت لمياء في اثناء ذلك لا تزداد الا وثوقاً بنجاح جنـد المعز . فقد

رأت بعينها وسمعت باذنيها اختلال امور الدولة وانقسام قوادها وتباغضهم
بما لا سبيل الى اصلاحه

فلما خرج الكافورية التفتت بنت الاخشيد الى لمياء كأنها تستشهدا
على هذه الوقاحة وقالت « أرأيت أجهل من هؤلاء . . ويلاه كيف نحارب
الاعداء . . اتنا لا نقوى على حربهم . . »

فاستبشرت لمياء بالفوز وقالت « يسؤني يا سيدتي ان تكوني قد نطقت
بالصواب وعسى ان تكوني مخطئة »

وكان بنت الاخشيد ندمت على ما فرط منها فاستأنفت الكلام قائلة
« بل أنا مخطئة لا . لا اريد ان اتصور ذلك ولو بالحلم . يدخل البلاد
عدو غريب يحكم في رقابنا ؟ » ورأت انها كان ينبغي لها ان تستعطف
الكافورية باللين وانها أخطأت بما قالته فارادت أن تلقى التبعة على سواها
شأن ضعيف الرأي في مثل هذه الحال . فالتفتت الى الاخشيدية وكانوا
لا يزالون واقفين يتحدثون بما أتاه الكافورية وقالت « لم يكن ينبغي لكم
أن تجافوهم بمثل هذا الكلام وهم اخوانكم وعليهم الممول في الحرب
فأغضبتموهم »

فاجابها احدهم « وأنت يا مولاتنا تلقين هذه التبعة علينا ؟ وقد سمعت
الاهانة التي لحقت بنا وبك وبسائر آل الاخشيد . فليكن ما تشائين . . أو
لعلنا أخطأنا بمبايعة الامير احمد مع صغر سنه لكننا لم نفعل ذلك الا اعتماداً
على نصرتك . فاذا كنت ترين اتنا غير كفء لشيء فلنذهب » قال ذلك
ونحول وتبعه رفاقه

فاحست بنت الاخشيد عند ذلك بضعف العزيمة وانها أصبحت منفردة
لا نصير لها الا اذا تذلت واستعطفت فانقبضت نفسها وبان الانقباض في
وجهها وسكنت هنية ولمياء تراقب حركاتها وتقرأ ما يجول في خاطرها .
فلما رأتها في تلك الحال قالت « ما بال سيدتي كئيبة . . أمن اجل كلمة
تقبض نفسك ؟ »

فتهدت وقالت « آه يا سلامة ليس من اجل كلمة ولكن هؤلاء

لا يقدرّون العواقب وقد خرجوا من هذه الجلسة اخصاماً يتوعد بعضهم بعضاً وهم يدنا وساعدنا وجندنا فبمن نحارب عدونا؟ لا نصالح ولا نقدر ان نحارب . ويلاء ما العمل « ودمعت عيناها . فاكبت لمياء عليها وضممتها وقبلتها وقد أشفقت عليها وقالت « لا بأس عليك يا سيدي لا تخافي » فاستأنست بذلك الحنو وقالت « كيف لا أخاف ؟ واذا كان العدو كبيراً كما يظنون وقدر له الغلب ماذا يصيبني ؟ »

قالت « لا يصيبك شيء يا مولاتي »

قالت « لا تلطفي الامر علي . . »

قالت « اني لا أطفه ولا يجب مع ذلك ان تيأسى من النصر . ولكن هي لا سمح الله ان العدو اغتتم هذا الضعف وتغلب فانت في أمان لأن هؤلاء المغاربة مع كونهم اعدائكم اقرب الى الضن بكم من هؤلاء الاجناد المتمردين »

فرأت في لهجتها شدة وعزيمة فقالت « وكيف عرفت ذلك ؟ »

قالت « اعرفه بالاختبار لاني من بلاد المغرب كما تعلمين وكان سيدي الاول له علاقة كبيرة باهل القيروان وتعرف الى المعز وقائده . وكثيراً ما سمعتهم يتحدثون وعرفت طباعهم - انهم اقرب الى الخير من هؤلاء الاجناد و . . »

فقطعت كلامها قائلة « هل تعرفين المعز وقائده ؟ »

قالت « نعم يا سيدي اعرفهما معرفة جيدة وهما يعرفاني ايضاً » فضحكت من السرور بهذه البشارة وأحست بنفوذ تلك الفتاة وأحبت أن تقول شيئاً فمنعها الحياء وحالت دونه الالفة فادركت لمياء غرضها فبادرتها قائلة « انظري يا مولاتي . . ان ما لقيته من لطفك ومحبتك يوجب علي ان أثار على مصلحتك فاذا اذنت لي اقول كلمة »

قالت « قولي »

قالت « انكم الآن في حرب مع المغاربة وسمعت الآن ان ابن الفرات ساع في الصلح فاذا وفق اليه كوني على ثقة انك تكونين معرزة

مكرمة فاني اعرف ام الامراء زوج المعز وهي من ألطف خلق الله وتحبني
حياً جماً . فانا ضامنة كرامتك . واذا لم يفلح ابن الفرات بالصلح وجرت
حرب فاذا فاز المصريون فانت صاحبة السيادة طبعاً . واذا غلبوا على
أمرهم فانا افديك بروحي وأكون وسيلة لحفظ كرامتك وأموالك كوني
براحة »

ففرحت بنت الاخشيد بهذا الوعد ولكنها أحست بصغر النفس
وندمت على تصريحها بما قالته وخافت ان تستضعفها لمياء أو تحتقرها فقالت
« ولكن الفوز مع ذلك راجح لنا باذن الله »

فقالت لمياء « ان النصر من عند الله يؤتیه من يشاء . . لكني قلت لك
ما أستطيع ان اخدمك به والامر لله »

فضمتها بنت الاخشيد الى صدرها وقالت « اني أشكر يا عزيزي
في كل حال . . »

الفصل السادس والستون

جلسة أخرى

وكانت الشمس قد مالت الى الاصيل وتحفرت بنت الاخشيد للنهوض
فوقع بصرها على قارب يجري في النيل بسرعة فالتفت لمياء وتفرست بمن
فيه فلم يطل تفرسها حتى رأت فيه جماعة فيهم ابو حامد وسالم فخفق قلبها
وارتعدت فرائصها وعلتها البغته وتوردت وجنتها لكنها تجلدت وتجاهات
فقالت بنت الاخشيد « هل ترين ذلك القارب ؟ يظهر انه قادم الينا وقد
تعبنا اليوم من المقابلات » قالت ذلك ونهضت حتى أطلت من الشرفة ولمياء
معهما فرأتا القارب وقف عند المسناة بقرب باب القصر فقالت « انهما قادمان
الينا بلا شك فهل اقابلهما ؟ »

قالت لمياء « تسأليني يا سيدتي ؟ اني لا أرى بأساً من المقابلة من وراء

هذا الستر لعل مع القادمين خبراً جديداً فاذا اعجبنا استفدنا منه والا
اهملناه »

قالت « لله درك من حكمة عاقلة . . يا ليتني ظفرت بك من قبل »
وبعد هنية جاء الحاجب يستأذن لرجلين من اعيان المغرب . فاذنت
بنت الاخشيد في ادخالها وأخذ قلب لمياء بالخفقان حتى خافت أن تخونها
عواطفها فتشاغلت بالالتفات الى النيل لئلا يبدو ارتباكها . ثم دخل الرجلان
فرأت من وراء الستر انهما ابو حامد وسالم فجعلت تغالب عواطفها لترى
ما يكون وهي تتوقع أن ترى شيئاً جديداً يتم لها به ما كشفتة في تلك
الجلسة وكان قد أقلقها ما سمعته من القبض على الحسين

فلما دخلا ألقيا التحية كالعادة فامرت لهما بنت الاخشيد بالجلوس ورحبت
بهما ولمياء تتفرس فيهما فرأت سالماً على غير ما تعرفه من الجمال فظنت أن
السفر غيره والواقع ان ما عرفته من خيائته وغدره قلل كثيراً من جماله -
بعضه من تأثير الاحتقار والبعض الآخر من تأثير العواطف على الملامح .
فان الرجل ضعيف الخلق قد ينشأ وفي وجهه هيبة وأنفة فاذا توالى عليه
الذل ظهر في سحنه شيء منه

فلا غرابة لما ظهر لها من تغير سحنه وقد مضت سنة وبعض السنة
وهو ينقاد لابي حامد ويظهر بما يريد له من المظاهر المختلفة - أما ابو حامد
فقد كان أقوى خلقاً وأثبت عزيمة . يدلك على ذلك بقاؤه على المطالبة بدم
ابي عبد الله الشيعي دهرأ لا يرى لنفسه عنه متحولاً رغم ما لقيه من
الفشل على انواعه وآخر فشله في امر كافور وقد أوشك أن ينجح لو بقي
كافور حياً ولم يصب جند مصر ما أصابه من الانقسام . ومع علمه بانقسام
الجند وضعفه فان عزمه لا يزال ثابتاً ولم يرجع عما عزم عليه منذ أعوام
وهو يسوق سالماً معه فيطيعه ويقول بقوله

فلما جلسا بعد اللقاء التحية قالت بنت الاخشيد « مرحباً بالاضيف من
أين أنيتم ؟ ومتى كان قدومكم ؟ »

قال ابو حامد أتينا مصر منذ بضعة اشهر ونحن من امراء المغرب في

سجلماسة أصابنا ما أصاب سائر امراء المغرب من ظلم العبيدين ففتحوا بلادنا واستبدوا فينا وطلبوا الينا التسليم فلم نقبل فاتينا مصر لنعيش في ظل الاخشيدين حيث لا يقع بصرنا على أحد من اعدائنا ولعلنا نستطيع خدمة هذه الدولة . وقد بلغنا أمس ان دعاة الخلافة بالمغرب زحفوا على مصر بقيادة المملوك الصقلي فصرنا نتوقع أن تجتمعوا لدفعهم لان هذا الامر يهنا كثيراً وعدو عدوي صديقي . لكننا سمعنا بما أصاب قلوب بعض القواد والوزراء من الخوف حتى تحدث بعضهم بطلب الصلح . فاستغربنا هذا الضعف واحببنا أن نبرهن للاجناد خطأهم فلم نر أوجه من بنت الاخشيد لان الامير حفيد أخيها وهو غلام فهي صاحبة الصوت الاقوى « وتنحج ابو حامد ومسح شاربيه بيده وأرسلها على لحيته وحك عثونه فقالت بنت الاخشيد « بارك الله فيك ما الذي جئتنا به من اسباب الاطمئنان ؟ »

قال « ان ما جئتك به يا مولاتي انما هو ان اسعى في التوفيق بين القواد الاخشيدية والكافورية . وهذا لا يكون إلا ان اثبت لهم ان جند المغاربة لا يستطيع ان يفتح هذه البلاد لان انقسامهم انما وقع بسبب خوفهم من الفشل وهذا طبيعي في كل زمان ومكان - لا يختصم شريكان الا اذا خسرت تجارتهم . فاذا برهنت لهم على يدك ان اولئك الدعاة لا يمكن ان يفتحوا مصر تشددوا واتحدوا وطرردوا العدو عن بلادهم »

فاعجبت بنت الاخشيد بفصاحته وقوة حجته ونظرت الى لمياء فوجدتها مصغية بكليتها ولم تنبته الى ارتباكها فقالت لابي حامد « وما هو دليلك ؟ » قال « دليلي ان قائد جند المغاربة رجل اسمه جوهر الصقلي ولهذا الرجل غلام اسمه الحسين هو عزيز عليه . فعلم الحسين هذا بما لكنا قد خبأناه في بعض الاماكن قرب سجلماسة لنستعين به على استرجاع ملكنا فاغتم غيابنا وذهب بشرذمة من الجند ليقبض ذلك المال . لكن رجالنا هناك قبضوا عليه وأرسلوه الينا مغلولاً فاذا شئت دفعناه اليك ليكون رهنا تهددون به أباه ان توهم اقتداره على مصر »

وتذكرت بنت الاخشيد قول لمياء انها تعرف المعز وقائده وسائر رجال الدولة في القيروان فلما سمعت ما قاله ابو حامد عن الحسين بن جوهر التفتت اليها فوجدتها لا زال شاخصة تتناول بعنقها لسباع بقية الحديث فقالت لها همساً « هل تعرفين الحسين بن جوهر ؟ »

قالت « نعم اعرفه وأحب أن تأمرني باحضاره لئلا يكون هذا الرجل كاذباً »

قالت « وهل تعرفين هذين الرجلين ؟ »

قالت « نعم رأيتهما في القيروان وسمعت عنهما ما يضعف الثقة بهما فاذا أمرت باحضار اسيرهما لنراه كان ذلك اقرب الى التحقيق »

فالتفت بنت الاخشيد من وراء الستر وقالت « أين هو ذلك الاسير » قال ابو حامد « هو عندنا واذا شاءت مولائى اتيناها به »

قالت « افعل ولك الفضل »

فاشار ابو حامد الى سالم ان يمضي لاستقدامه فمضى ولبثت لمياء على مثل الجمر تناسك وتتجلد لئلا تغلبها عواطفها وهي تحب ان يكون كاذباً في قوله فيكون الاسير المزعوم رجلاً آخر لكنها ما لبثت ان سمعت ضوضاء قرب الباب وسالم يقول « تقدم يا جبان لترك مولاتنا بنت الاخشيد »

فتناولت لمياء بعنقها حتى وضعت عينها على ثقب الستر واذا بالحسين نفسه داخل والاغلال الحديدية في عنقه ويديه لكنها مشى بقدم ثابتة والتفت الى سالم وقال له « متى رأيتني أحاول الفرار حتى تدعوني جباناً » فالتفت بنت الاخشيد الى لمياء لتستطلع رأيها في الرجل فرأتها ترتعد وقد احمرت عيناها وكادت تغلب على أمرها فقالت « هل هذا هو الحسين كما يقول ؟ »

فاشارت برأسها ان « نعم » ولم تفه بكلمة لئلا يخلق صوتها فينفضح أمرها فاستغربت بنت الاخشيد ما بدا من اضطرابها لكنها وجهت خطابها الى الحسين قائلة « هل أنت الحسين بن جوهر قائد جند المعز ؟ »

فأجابها وهو رابط الجأش ثابت الجنان « نعم أنا الحسين بن جوهر
فاتح افريقية وقائد جند المعز وسيفتح مصر عن قريب »
فوخزه سالم بيده وقال « اخرس يا نذل أبمثل هذه الوقاحة تخاطب
مولاتك ؟ »

فرفسه الحسين برجله وقال اخرس انت انها مولاتك انت . ولعلها
لو عرفتك تبرأت من هذه الولاية أما مولاي فهو المعز لدين الله الفاطمي «
فتصدى أبو حامد للكلام وهو يضحك ضحك الاستهزاء وقال
« ألا تزال تسمي ذلك الدعي فاطمياً وفاطمة بريئة من نسبه »
فقال الحسين « انه فاطمي رغم خيانتك وغدرك »
فقالت بنت الاخشيدي « الذي أوقعك في هذا الاسر ، ما كان اغناك
عنه »

قال « وقمت فيه تفانياً في خدمة مولاي المعز وقد فزت والحمد لله بما
أردت . فأخذت المال الذي خزنوه في فج الاخيار وبعثت به الى القيروان
وهو الآن مع والدي وقد صبوه قطعاً كالارحية حملوها معهم على الجمال ..
قال أبو حامد « لا تكذب ! »

قال « إنما الكاذب أنت ! . انى قد فعلت ما يطلب مني وارسات ذلك
المال الى مولاي المعز وسيستعين به في فتح مصر . ولا يغرنك ما أتاه رجالك
من الخيانة في القبض علي فان ذلك غير ضائري . قد قمت بما علي واذا مت
الساعة لا أبالي فان الاعلام الفاطمية لا تلبث ان تحرق فوق الفسطاط واذا
لم اوفق الى رؤيتها وأنا حي فان عظامي تراها وتفرح »

فأعجبت بنت الاخشيدي بتلك الجسارة التي لا تقدر ان تتصورها ولا
سمعت بمثلها لما نشأت عليه من الجمول والرخاء فالتفت الى لمياء فرأتها مع
عظم تأثرها قد غلب البشر على محياها فقالت لها همساً « استغرب ما اسمعه »
قالت لا تستغربني يا سيدتي . فان ذلك شأن اولئك الاقوام وهم لم
يفتحوا افريقية الا بمثل هذا التفاني »

قالت ومع ما سمعته من هذا الشاب فاني شعرت بانعطاف اليه ولم يعجبني تطاول هذا السجلماسي «

فلم تنالك عن الانتصار لحبيها فقالت « فكيف لو علمت الفرق بين الرجلين بالاخلاق «

قالت « هل تعرفين شيئاً عنهما ؟ »

قالت « ان أهل القيروان يتحدثون بذلك . . أما الآن فاذا شئت مري ان يكون هذا الاسير في دارك ولينصرف ذاك وترى ما يأتي به الغد «

قالت « أحسنت الرأي وقد اصبحت لا اطيق ان أرى الحسين مغلولاً « وصفت فاتي بعض غلمانها فقالت « خذ هذا الاسير الى غرفة يقيم فيها حتى تنظر في امره لكن احلل وثاقه إذ لا خوف من فراره «

فتناول الغلام بيده وخرج فوقع هذا العمل من لمياء موقعاً جميلاً وكاد قلبها يطير من الفرح . ولحظت بنت الاخشيد ذلك فيها فظنتها فعلته لشعور مثل شعورها فعذرتها والتفت الى أبي حامد وقالت « سننظر في ما عرضته علينا وسأقص ما رأيته على قوادنا فعسى ان ينفعنا ذلك « ففهم ابو حامد انها تطلب انصرافهما فنرض وخرج مع سالم وقد سقط في ايديهما وان لم يفهما ما جال في خاطرها

الفصل السابع والستون

الرأي

ونهضت بنت الاخشيد للحال وهي تتشاءب وتقول ما اشغل هذا اليوم وما أثقله فقد تعبت من المفاوضات - ان هذا لا يستطيعه الا كبار الرجال وقد اخطأنا بتولية هذه الامارة غلاماً صغيراً «

فنهضت لمياء معها والشمس قد غربت وأخذت الظلال تتكاثر وتتحول الى ظلام . وأصبحت تود الاختلاء بنفسها للتفكير في ما تراكم في ذهنها من الحقائق الجديدة وما أصاب قلبها من الصدمات المتوالية فرأت بنت الاخشيد تحولت الى غرفتها وأشارت اليها أن تتبعها فأطاعت وقد أدهشتها تلك الغرفة بما فيها من الرياش الثمين وفي صدرها سرير من الابنوس المنزل بالعاج والذهب فوقه ناموسية من الحرير الشفاف (الملس) وكل ما في الغرفة زاه زاهر عكس قلب صاحبة المسكنة فانها تحولت من تلك الجلاسة وقد تراكت عليها الهموم والخاوف ولم تكن تشعر بشيء من ذلك قبلا . وأصبحت شديدة التعلق بمياء ولا سيما بعدما آنته من تعاقبها والخدمة النافعة التي عرضتها عليها فأحبت أن تتوثق منها

فجلست على سريرها وأمرت لمياء أن تقعد بجانبها فقعدت وهي تفضل الخلوة لكنها أطاعتها ولحظت ما هي فيه من القلق فاشتركت معها في احساسها وشعرت انها امتلكت قلبها - ظللتا هنيهة صامتتين وبنت الاخشيد مطرقة ويمناها على كتف لمياء واليسرى على قلبها كأنها تتقي صدعاً أصابه . ثم نهدت ونظرت الى حوها لتتحقق خلو المكان من الناس ثم التفتت الى لمياء وضممتها الى صدرها وقبلتها في عنقها وأطالت تقييلها فشعرت بسائل حار يقع على عنقها فأجفلت وعلمت ان بنت الاخشيد تبكي وهي تحبس نفسها لئلا تلاحظ لمياء ضعفها . فتلطفت لمياء ورفعت رأسها وضممتها وهي تقول « ما بالك يا سيدتي ؟ خففي عنك . اني لا أرى باعثاً على ذلك . ومن كان في ما انت فيه من الوجاهة والنفوذ لا يستغنى عن امثال هذه المشاكل »

فرفعت رأسها وتهدت ثانية وقالت « لا تعجبي من إبداء ضعفي بين يديك في اول يوم عرفتك فيه فاني اشعر كأنني اعرفك منذ اعوام . وقد اطلعت على حالنا الليلة فاشيري علي . . اشيري يا حبيبتي »

فسرت لمياء من وثوق تلك المرأة بها وأحست فعلا بالعطف عليها واستغربت انقلابها بهذه السرعة عما كانت عليه من الزهو والتهيه لما قابلتها

في ذلك الصباح . وشاركتها بالبكاء وليس اسهل عليها من ارسال الدمع فان مصائبها تترى واحساسها حي فقالت « هوني عليك يا مولاتي اني لا اري باعناً على هذه الشكوى . وقلت لك ما اقدر ان اخدمك به وقد فتح لنا باب جديد بوجود الحسين بن جوهر اسيراً في قصرك وتحت رعايتك ولا ينفعك ان تثقله بالقيود والاغلال فان ذلك لا يؤذيه . ولا اقول لك اطلقه فان في ذلك خيانة لبلدك . ولكنني اقول لك لاطفيه واحسني وفادته فاذا قدر النصر لجند مصر كانت الحسين هذا من جملة اسرى الحرب . واذا فاز القيروانيون وانهزم المصريون عرف الحسين فضلك وسعى في صيانتك وحفظ كرامتك »

فدهشت بنت الاخشيد لهذا الرأي الذي لا يقبل التعديل فقالت « بورك فيك .. ولعلك علمت اني غضبت لهذا الشاب من تلقاء نفسي وساء لي ما اناؤه ذلك السجلماسي من الفظاظ في معاملته وشعرت بما علمته منك بعد ذلك من التباين في اخلاقهما فانا ميالة الى محاسنة الحسين وسافعل . . » فاطرقت لمياء لحظة ثم قالت « وعندي رأي اظنك توافقيني عليه اعني انا اذا صارت حالنا الى الخطر استكتبناه كتاباً الى ابيه في الوصاية بك وبمن في دارك »

فاظهرت امتنانها ونهضت تظهر رغبها في الانصراف فاحست بنت الاخشيد انها اتعبتها في ذلك اليوم فنهضت وودعتها بقبلة وقالت « اذهبي الى فراشك يا عزيزتي واستريحى فقد اتعبتك في هذا اليوم » فودعتها وانصرفت الى غرفتها وقد امتلأ صدرها أملاً بالفوز وأصبح ههما ان تنقل ما شاهدته من فساد احوال الدولة والجند الى يعقوب حتى ينقله الى معسكر جوهر بالاسكندرية فلبثت تتربص الفرص

أما الحسين فانه كان قد ذهب الى فج الاخيار في شردمة من الفرسان وتمكن من استخراج الاموال وارسالها الى القيروان ثم غافله حفاظ ذلك المحباً واستفردوه فعقروا فرسه وبعد معركة جاهد فيها جهاد الابطال تكاثروا عليه حتى سقط فشدوا وثاقه ووضعوا الاغلال في يديه ورجليه

وعنقه وبعثوا به الى أبي حامد بمصر ولم يخبروه انه تمكن من حمل المال قبل القبض عليه . أو لعلمهم أخبروه وتجاهل . وثم وصل الحسين باغلاله ومصر في تلك الحال فرأى أبو حامد ان يتخذة تنمة لمساعدتهم فحملة الى بنت الاخشيد كما رأيت لكنه أحس قبل خروجه من حضرته أنه لم ينجح بتلك الحركة ولكنه تجاهل بين يدي سالم وأوهمه أنهما نائلان ما يريدان عن قريب وان الجند القيرواني سيعود بالفشل . وكان يحسب التوفيق بين الاجناد اسهل مما رآه على أثر ذلك النزاع في مجلس بنت الاخشيد

أما الحسين فشعر أنه سيق الى ذلك القصر لحسن حظه . وفاتحة الفرج حل اغلاله فبات تلك الليلة مرتاحاً وفي صباح اليوم التالي أتوه بثياب نظيفة وفرشوا له غرفة خاصة ووقفوا خادماً للقيام بما يحتاج اليه من طعام وشراب كل ذلك باسم السيدة بنت الاخشيد . فلم يكن ينقصه شيء غير الخروج من ذلك القصر فهذا كان محظوراً عليه فكان يقضي أوقاته مفكراً في ما مر به ولم تبرح صورة لمياء من ذهنه . ولم يكن يعرف الى أين ذهبت وكلما تصور معاملة سالم وأبي حامد له يغضب ويتوعد . وكان وهو في أثناء الطريق قد علم بحملة أبيه على مصر وزوله الاسكندرية وسمع وهو في قصر بنت الاخشيد ان بعض المصريين خبروه بشأن الصلح والتسليم وود لو انه مطلق ليشارك في المعارك . وبقدر ما كان من تقمته على أبي حامد وسالم بقدر ذلك وأكثر منه كان امتثانه من بنت الاخشيد لا كرامها اياه بلاسبب يعلمه وبعد ايام جاء رسول يدعو الى مقابلة بنت الاخشيد في قاعتها فلبس ثيابه وصعد فادخله الحاجب الى تلك القاعة ونادى السيدة من وراء الستر قائلاً « هذا يا سيدتي الحسين بن جوهر في حضرتك وها اني خارج وقد تركته وحده كما امرت »

فتقدم الحسين والتقى التحية فردت السلام وقالت « كيف ترى نفسك

يا حسين »

قال « أراني مقيداً »

قالت « ألم تحل قيودك ؟ »

قال « بلى وهذا فضل لا انساه لك وقد فعلت ما هو أليق بالكرام
ولكنني لا أزال أراني مقيداً .. اني كالحبىس في هذا القصر »
قالت « لا ألومك لضجرك من هذا الحبس ولكن لو كنت في مكاننا
هل كنت تفعل غير ذلك ؟ ان أباك حامل علينا بخيله ورجله ووقع لنا ابنه
وبلغنا انك من خير القواد فهل نطلقك لتكون عوناً لعدونا علينا
ألا يكفي اتنا حللنا قيودك واطلقنا لك الحرية وقتنا بما تحتاج اليه من اسباب
الراحة . . . »

فأعجب بتلك الحججة الدامغة وقال « لا أنكر فضلك يا مولاتي والحق
يقال انني لا أنسى هذا الجميل .. والدنيا دول . . »
فقالت « عسى ان تنتهي هذه الحرب بالمصالحة ونجتمع على مودة - وقد
بعثت اليك الآن لاطمئن على راحتك فاذا كنت ترى تقصيراً في ما تحتاج
اليه اخبرنا »

قال « كلا . انى لا أرى تقصيراً قط »
قالت « تقدم قليلاً لاقول لك كلمة »
فتقدم حتى دنا من الستر فقالت له « سأرسل اليك بعد قليل جارية
من قبلي اسمها سلامة تطلب منك امراً فاقضه لها . . وقد لا احتاج الى
ارسالها فاذهب بسلام »

فتراجع حتى فتح الباب فلقى الحراس فرافقوه الى محبسه باحترام
واكرام وقد شغل باله ما اقترحته عليه وكان ذلك بتدبير لمياء لزيادة طمأنته
حتى اذا احتاجوا الى كتاب توصية لا يكون ثم مانع من الاجابة حالا

الفصل الثامن والستون

الحرب

قضت لمياء أياماً وهي عالمة بقرب الحبيب وقدرتها على الوصول اليه
لكنها لم ترض ان تلقاه لانها عاهدت نفسها على الصبر حتى تفرغ الحرب

وهي تخاف من الجهة الاخرى اذا عرف الحسين بوجودها هناك ان يحدث ما يعرقل مساعيها فتجلدت وهي تبحث طبعاً عن راحتها وكرامته . ومع شجاعتها ورغبتها ان يشترك الحسين في ذلك الفخر كانت نفسها تميل في باطن سرها الى صيانتها من خطر الحرب . وكانت على ثقة من قدرة جند المعز على الفتح بدون الحسين فلماذا تعرضه للسهام ؟ وقد يحییء سهم يصيب منه مقتلاً وهي حريصة على بقائه . وفي ذلك من التعقل والحكمة والتسلط على العواطف ما هو جدير بعروس روايتنا

لكن الفرصة لم تبطل فافقت ذات يوم على اصوات المنادين في اسواق القسطنطينية - وكانوا لا يفعلون ذلك لامر هام يريدون نشره سريعاً مما يعلن عنه في الصحف أو تنشر به المنشورات الرسمية في هذه الايام . فكانت حكومة ذلك العصر تذيعه على أيدي المنادين . فسمعت لمياء صوت المنادي وله لحن خاص ينادي به وعبارات خاصة ينادي بها تدل على فحوى ما بعده - كما يقرأ الكتاب من عنوانه

سمعته يقول يا أهل القسطنطينية قد جاءنا عدو من افريقية يتعدى على بلادنا بلا ذنب اقترقناه سوى طمعه في الاستيلاء علينا . وبلغ مولانا الامير ان بعض الخونة المارقين أغرى جماعة من الاعيان على التسليم وكتبوا بذلك كتاباً بعثوا به الى الاسكندرية . فاعلموا ان هذه الخديعة انما الغرض منها الايقاع بالدولة . واعلموا ان الامير اعزاه الله وسائر رجال الدولة والقواد الاخشيدية والكافورية والأتراك وغيرهم لا يقبلون بصلح أو تسليم وانما يتحاضرون الى السيف - ولذلك اقتضى الاعلان حتى يكون الناس على بينة فلا يخدعون بقول ولا يصغون لوشاية . وهذه جنودنا المظفرة قد خرجوا بمضاربهم الى بر الحيزة لملاقاة العدو إذ قد جاءت الانباء انهم يتقدمون الى هناك . فيا أهل القسطنطينية عليكم ان تأخذوا بأيدي الجند وتقدموا ما في طاقتكم من الاسعافات المالية . تقدمونها الى من يأتيكم من قبل الوزير أو الامير ولا تضنوا بالمال فانه اقل ما يبذل في سبيل الدفاع

عن الدولة والملة . والنصر من عند الله يؤتیه من يشاء وهو على كل شيء
قدير . . . »

فأطلت لمياء من نافذة عالية تشرف على الشارع فرأت ذلك المنادي
يسير وراءه الجماهير من الرجال والاولاد وقد علت الضوضاء وساد
الاضطراب . فقالت في نفسها « لا بد ان يكون لذلك اللعين أبي حامد
دخل في جمع قلوب الجند على الدفاع ولكنه باطل والقلوب متنافرة والنيات
فاسدة والضغائن متبادلة »

وهي في ذلك أتتها القهرمانة تدعوها الى بنت الاخشيد فاسرعت
فرأتها جالسة على شرفة من ذلك القصر تطل على النيل وما وراءه الى
الجزيرة فابتدرت لمياء قائلة « يظهر ان ذلك السجلماسي قد افلح في جمع
قلوب الاجناد .. انظري كيف يعدون النيل في القوارب الى الجزيرة وهذا
الجسر بين الفسطاط والروضة يكاد ينكسر من تراحم الاقدام عليه ولا بد
ان يكون الجسر الآخر بين الروضة والجزيرة كذلك أيضاً . وهذه الجسور
مصنوعة من السفن متلازمة جنباً لجنب وفوقها سقايف من الخشب وطبقة
من الرمال والحصى يتوهم غير العارف انها ضعيفة وهي متينة . . . هل ترين
معسكر الاعداء ؟ اني لا أراه »

وكانت لمياء في اثناء ذلك تبحث ببصرها عن ذلك المعسكر ولم تفرغ
السيدة من كلامها حتى ظفرت لمياء بمكانه فصاحت « انظري يا سيدي الى
ذلك الغبار الخيم الى اليمين والاعلام تخفق في خلاله وقد نصبت الخيام
والفساطيط . هل ترينها ؟ »

فقالت وقد امتقع لونها « نعم قد رأيت ويظهر انهم جند كثيف . .
ما العمل الآن ؟ . ماذا ترين هل تظنين جندنا يغلب ؟ »

قالت « أما سمعت قول المنادي ان النصر من عند الله يؤتیه من
يشاء ؟ »

قالت « ما العمل الآن »

قالت « أما نحن هنا فلا خوف علينا كما قلت لك قبلاً »

قالت « هل أخذت الكتاب من الحسين »

قالت « هذا وقته . هل تأذنين لي بتدبير ذلك . »

قالت « افعلي ولكن من يوصله الى القائد جوهر ؟ »

قالت « أنا أوصله كوني في راحة وانما احتاج الى ثوب أتسخر به بزي

الرجال فأمرني لي بذلك وبفرس أركبه . »

قالت « وهل تستطيعين ركوب الخيل ؟ »

قالت « نعم .. وقد تعودتها منذ صباي »

فأمرت لها بما طلبته فلبست ثوب أحد الاجناد وتلثت ونزلت الى

الحسين وقلبا يخفق من هول تلك المقابلة لكنها صممت على التكم

وكان الحسين قد سمع المناداة كما سمعها غيره وأصبح كالاسد الهائج اذا

رأى الفريسة وهو مقيد . وقد قعد على سريره منفرداً واذا بذلك الجندي

قد دخل عليه فقال « من أنت وماذا تريد ؟ »

نخفضت لمياء صوتها واجتهدت في تغييره وقالت « أنا سلامة الجارية

أتيت لأطلب اليك ما وعدت به مولاتي بنت الاخشيد »

فقال « وما ذلك »

قالت « ان تكتب كتاباً الى والدك تقول فيه اذا قدر له النصر

ودخل الفسطاط ظافراً أن يأمر رجاله بحماية هذا القصر جزاء لما لقيته من

رعاية اصحابه هل تفعل ؟ »

قال « نعم .. ان لصاحبه فضلا علي لا انساء .. » قال ذلك وتناول

قسطاساً وكتب عليه بخطه رسالة في هذا المعنى ودفعها الى لمياء فتناولتها

واسرعت في الذهاب خوفاً من أن تغلب على امرها ويتسلط قلبها على عقلها .

وركبت جوادها وخرجت تخرق الصفوف تطلب منزل مسلم بن عبيد الله

وهي تراقب ما تراه من أحوال الناس في اثناء تلك الفوغاء . فرأت تلك

الحماسة مقصور على الاجناد ، وانهم قد اتخذوا ذلك النداء ذريعة لابتزاز

الاموال . والمصريون لا يريدون حرباً لانهم ملوا استبداد هذه الدولة

ومالوا الى استبدالها بدولة أخرى قد تكون أكثر استبداداً منها لكنهم

يحبون الجديد . فرأت بعض الاجناد يسوقون جماعة من اعيان التجار ويضربونهم ويهينونهم لانهم لم يؤدوا الاعانة والناس يصيحون ويستغيثون ويشكون فراغ جيوبهم . ثم اجفلت لسماعها صوتاً كصوت سالم فالتفت فرأته ومعه عمه في جماعة من القواد سائرين على افراسهم نحو الروضة وهم يحرضون الناس على الطاعة وسمعت سالماً يقول لبعض الاغنياء من الاهلين رآه يستغيث من تطاول الجند عليه في طلب المال « اخرجوا الاموال فان هذا الجند يدافع عن ارواحكم وأموالكم ألا تسعفونهم بالمال على الاقل ؟ » فعلمت ان لهذين الرجلين دخلاً في جمع كلمة الجند ونكت الصلح وبعد قليل وصلت الى بيت الشريف مسلم فرأت بابه مزدحماً بالناس بين راكب وواقف وأكثرهم من الاهلين جاءوا يتظلمون أو يستظلون وسمعت نغماتهم على الاجناد وغضبهم لنقض الصلح . فاخترقت الصفوف حتى وصلت الباب فوسعوا لها رغم ارادتهم وهم يحسبونها جندياً جاء بمصادرة أو اغتصاب حتى دخت الباب وطلبت ان ترى الشريف فقبل لها أنه في شاغل فقالت « قد جئت في رسالة مستعجلة »

الفصل التاسع والستون

الرسالة

فوسعوا لها حتى دخت عليه بعد ان ترجلت وسلمت الجواد الى بعض خدمه . وكان مسلم مختلياً في غرفته مع بعض اعيان التجار وقد عات أصواتهم من النقرة على نقض الصلح . فلما قيل لهم جاء أحد الاجناد سكتوا فدخت لمياء بلثامها وأشارت الى مسلم أنها تريد مقابلة على حدة . فدخل معها الى غرفة فاوصدت الباب وراءها ثم ازاحت اللثام فدهش لرؤيتها وقال « ما وراءك .. من أين أتيت ؟ »

فقصت عليه خبرها كما هو وأخبرته عن وجود الحسين في القصر بمأمن وانها احتالت في المجيء اليه بحجة تلك الرسالة، وانما غرضها ان تبلغ القائد

جواهر حال الدولة من الاختلال والضعف حتى لا يفتر بهذا الصباح .
فاعجب الشريف بحميتها وبسالتها وقال « لله درك من فتاة صادقة بأسلة
هل تريدن الذهاب الى القائد بنفسك ؟ »

قالت « نعم . . لاني أستطيع بذلك أن أزيده بياناً شفافياً »
قال « تفعاين حسناً وسيفرح ببقياك لانك تنقلين اليه خبر الحسين
وانه حي آمن وقد سمع بوقوعه في الاسر ولا يدري أين هو »
قالت « أين المعلم يعقوب ؟ »
قال « ألم تسمعي بما أصابه ؟ »
قالت « كلا . . ماذا جرى له ؟ »

قال « ان الوزير بن الفرات صادره على أربعة آلاف وخمسمائة دينار
عرف بوجودها عنده وأراد قتله فالتجأ الي مدة ثم فر الى معسكر القائد
جواهر^(١) وقد حملته ما استطعت من الاخبار والملاحظات . ولكن
رسالتك أعظم أهمية عنده لانك استقيت الخبر من مظانه . . اركبي .
وسأرسل معك بعض رجالي . . ليس خوفاً عليك . ولكنك لا تعرفين
الطريق فيدلونك عليها »

فقبلت ذلك منه وخرجت فامتطت فرسها وركب معها بضعة من رجال
الشريف وساروا يطلبون معسكر القائد جواهر من ورائه . فقطعوا جسراً
على النيل اسفل الفسطاط والشمس قد مالت عن خط الهاجرة فوصلوا
المعسكر قبيل الغروب . وكان رفاقها قد عرفوا فسطاط جواهر فساروا تواء
لا يعترضهم معترض

وكان جواهر جالسا في فسطاطه وقد أوقدت الشموع واجتمع قواده
حوله وهم جلوس وجواهر مطرق يفكر في ضياع ابنه الحسين . وكان قد
سمع من الذين حملوا اليه الاموال من فج الاخبار انه تخلف عنهم ولعله قتل
أو وقع أسيراً . وهم في ذلك دخل الحاجب وقال « ان بالباب رسولا من
الفسطاط يشترط أن يلتقي القائد في خلوة »

فاشار الى الحضور بالانصراف وأمر بادخال الرسول فدخلت لمياء بثوبها ولثامها وأزاحت اللثام وأكبت على يده تقبلها فلم يتمالك عن النداء « لمياء لمياء ! »

فاشارت بأصبعها على شفها ان يكتم امرها فضمها الى صدره كأنها ابنته وهو يحبها كما يحب الحسين . لكنه تذكر الحسين فانقبضت نفسه وكادت الدموع تترقرق في عيفيه فقالت « جئتك يا سيدي ببشرى مزدوجة » قال « ما هي . . قولي »

قالت « الاولى ان سيدي الحسين في أمان ولو عرفني عندما حملني رسالته هذه اليك لكفني بالقاء التحية ولكنني اضطرت للتستر . والثانية ان عدوكم الذي يحاربكم وتسمعون صياحه ونداءه كالقصببة المروضة أو كالطبل صوته قوي وقلبه فارغ »

قال « ماذا أرى أنت لمياء جئت بهاتين البشارتين وأهمهما وجود الحسين حياً بعد أن يُست من وجوده . ولكن أين هو وكيف عرفت ذلك ؟ أخبريني »

فجلست وقصت عليه ما رآته وقاسته منذ برحت القيروان الى أن أخذت تلك الرسالة من الحسين ودفعتها اليه فقرأها وقال « سأفعل ذلك حياً وكرامة - وأين ذلك الخائن وعمه ؟ » فتهدت وقالت « رأيتهما مع الجند بحرضانهم على الحرب وسينالان الجزاء . . . كيف فارقت مولانا المعز وأم الامراء ؟ »

فهز رأسه هز الاعجاب وقال « ان مولانا المعز أعزه الله وأتم نصره من معجزات الزمان . . »

قالت « ومن أكبر اسباب سعادته انك قائده »

قال « كلا يا لمياء اني لو سفكت دمي عند قدميه لا أكافئه على صنيعه . . أنت تعلمين منزلاتي عنده ولكنني لو أخبرتك ما فعله يوم خروجي من القيروان بهذه الحملة لرأيت عجباً - انه أمر بافراغ الذهب في هيئة الارحية وأن تحمل معي ظاهرة . وأمر أولاده واخوته الامراء وولي العهد وسائر اهل

الدولة ان يمشوا في خدمتي وأنا راكب . وكتب الى سائر عماله يأمرهم اذا أنا قدمت أن يترجلوا مشاة . فكنت حينما سرت في طريقى من القيروان كل من مررت به فعل ذلك . فلما أتيت برقة عظم على صاحبها أن يفعل ذلك فافتدى ترجمه ومشيه في ركابي بخمسين ألف دينار ذهباً فأبيت الا ان يفعل ما أمر به أمير المؤمنين ففعل^(١) أمثل هذا الخليفة يكثر فيه الافتداء بالروح ! »

قالت « صدقت والله انه نابغة الخلفاء . وهل أنسى أنا ما أكرمني به حتى كان يناديني ابنته . وهل مثل هذا الخليفة يكون نصيبه من حربه غير النصر ؟ وهل تصلح الدولة ان لم يكن رجالها قلباً واحداً في طاعة اميرهم ؟ أين ذلك من جنود مصر ودولتهم فقد سمعتم يختصمون على امور تافهة ورأيتم يضربون الناس لاستخراج المال منهم وهذا أمير المؤمنين قد بعث المال معك بشكل الارحية . لا شك ان الله أذن بانقضاء دولة الاخشيديين .. هل ترى ان أعود الى الفسطاط . وماهى العلامة التي تجعلها على دار بنت الاخشيد حتى لا يقر بها أحد بسوء ؟ »

فضحك وقال « كأنك واثقة من دخولنا ظافرين ؟ »

قالت « لاشك عندي في ذلك »

فربت على كتفها بيده وقال « بارك الله فيك انصبوا بباب القصر علماً

اخضر وسأوصي الجند ان يجتنبوا ذلك الباب »

قالت « أتأذن بانصرافي .. »

قال « تبيتين الليلة هنا ونرى ما يكون في الغد ولا باعث الى العجلة في

الذهاب »

فأطاعت . أما أهل الفسطاط فقد رأيت ما كان من اضطرابهم وما

ساهم الجند من الخسف والاهانة والسلب حتى أصبحوا يفضلون الفاطميين

عليهم - وأما بنت الاخشيد فانها مكثت بعد ذهاب لمياء وقد تولتها الدهشة

لما شاهدته من مروءة هذه الفتاة وبساتها . ولبثت تنتظر رجوعها وقضت

أكثر أوقاتهما في الشرفة المطلة على الجيزة لتراقب حركات الجندين وقلما كانت ترى شيئاً منهما لبعدهما عن مجال البصر لكنها كانت تتلاهى بذلك ووجهت عنايتها خصوصاً للحسين وأمرت باكرامه ورعايته

الفصل السبعون

العلم

وكان الحسين بعد ذهاب لمياء قد احس بشيء أذكره حبيبته فلم تعد تذهب صورتها من ذهنه وهو لا يدري السبب الذي بعث على ذلك . ولكن السبب ان صوتها وهي تخاطبه لم يخل من غنة تعود قلبه ان يطرب لها يوم اجتماعه بها فطرب لها الآن وهو لا يعلم ان مخاطبته خطيبته - وكثيراً ما يحدث ذلك والناس لا ينتبهون له . قد يخطر لك أمر يتردد في ذهنك وأنت لا ترى باعثاً على تذكره . وانما تذكرته لانك رأيت أو سمعت شيئاً تعودت ان تراه أو تسمعه مرافقاً لذلك الامر

قضى الحسين ليلته وهو يفكر في لمياء وأين هي . وتذكر قولها يوم وداعه انها ستلاقيه في الفسطاط وتصور تحمسها ووثوقها بالظفر من ذلك الحين . فاختلج قلبه وأحس بشوق الى رؤيتها أو معرفة خبرها ولم يكن نسيها من قبل لكنه تذكرها على الخصوص في ذلك اليوم

مضت أيام ولم ترجع لمياء بالجواب من جوهر فقاقت بنت الاخشيد وهي في كل يوم يترجح عندها النصر للفاطميين فاصبحت تخاف على حياتها وانما طمأنها كون الحسين بن جوهر أسيراً عندها تحتمي به عند الحاجة ولما اشتد قلقها بعثت اليه فجاءها فسألته عما يراه من أمر تلك الحرب

فقال « لا ريب عندي بفوز جندنا يا سيدتي »

قالت « عجباً .. كيف تؤكّد ذلك ؟ »

قال « لاتا متحدون قلباً وقالبا في خدمة أمير المؤمنين نساء ورجالا

ليس فينا الا من يفدي أمير المؤمنين بروحه فهل أنتم كذلك ؟ »

فقلت وقد غلبت على عواطفها « لا يابني . . لسنا كذلك لسوء الحظ . . » وغصت بريقها

قال « أما نحن فإن أحدنا لا هم له الا التفاني في نصرة الخليفة . اضرب لك مثلاً عن ذلك فتاة خطبتها في القيروان وجاء ذكر الجملة على مصر فأبت أن يتم الاقتران إلا في الفسطاط بعد فتحها . ثم هي هجرت بيتها وسافرت في خدمة مصلحة الدولة تمهيداً لهذا النصر لا يعلم أحد أين هي . ولا أنسى قولها ساعة الوداع « سنلتقي في الفسطاط في قصر مولاي المعز لدين الله على ضفاف النيل » ذلك هو مقدار وثوقها بالنصر والجند لم يتحرك من القيروان . واعترف لك يا سيدتي اني اعتقد صحة قولها وان ذلك لا بد من اتمامه »

فاستغربت بنت الاخشيد قوله وقالت « لله درها من فتاة نادرة المثال وأين هي الآن ؟ وكيف قلبك عليها ؟ »

قال « قاي على مثل الجمر والكني أثق أتا سنلتقي هنا »
 قالت « يظهر ان نساء بلادكم أقوى من نساء بلادنا وأشد حماسة فاني عرفت جارية مغربية اهداها الي يعقوب بن كلس بالامس لم تر عيني أعقل منها ولا أطيب من قلبها وهي مع ذلك شجاعة بأسلة لا تبالى بارتكاب الاخطار وقد قالت أنها تعرفك وتعرف أباك والخليفة وتعرف ايضاً الاميرين السجلماسيين اللذين حملاك الينا أسيراً . »

قال « ما اسمها »

قالت « سلامة . . »

قال « هي التي أتتني متكرة بثوب جندي وأخذت الكتاب الى والدي ! »

قالت « نعم هي بعينها لله درها . . اني لم أعهد مثل هذه الحماسة والبسالة في النساء حتى قلت لها مرة « ليست هذه الاخلاق من اخلاق الجواري »

فرأى الحسين مشابهة بين اخلاق لمياء وما سمعه عن سلامة وتذكر

خروج لمياء من القيروان لخدمة المعز . . . فاطرق وهو يقول في نفسه « هل يمكن أن تكون سلامة هي لمياء متسكرة ! »
 واستبطأت بنت الاخشيد جوابه ورأت اطراقه فتصورت انها جددت ذكرى خطيبته وهو بعيد عنها فلم ترد أن تشغله عن تأملاته فحولت بصرها نحو النافذة المطلّة على النيل والحيزة وراءه فرأت الروضة تعج عجيجاً بالناس وفيهم الفرسان بالرماح والسيوف والمشاة بالحراش في غير زي المصريين وقد تطايرت السهام وأبرقت السيوف فصاحت « ويلاء هذه هي الحرب . . قد دخل العدو بلدنا »

فالتفت الحسين الى الروضة وأجال نظره في تلك الجهات فقال « قضي الامر يا مولائي هذا جندينا يقطع الجسر وهذه أعلامنا ولا يلبث أن يدخل الجند الفسطاط ظافراً . . لكن كوني مطمئنة اني أفديكم بدمي ها اني نازل لاقف بالباب وأمنع رجالنا من دخوله طمئني اهل القصر جميعاً » قال ذلك وأسرع نحو الباب الخارجى الكبير وكان مقفلاً وقد أوصدوه . فرأى جندياً مغربياً يتساقه وخدم القصر يستغيثون به ويتقدمون اليه أن لا يفعل لأنهم لا يحاربون وهو لا يبالي . فصاح فيه الحسين « انزل يا رجل ان الذي يخاطبك هو الحسين بن جوهر »

فلم يكثر الجندي لقوله بل ظل في عمله حتى وصل الى عتبة الباب العليا فاستخرج من جيبه علماً أخضر نصبه فوقها وتحول الى الداخل وأشار الى اهل القصر أن يتركوا الباب مقفلاً . فنظر الحسين في وجهه فرآه ملثماً فقال له « من أنت يا رجل ؟ لماذا لم تحبني »

فأوماً اليه بوضع السبابة على شفته « أن اسكت الآن » ودخل مسرعاً فتذكر الحسين الجارية سلامة كيف تركته متسكرة بثوب جندي مصري وما خامره من الشك فيها عند سماع خبرها من بنت الاخشيد . فاصبح شديد الميل الى تحقيق ذلك فلحق بها ولم ينتبه له أحد من اهل القصر لاشتغالهم بالحذر والخوف وبما قام من الضوضاء في المدينة بين عويل وصياح . ودخول ذلك الجندي المغربي أربعهم لسكنهم ما لبثوا أن رأوه ينصب الراية

الحضراء حتى اطمأنوا ولكن الذين رأوه داخلا يعدو ولم يروا الراية
ذعروا

أما الحسين فما زال مسرعاً حتى دخل القاعة وطلب الى الحاجب أن
يدعو له السيدة بنت الاخشيد فنادها فأتت ولم ترسل الستر بينها وبينه
وانما اكتفت بالثقب وحالما وقع نظره عليها استغرب ما عليها من الاثواب
الثمينة والحلي وهو يسمع بما عليه اهل مصر من الضنك . أما هي فحالما رآته
صاحت « ماذا جرى ؟ »

قال « كل شيء في أمان وهذا علم والدي قد نصب فوق الباب وهو
علامة الامان فلا يجسر أحد أن يمس هذه الدار بسوء كوني في اطمئنان »
قالت « ومن غرسه هناك »

قال « جندي مغربي أظنه نفس الجندي الذي حمل رسالتي الى والدي
وقد أسرعت لاراه . . »

قال « أظن سلامة رجعت ؟ أين هي . . » وصفقت فأتت القهرمانة
وهي تلهث من الخوف فضحكت بنت الاخشيد من منظرها وقالت لها
« ما بالك يا خالة لماذا تلهثين »

قالت وهي تقطع صوتها « ان الاعداء دخلوا . . الفسطاط . . و . .
و . . ودخل رجل منهم هذه الدار . . »

قالت « لا تخافي ان هذا الجندي جاءنا بعلم الامان من قائد جند
المغاربة . كوني مطمئة لا بأس علينا . وهذا الحسين بن ذلك القائد . . .
أين سلامة الجارية »

قالت « لم أعد أراها منذ أيام »

قالت « ابجني عنها في غرفتها الآن وادعيها الينا حالا »

وقعدت وأشارت الى الحسين أن يقعد فقعد وعيناه شائعتان نحو الباب

ينتظر وصول تلك الجارية ولحظت بنت الاخشيد قلقه فقالت « مالي أراك
قلقاً كأنك تنتظر أن تأتيك سلامة بكتاب من والدك ؟ »

قال « كلا . فان هذا العلم يكفي جواباً . . ولكنني أتوقع أن تكون سلامة هذه غير ما تتوهمينها »
 قالت « وكيف ذلك ؟ »
 قال « تمهلي ريثما نرى »
 واذا بالقهرمانة عادت وهي تقول « لم أجد سلامة هناك ولكنني رأيت جندياً نفخت ورجعت »
 فنهض الحسين وقال « أين هو ذلك الجندي ؟ اوصليني اليه »

الفصل الحادي والسبعون

النصر

فشت القهرمانة وبنت الاخشيد والحسين حتى وصلوا الغرفة فوجدوا ذلك الجندي واقفاً الى النافذة يراقب حركات المتحاربين لا ينتبه الى أحد في الدار فشى الحسين بنخفة حتى وقف وراءه بحيث يرى ما يراه . فرأى المغاربة تكاثروا والاششيدية يفرون من أمامهم الى المدينة وقد تراكم القتلى منهم على الجسر وتجاوزهم بعض المغاربة على خيولهم وظهر الفوز واضحاً لهم فصاح (الجندي) « الحمد لله قد كتب النصر لنا » والتفت فوجد الحسين وراءه فبغت ووقف لا يبدي حراكاً فصاح فيه الحسين قائلاً « من أنت » فلم يجب وانما أشار الى ثوبه انه جندي فقال « أنا الحسين بن جوهر فازع هذا اللثام عن وجهك »

فأطرق ولم يجب . فقالت بنت الاخشيد « هذه سلامة حبيبتنا . . . اكشفي وجهك للحسين يا بنية أنه حامي ذمارنا »

فلم يجب فتقدمت بنت الاخشيد ورفعت اللثام بيدها فأرادت لمياء تحويل وجهها حتى لا يراها الحسين فرآها وعرفها وصاح « لمياء . . . » وأمسك بيدها وأدارها نحوه ليتحقق ظنه وهي تحول وجهها عنه حياء فدهشت بنت الاخشيد لما رآته وتذكرت ما قاله عن خطيبته فعلمت أنها هي نفسها

فتقدمت وساعدت الحسين عليها وأمسكت بيدها الاخرى وقالت « أنت لمياء خطيبة هذا البطل ونزعمين أنك جارية ؟ تكلمي . . »
فالتفتت الى الحسين لفظة تعودها منها فأثرت في قلبه تأثير السهم وقال
« تكلمي ما بالك ؟ . »

فقال « وعيناها تلمعان » قد تعاهدنا ان نلتقي هنا بعد فتح مصر . .
فهل فتحت ؟ »

قال « أوشكت ان تفتح . . »

قالت « اصبر لا تفرح قبل تمام النصر . . أنت هنا منذ أيام وأنا عالمة بذلك ولم أشأ أن أطلعك على وجودي لئلا نشتغل بالقلوب عن السيوف ولا أزال على ذلك حتى الآن . ان خدمة المعز مقدمة على كل شيء فاذا فرغنا منها وفتحنا البلد واستقر لنا الامر فاني أمتك أترامى عند قدميك . . »
قالت ذلك وغصت بريقها وأبرقت عيناها وبان الهيام فيهما واسترخت عزائمها . . والحسين ينظر اليها نظر الاعجاب والحجل وقال « اييت يا لمياء الا ان تكوني السابقة الى الفضل في خدمة أمير المؤمنين أبي متفان في خدمته ولاكنني دهشت لرؤيتك هنا وأنا أعهد مقرك منذ افترقنا بالقيروان الحمد لله على هذا اللقاء »

فنظرت اليه نظرة عتاب وقالت « وذانك الرجلان اللذان ساقاك اليينا في القيود والاعلال . . اني لا أعد النصر واقعاً وهذان الرجلان في قيد الحياة . . وأنا في شوق الى سماع ما جرى لك في اثناء هذا الغياب وأنت مشتاق الى حديثي فاذا تم النصر كما نريده نتحدث كثيراً »

فلما تذكر أبا حامد وسالماً هاج الدم في عروقه فقال « أين هما ؟ »
قالت « سأخبرك عن ذلك بعد قليل »

والتفتت بنت الاخشيذ الى لمياء وقالت لها « سنتركك هنا تبديلين

ثيابك »

قالت « كلا يا سيدتي لا أريد ان اغير شيئاً قبل الفراغ من هذا العمل . وهل ترين منظراً أجمل مما أرى هنا . . ليس في الدنيا ألد من

النصر في ساحة الحرب . . لا صبر لي عن هذا المنظر هيا بنا الى المعركة »
 قالت ذلك واسرعت فتبعها الحسين وهو يقول « المعركة . . لست أشد مني
 غيرة على الدولة ولكنك شغلتنى . . » ونزلا فركب كل منهما فرسه وتسليحا
 وبنت الاخشيدي ترى وتعجب . فلما خرجا قالت في نفسها « ان قوماً أنصارهم
 مثل هذين أحر بهم ان يفتحوا العالم »

ولم يسيرا الا قليلا حتى رأيا رجلا من اتباع الشريف مسلم حاملا علماً
 ابيض يؤمن الناس فادته لمياء فوقف فقالت « من ارسلك بهذا العلم وكيف
 الحال . »

قال « لما غلب الاخشيدي و قتل منهم خلق كثير ارتدوا الى مصر
 واخذوا من دورهم ما قدروا عليه وانهزموا وخرج حرمهم مشاة الى الشريف
 ابي جعفر وكلفنه ان يكتب القائد جوهر باعادة الامان . فكذب اليه
 بهتة بالفتح ويسأله اعادة الامان وهذا جوابه معي يؤمنهم وهذا العلم
 الابيض شاهد على ذلك . فاطمأن الناس وخرج الاشراف والعلماء
 ووجهاء البلد بموكب حافل يتقدمه الوزير ابن الفرات وجماعة الاعيان الى
 الجزيرة لملاقاة القائد عند دخوله الفسطاط ولا يلبثون ان يعودوا به . اأ
 تسمع المنادي ينادي بذلك »

فالتفت لمياء الى الحسين وقالت « قد تم النصر والحمد لله . . فلا حاجة
 الى الخروج بل ننتظر وصول الموكب »

ونحو العصر (١٧ شعبان سنة ٣٥٨ هـ) أقبل الموكب حتى دخلوا
 الفسطاط وعليهم السلاح والعدة فدخل جوهر وطبولة وبنوده بين يديه
 وعليه ثوب ديباج مقل وتحتة فرس أصفر^(١) فرافقوا الموكب حتى شق
 البلد ونزل في مكان أتاخ فيه جوهر جماله وبنيت فيه القاهرة بعد ذلك .
 فالتفت الحسين الى لمياء يستشيرها فيما ينبغي ان يفعل فقالت « هلم بنا الى
 مقر ذينك اللعينين في الفندق أظنهما هناك »

فتبعها وساقا الجوادين وقد قاربت الشمس الغروب حتى أتيا الفندق

فلما رآها صاحبه رحب بهما خوفاً منهما وان كان المتادون قد نادوا بالامان
ثم وقع نظره على لمياء فعرفها ورآها بلباس جند المغاربة فاستأنس بها وتقدم
اليها وهو يقول « هذا صديقنا الصقلي »

فضحكت له وقالت « انتا في حاجة الى تلك الغرفة الآن »
قال « قد دخلها الرجلان في هذه الساعة »

الفصل الثاني والسبعون

ابو حامد وسالم

فالتفتت الى الحسين وقالت « قد تم سعدنا » وساقا الجوادين الى
داخل الفندق حتى صارا في وسطه وترجلا وأسرعوا الى الغرفة فطرقا بابها
فسمعا لغطاً ولم يفتح الباب فاستل كل منهما خنجره وصاح الحسين « افتح »
فأجابهما ابو حامد من الداخل « ان أفتح لكما . . ليس خوفاً على
حياتي ولكنني لا أريد أن أموت بيد أحدكما . . ولا ينبغي أن أبقى حياً
بعد هذا الفشل . وأخاف أن يحين هذا الغلام فيستعطف ويتذلل وأنا
أعرف ضعفه وجبنه . فأنا الآن قابض على عنقه وها اني أطعنه في قلبه . .
قد طعنته ثمان وهذه طعنة في قلبي وهذا الباب قد فتحتك لكما فاستلما جثتين
بلا روح »

ثم سمعا وقوع الجثة وفتح الباب فوجدا الرجلين يخطبان بدمهما
فغطت لمياء عينيها حتي لا ترى ذلك المنظر الرهيب ولا تريد أن ترى سالماً
حبيبها الأول في تلك الحالة رغم ما رأت منه أو سمعت عنه . وتحولات الى
فرسها وهي تقول للحسين « هلم بنا الى المعسكر لنرى قائدنا العزيز . فقد
قضى الامر وتم النصر »

فتبعها وهو يقول « كنت أود أن اقتلها بيدي »

قالت « قتلها الفشل »

وهما خارجان اعترضهما صاحب الفندق وهو يبكي ويقول « قتلتما

الرجلين .. وذهبتا . الآن يقبضون علي ويتهمونني بقتلهما .. بالله لا تذهبا «
فتقدمت لمياء اليه وقالت « قتلا بامر القائد جوهر .. وهذا هو الحسين
بن جوهر القائد لا تخف »

فاكب على ركاب الحسين يقبله ويقول « اعذرني يا سيدي على
جسارتي .. والله ان هذا الصقلي رجل طيب .. مع السلامة يا سيدي مع
السلامة »

وانصرفا حتى أتيا المعسكر وقد أظلم الليل ولكن الانوار كانت تسطع
في تلك الانحاء وقد اقبل المصريون زرافات ووحداً على جوهر يهشونه
بالنصر وعرفا فسطاطه من كبره وكثرة من حوله من الحجاب فما زالوا حتى
وقفا بالباب واستأذنا بالدخول . فلما قيل لجوهر ان الحسين يستأذن عليك
نهض له وضمه الى صدره وقبله فقبل الحسين يده . ثم تقدمت لمياء بثوب
الجند فقبلت يد القائد فدعاها الى الجلوس هي من جانب والحسين من
الجانب الآخر . وكان في جملة الحضور هناك أبو جعفر مسلم بن عبيد الله
الشريف فعرفهم اليه فرحب بهما وهنأهما بالنصر . واذا بصوت خرج من
جوانب الخيمة يقول « ويعقوب ؟ » فعلمت لمياء انه صوت يعقوب بن كلس
فالتفتت الى جوهر وقالت « لا اقدر ان اصف لك الفضل الذي اولاني
إياه الشريف أبو جعفر والمعلم يعقوب فاننا مدينون لها بكثير من أسباب
هذا النصر وبحياتي ايضاً ولولاها لكنت الآن في عالم الاموات »
فقال « الحسين فالفضل إذاً علي أنا »

وبعد قليل انصرف المهشون وبقي جوهر ومسلم ويعقوب والحسين
ولمياء وكان اجتماعهم لذيذاً على أثر ما عانوه من التعب حتى كتب لهم النصر
فقص كل منهم ما عاناه في اثناء الغياب والتفت جوهر الى لمياء وقال « قد
صحت نبوءتك يا بنية فالتقينا في الفسطاط بعد فتحها ألم يئن العقد عليك »
فقالت « الحمد لله على ذلك لكن العقد اشترطت فيه ان يكون في قصر
مولاي المعز لدين الله على ضفاف النيل . . . »
قال « ألم تصر الفسطاط كلها قصراً له . »

قالت « بلى لكنني أريد قصره الخصوصي . »
فضحك جوهر وقال « انك تريدن ان يؤجل الاقتران حتى يحضره
المعز بنفسه فانك أهل لذلك .. وفي الغد نبدأ ببناء القصور لمولاتنا وبعد قليل
يأتي الى مدينته ويعقد لسكما يديه المباركة »
وأخذ جوهر في اليوم التالي في بناء القاهرة ثم بنى القصور وبعث الى
المعز باخبار الفتح فانتقل المعز الى مدينته وأقام بها وتوارثها أعقابها بعده على
ما هو مدون في كتب التاريخ . وكان اول عمل عمله انه عقد للحسين على
لمياء باحتفال لم يسمع بمثله

(تمت الرواية)

